شؤون فلسطينية

١٢٨ تموز (يوليو) ١٩٨٢

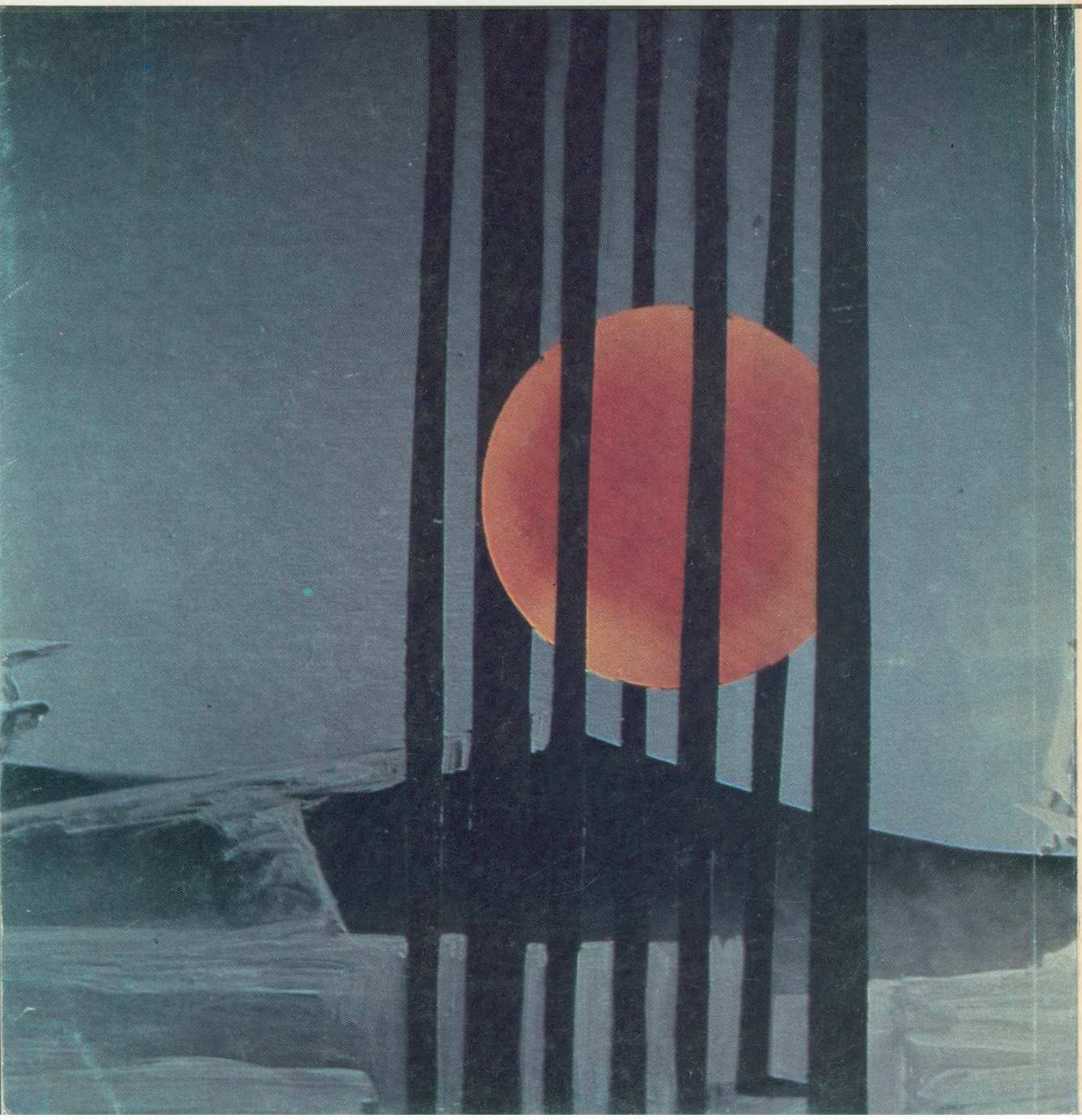

شؤون فلسطينية ١٢٨ تموز (يوليو) ١٩٨٢

شؤون فلسطينية

١٢٨ تموز (يوليو) ١٩٨٢

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة

تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

رئيس التحرير بلال الحسن

المدير العام: صبري جريس

سكرتير التحرير: عزالدين المناصرة

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين

المواد التي ترد إلى المجلّة لا تُردّ، سواء نشرت أم لم تنشر

العنوان بناية الدكتور راجي نصر، شارع كولومباني (متفرع من السادات)، رأس بيروت ــ لبنان، ص.ب ١٦٩١، تلفون التحرير ٨٠٨٩٧٦/٧/٨، التوزيع ٨٠٨٣٣١، برقياً مرأبحاث، بيروت.

الاشتراك السنوي (بريد جوي) في الاقطار العربية (عدا لبنان وسوريا) ــ للأفراد ١٣٥ ل.ل.، للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل. في أوروبا ٦٠ دولاراً، في أميركا وباقي دول العالم ٧٥ دولاراً (بريد عادي) في لبنان وسوريا ــ للأفراد ١٠٠ ل.ل.، للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٥٠ ل.ل.

المحتويات

الأهداف الحقيقية للعدوان الاسرائيلي	بلال الحسن	٤
الغزو الاسرائيلي للبنان بين الأهداف والنتائج	صبري جريس	٨
حرب الوجود والدفاع عن الوجود	فيصل حوراني	١٤
مقابلة مع العميد سعد صايل	عز الدين المناصرة	١٨
الدولة الفلسطينية شرط اساسي للسلام العالمي.....	خالد الحسن	٢١
الشرق الأوسط في ظل استراتيجية الحربين	عصام خفاجي	٤٠
القضية الفلسطينية وجدلية الصراع	د. حسام الخطيب	٥٦
المسألة الفلسطينية والرأي العام الأميركي	الأب دونالد اي. واغنر	٨٢
غسان كنفاني	رفيقة بن رجب	٩٤
غسان كنفاني	فخري صالح	١٠٦

تقارير

اسرائيل وجنوب افريقيا.....	روزالين اشلي	١١٨
رحيل الأستاذ	د. ابراهيم ابولغد	١٣٧

رسائل

حملة بريطانية لاقصاء.....	فلورا لحام	١٤٠
السينما الاسرائيلية في مهرجان «كان»	محمد سويد	١٤٣

مؤتمرات

فلسطين في مؤتمرين شيوعيين	علي فياض	١٥٠

كتب

فلسطين في طوابع البريد ..... عبد القادر ياسين ١٥٤
مخطوط عن الصهيونية ..... ع.م ١٥٦

شهريات

الغزو الاسرائيلي عربياً ..... أحمد شاهين ١٦٥
الغزو الاسرائيلي دولياً ..... ع.خ ١٦٨

لوحة الغلاف من اختيار الاتحاد العام للفنانين التشكيليين الفلسطينيين، للفنان ياسر ابو سيدو

الأهداف الحقيقية للغزو الاسرائيلي

الغزو الاسرائيلي للبنان، والذي بدأ فعلياً بغارات جوية على بيروت يوم الرابع من حزيران (يونيو) ١٩٨٢ ولا يزال مستمراً حتى الآن، حدث تاريخي يوازي في أهميته احداث ١٩٤٨، و١٩٦٧، و١٩٧٣، وستكون له، بناءً على ذلك، نتائج استراتيجية، تنعكس على المنطقة العربية بكاملها، فتهتز عروش وتيجان وكراس يظن أصحابها أنها صلبة صلدة، ذلك أن للحرب قوانين فعلها الخاصة التي تتجاوز الحسابات العقلية الباردة، ومن أبرز هذه القوانين البسيطة، أنه لا شيء بعد الحرب يبقى كما كان قبل الحرب، سواءً أدرك ذلك الحكام أم لم يدركوا.

لقد بدأت عملية الغزو بهدف اسرائيلي معلن، هو احتلال مسافة أربعين كيلومتراً في عمق الأرض اللبنانية المتاخمة للحدود الاسرائيلية، من أجل ابعاد المدافع والقوات الفلسطينية عن منطقة الجليل ومستوطناتها، وربطت اسرائيل هذا الهدف المباشر بهدف أوسع، يقول بضرورة القضاء على البنية العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

إلا أن هذا الهدف الاسرائيلي المعلن، ما لبث أن تلاشى بسرعة، وكشفت التحركات العسكرية الاسرائيلية، أن الهدف من عملية الغزو أكبر من ذلك وأوسع، وأن له أهدافاً استراتيجية أشمل؛ تتطلع إلى تغيير كامل في الخارطة السياسية للمنطقة، والى فرض سياسة كامب ديفيد على أربعة أطراف عربية، الأمر الذي يحقق لاسرائيل نصراً عسكرياً وسياسياً كاسحاً يفرض نفسه لسنوات طويلة، ويحقق للولايات المتحدة الأميركية هيمنة كاملة على المنطقة، يخضع فيه الشرق الأوسط برمته لأهداف السياسة الأميركية واستراتيجيتها. لا بد هنا أن نسجل أن بعض الأطراف العربية وقعت في فخ المناورة الاسرائيلية، وظنت فعلاً أن هدف عملية الغزو هو الهدف الاسرائيلي المعلن لها، ثم تنبهت على ضوء التطورات العسكرية الميدانية أن الأهداف الفعلية للغزو كبيرة وخطيرة، وأنها تسعى لأن تطال الجميع دون أن تقتصر على ضرب الثورة الفلسطينية في جزء محدود من الأرض اللبنانية. وبفسر ذلك، إلى حد ما، الصمت والتلكؤ العربيين في مواجهة عملية الغزو، وهو صمت وتلكؤ دفع الفلسطينيون واللبنانيون ثمنه من لحمهم الحي، وحين تحرك العرب رويداً رويداً لتعويض اللحظات الحاسمة التي فاتت، كان تحركهم دوماً متأخراً، وأحياناً خارجاً عن الموضوع، أو شاعراً بالعجز عن التأثير.

وحين نراقب تطبيقات اسرائيل الميدانية لتحقيق هدفها الاستراتيجي من الغزو، بعيداً عن الهدف المعلن، نجد أنها تحركت على أربعة مستويات في وقت واحد:

المستوى الأول: محاولة ضرب الوجود المادي للثورة الفلسطينية على الأرض حتى ولو استدعى ذلك تصفية الوجود المادي للشعب الفلسطيني في مناطق تواجده الأساسية، وكما حدث ذلك بالفعل في مخيمات صور، حيث دمر بعض هذه المخيمات بالكامل، واعتبر كل فلسطيني فدائياً يحمل السلاح، واقتيد إلى اسرائيل كأسير، ثم طورت اسرائيل عملها بهذا الاتجاه عندما تم لها حصار مدينة بيروت، وسعت إلى أن تدخل للمدينة بالقوة العسكرية لتقتل أو لتأسر قيادة الثورة؛ وفي ظل الحصار والتهديد بمعركة مدمرة، طالبت بأن تعلن الثورة الفلسطينية إلقاء السلاح، مع انسحاب لقيادتها تحت اشراف الصليب الأحمر الدولي، وهو ما رفضته الثورة الفلسطينية بإصرار ثوري، واتخذت في مواجهته كل الاستعدادات للقتال، بينما أعلنت في الوقت نفسه أمنها، وحرصاً منها على مدينة بيروت وأهلها، مستعدة لفتح حوار مع السلطة اللبنانية يعطيها كل المخارج الواقعية والعملية حول اشكال الوجود الفلسطيني المسلح التي تتيح لها الصمود (إن أرادت)، في وجه الضغوط والشروط الاسرائيلية التي كان ينقلها مؤيداً وداعماً المبعوث الأميركي فيليب حبيب.

المستوى الثاني: محاولة طرد الجيش السوري من لبنان، مع محاولات تكتيكية دؤوبة لعدم التورط في حرب واسعة مع الجيش السوري يمكن أن تتحول إلى حرب شاملة بين اسرائيل وسوريا. وقد طبقت اسرائيل تكتيكها هذا في ثلاثة اتجاهات: اتجاه احتلال المواقع التي انسحب منها الجيش السوري من العيشية وجزين وحتى منطقة الشوف، وصولاً إلى السيطرة على الطريق الدولية بين بيروت ودمشق في منطقة المديرج. واتجاه إبعاد القوات السورية في منطقة البقاع الغربي إلى منطقة قريبة من نقطة المصنع اللبنانية. ثم اتجاه الصعود بعد محاصرة قصر بعبدا إلى منطقة المتن، للإطلال على القوات السورية المرابطة في منطقة البقاع الأوسط وتهديدها من هناك. ومع التنبه السوري المتزايد لهذا الهدف الاسرائيلي، أمرت سوريا قواتها المتبقية في منطقة بيروت بالصمود والتعاون الكامل مع القوات المشتركة الفلسطينية ــ اللبنانية، وقاتلت قواتها المتواجدة في الجبل دفاعاً في الجبل دفاعاً عن مواقعها في وجه الاندفاع الاسرائيلي حتى بحمدون، وعززت قواتها في منطقة البقاع استعداداً لمعركة أكبر، ولكن هذه الوقائع أبرزت الاصرار الاسرائيلي على طلب خروج الجيش السوري من لبنان، في ظل رفض سوري واضح لهذا الطلب، عبر عن نفسه بجلاء في الرد على الرسالة السرية التي أرسلها الرئيس الياس سركيس إلى المسؤولين السوريين يسألهم عن مدى موافقتهم على هذه المسألة.

المستوى الثالث: فرض احتلال على لبنان، لا ينتهي إلا بتوقيع معاهدة سلام لبنانية ــ اسرائيلية على غرار المعاهدة مع مصر، وبتشكيل حكومة لبنانية جديدة تكون اسرائيل شريكة في اختيار عناصرها وفي تحديد توازناتها. ومع أن مناحيم بيغن أعلن أكثر من مرة رغبته في توقيع هذه المعاهدة، ومع أن الجنرال شارون أعلن أنه من الرياء القول بأن اسرائيل لا تهتم بمستقبل الوضع الداخلي، إلا أن المسألة على خطورتها لم تسلط عليها الأجهزة الاعلامية الأضواء اللازمة، وبقيت جزءاً من التكتيك الاسرائيلي الذي يركز على ضرورة انهاء الوجود الفلسطيني والوجود السوري في لبنان، تحت شعار الحرص على تحقيق السيادة اللبنانية، بينما كانت السيادة اللبنانية منتهكة باحتلال واسع للبنان، وبحصار لقصر رئيس الجمهورية في بعبدا،

وبتوغل في مناطق لبنانية لا وجود لأي قوات فلسطينية أو سورية فيها. وقد ساعد على نجاح هذا التكتيك الاسرائيلي المبعوث الأميركي فيليب حبيب الذي كان يدير من القصر الجمهوري «وساطة» تركز على المطلبين الاسرائيليين، وتتجاهل واقع الاحتلال الاسرائيلي للبنان، وواقع التدمير الذي يرافقه، وواقع قتل المدنيين بالغارات الجوية، مؤثراً في ذلك على بعض رموز الحكم الذين وضعوا ثقتهم بالمسعى الأميركي، وأحبطوا من أجله مساعي دولية عديدة، كان من أبرزها المسعى الفرنسي في مجلس الأمن، والذي تم في النهاية بمعزل عن موافقة السلطة اللبنانية.

هذه المستويات الثلاثة لتحرك الغزو الاسرائيلي في لبنان، تتجاوز مسألة إبعاد القوات الفلسطينية عن مستوطنات الجليل الاسرائيلية إلى أهداف عملية مباشرة ذات بعد استراتيجي، يكمل عملية كامب ديفيد ببعديها الاسرائيلي والأميركي، وينتج عنها:

أولاً: معاهدة «سلام» اسرائيلية ــ لبنانية ممهورة بخاتم الاحتلال وشروطه.

ثانياً: أمل بإحياء مفاوضات الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة يشارك فيها هذه المرة فلسطينيون من المناطق المحتلة، بعد أن يجري اقتناعهم بعدم جدوى الرفض والاستنكاف، بعد أن تم إلغاء منظمة التحرير من الخارطة السياسية.

ثالثاً: الضغط على الأردن في ظل الظروف الجديدة لإقناعها بالاسهام في تكميل عملية كامب ديفيد.

رابعاً: مواصلة الضغط على دمشق لإجبارها على الدخول في مفاوضات تفرض عليها معاهدة مذلة.

وقد استند السعي الاسرائيلي للوصول إلى هذه الأهداف التي تغير خارطة الشرق الأوسط تغييراً جذرياً، إلى تأييد أميركي مطلق تزعمه وزير الخارجية الأميركي الكسندر هيغ، والذي تولى القيام بتغطية يومية لكل تصعيد اسرائيلي، كما تولى الاعلان عن تبني الولايات المتحدة لكل شرط اسرائيلي معلن، مساهماً بذلك في عملية الضغط على القيادة الفلسطينية وعلى الأطراف اللبنانية، لكي لا يكون أمامها من خيار إلا خيار الرضوخ والاستسلام.

ولكن هذا التخطيط الاسرائيلي ــ الأميركي الشامل اصطدم بأوضاع لم تكن محسوبة اسرائيلياً بدقة، أولها وأبرزها، القتال الشجاع أمام آلة عسكرية جبارة، هذا القتال الذي أوقع خسائر كبيرة بين جنود الجيش الاسرائيلي وآلياته، وأطال أمد المعركة إلى وقت أطول بكثير مما كانت قد خططت له اسرائيل. وقد أدى طول المعارك وما رافقها من خسائر إلى تململ واضح داخل أوساط المعارضة البرلمانية، ثم داخل أوساط الجمهور الاسرائيلي الذي أعد نفسه لمعركة محدودة، ثم وجد نفسه أمام نوع من الحرب الشاملة التي تورد له القتلى والجرحى يومياً. أما المعنى العسكري الاستراتيجي لطول أمد الحرب، بين جيش نظامي متكامل وقوات فدائية غير نظامية، فقد لخصه بدقة اسحق رابين رئيس الوزراء الأسبق حين قال: لقد انتهى عهد الحرب الخاطفة، وهو ما يعني بكلمات أخرى، انتهاء عهد ذلك النوع من الحروب الذي تفضله اسرائيل، والذي كانت تحسم فيه المسائل بسرعة وبالحد الأدنى من الخسائر البشرية.

وإلى جانب القتال الشجاع الطويل الأمد، فإن التلاحم الشعبي الفلسطيني ــ اللبناني، كان واقعاً فاجأ قوات الغزو الاسرائيلية، إن على صعيد القتال المشترك، أو على صعيد التغطية السياسية للمواقف الفلسطينية، وبشكل خاص حين اشتد الحصار العسكري على بيروت، وبرزت مطالب اسرائيل باعلان استسلام منظمة التحرير الفلسطينية.

كذلك، فإن الصمود الفلسطيني على مستوى القيادة في بيروت، بالرغم من وطأة الحصار والغارات الجوية والقصف المدفعي، والتأثيرات الفادحة لكل ذلك على المدنيين، خلق عاملاً عرقل تكتيكات المبعوث الأميركي فيليب حبيب، الذي عمل كناقل للشروط الاسرائيلية أكثر مما عمل كوسيط مفاوض. وارتبطت صلابة الموقف القيادي الفلسطيني في وجه الضغوط والشروط الاسرائيلية، بمرونة وواقعية تجاه الطرف الحكومي اللبناني، كان هدفها الرئيسي التأكيد على أن أي اتفاق حول مستقبل الوجود الفلسطيني في لبنان لن يكون إلا اتفاقاً فلسطينياً ــ لبنانياً، وترسم تفاصيله انطلاقاً من قاعدة الاعتراف اللبناني الرسمي بمنظمة التحرير الفلسطينية.

وقد أدت هذه العوامل كلها، إلى احداث تغييرات سياسية محدودة ولكنها مهمة، وتمثلت في استقالة وزير الخارجية الأميركي الكسندر هيغ الذي منح لمعركة اسرائيل تأييد الولايات المتحدة المطلق، وجاء تعيين وزير الخارجية الأميركي الجديد جورج شولتز، ليمثل وقفة أمام التكتيكات الأميركية تجاه أهداف الغزو الاسرائيلي، دون أن يؤثر ذلك على المواقف الاستراتيجية الأميركية حول مستقبل لبنان وأزمة الشرق الأوسط. كما تمثلت هذه التغييرات في تحول واضح في الموقف الأوروبي، وبخاصة الموقف الفرنسي، الذي كان مؤيداً للأهداف الاسرائيلية في بداية الغزو، ووقف شاجباً لأهداف هذا الغزو وتطلعاته عندما بدأ حصار بيروت، وتضح مدى الدمار الذي احدثته اسرائيل في المدن اللبنانية الأخرى. أما الساحة التي بقيت «صامدة» أمام القتال الفلسطيني وتأثيراته، فهي الساحة العربية بشكل عام، والتي انتقلت على امتداد أيام الحرب من الصمت الى التحرك العاجز الذي لم يسفر في اجتماع وزراء الخارجية العرب في تونس مثلاً، إلا عن تشكيل لجنة لمتابعة الأحداث والاتصالات السياسية الدولية. ولا شك بأن هذا العجز العربي إزاء الحدث التاريخي ستكون له نتائج كثيرة وكبيرة، لا بد أن تعبر عن نفسها بخضات متنوعة الأشكال والأهداف في المرحلة المقبلة.

لقد خاضت الثورة الفلسطينية أطول حرب في تاريخ الصراع العربي ــ الاسرائيلي، وأحدثت حربها تفاعلات على مستوى العالم، كله، وأياً كانت نتائج هذه الحرب فوق الساحة اللبنانية، فإن الذين يحلمون بالقضاء على القضية الفلسطينية واهمون. إن القضاء على موقع عسكري لا يعني القضاء على ثورة، ومحاصرة مقاتلين في مدينة ما لا يعني محاصرة القضية، فشعب القضية موجود ومتحرك وفاعل في مناطق الاحتلال وخارجها، وأزمات الثورات لا تزيد عادة إلا من صلابتها، وكل تجربة لا بد أن تفرز دروسها القادرة عليتجديد الدم وتحريك حيوية الذهن التي تؤهل للانتقال إلى مرحلة جديدة من النضال. وإذا كانت حرب لبنان ستطرح من الآن وصاعداً كثيراً من الأسئلة الفلسطينية، فمن المؤكد أن اسئلة كثيرة مماثلة ستطرح على الصعيد العربي أيضاً، والتفاعل الثوري الفلسطيني ــ العربي تجاه هذه الاسئلة سيكون له في المستقبل القريب شأن لا يستهان به. فالعجز العربي الذي يصل إلى حد التواطؤ لن يكون مسألة عابرة.

بلال الحسن

الغزو الاسرائيلي للبنان
بين الاهداف والنتائج

صبري جريس

عملية الغزو التي قام بها العدو الصهيوني لمناطق شاسعة في لبنان مع مطلع الشهر الماضي، أي بعد مرور ١٥ عاماً باضبط على حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، وذلك في صراعه مع منظمة التحرير الفلسطينية، محاولاً سحقها والقضاء على الفلسطينيين كعامل سياسي مستقل في المنطقة، لم تتمكن من تحقيق اهدافها، خصوصاً السياسية منها. فالصمود الذي واجهت به القوات المشتركة اللبنانية ــ الفلسطينية جيش الغزو الصهيوني، باسلحته الحديثة والمتنوعة، والخسائر الكبيرة نسبياً التي لحقت به في المعدات والأفراد فاجأت العدو، واجبرته على اعادة النظر في مواقفه وتغيير بعض مخططاته. كما ان الانعكاسات الاولية التي ترتبت على نتائج هذه الحرب حتى الآن لا تخلو من خطورة بالنسبة للكيان الصهيوني، على الصعيدين الداخلي والخارجي، من حيث تأثيرها على شعوره بالامن والطمأنينة، أو افشال مخططاته لفرض تسويات سياسية وفق شروطه، وبالتالي وضعه عامة في المنطقة على المدى البعيد.

وللوقوف على ابعاد الوضع الراهن وامكانات تطوره في المستقبل، يجدر بنا ان نلقي نظرة على ما خطط العدو له، وكيف حاول تنفيذه اصلاً، وعلى ما حصل عليه فعلاً حتى وقف اطلاق النار، أولاً مع سوريا، ثم مع المقاومة الفلسطينية. لقد كان هدف قادة العدو الصهيوني من غزوهم لبنان، كما صرحوا بذلك مراراً وتكراراً خلال نصف السنة الماضية ــ وعلى حد تعبيرهم ــ «تدمير البنية التحتية» لمنظمة التحرير الفلسطينية، أو على الأقل اضعافها إلى ذلك المدى الذي لا تستطيع معه التصرف كعامل سيساسي مستقل، يمكن ان يكون له رأيه في أية تسوية محتملة لازمة المنطقة. وسبب ذلك هو ان التيار الصهيوني الفاشي، من تكتل ليكود والمتدينين، الحاكم في اسرائيل حالياً، اصبح يرى في منظمة التحرير الفلسطينية بعد ان صلب عودها وازدادت قوتها نسبياً خلال السنوات الأخيرة، نوعاً من المسمار، لا الشوكة، في حنجرة الكيان الصهيوني، لا يستطيع ابتلاعه ولا لفظه. ومن هنا نشأ التفكير في ضرورة اجراء «عملية جراحية»، علها تساعد الكيان الصهيوني على التخلص من بعض مشاكله.

لقد وقع الكيان الصهيوني على سلم مع مصر، انطوى، من وجهة نظره، على «تنازلات» و«تضحيات» كبيرة قدمتها اسرائيل، أدت في نهاية الأمر إلى انسحاب القوات الاسرائيلية من

الأراضي المصرية المحتلة بأسرها، لقاء تبادل التمثيل الدبلوماسي في «سلام بارد» مع مصر، لم تنجم عنه فوائد جمة لاسرائيل. وزعماء الكيان الصهيوني لم يقدموا هذه «التنازلات» صدفة، ولوجه الله؛ بل لتكون بمثابة ارضية ينطلق منها قطار كامب ديفيد ليشمل العواصم العربية الأخرى المجاورة لاسرائيل، حيث يفرض الصلح على تلك الدول بطريقة تؤمن وجود الكيان الصهيوني واستمرار نموّه. ولكن قطار كامب ديفيد سرعان ما تعطل، ولم يستطع تجاوز الحدود المصرية، وذلك ــ هكذا قدر حكام اسرائيل ــ لان منظمة التحرير الفلسطينية «تخيف» الدول العربية وتمنعها من عقد صلح مع الكيان الصهيوني. ولذلك لا بد من «تدمير» المنظمة أو على الأقل اضعافها بحيث تصبح عاجزة، لا تستطيع ان «تخيف» أحداً. وعندما يتم هذا، تُمهد الطريق أمام اسرائيل لفرض الحل الذي ترتأيه للقضية الفلسطينية، باقامة حكم ذاتي للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، لن يكون الا غطاء لاستعمارهما بشكل دائم، على غرار نظام «البانتوستان» في جنوب افريقيا. اما الفلسطينيون في المهاجر فلا علاقة لهم بهذه الحلول مطلقاً، باعتبارهم لاجئين، لا تتحمل اسرائيل اية مسؤولية تجاههم، وينبغي ايجاد حل لمشكلتهم، بصفتهم تلك، في الدول العربية المختلة. ومع تحقيق ذلك تمهد، في الوقت نفسه، الطريق للمرحلة النهائية من تصفية الصراع العربية ــ الاسرائيلي، باستمرار مسيرة كامب ديفيد وفرض التسويات على الدول العربية المجاورة لاسرائيل بحملها، الواحدة بعد الاخرى، على عقد الصلح مع الكيان الصهيوني.

الا ان هذه الاهداف السياسية بالذات هي ما فشل الغزو الصهيوني في تحقيقه، وهذا هو بيت القصيد، وهو ما ينبغي ان نعيه جيداً في تعاملنا مع الواقع المستجد.

لقد حاولت طغمة بيغن ــ شارون ــ شامير تحقيق مخططها هذا بتجريد حملة عسكرية واسعة، طال الحديث عنها في اسرائيل، وضمت مع اوجها نحو ٨٠ ألف جندي، مزودين بكافة اسلحة التدمير الحديثة الأميركية الصنع. وعندما حانت ساعة التنفيذ، اندفعت هذه القوة بسرعة جنونية داخل لبنان، خصوصاً على الطريق الرئيسية الساحلية، حيث وصلت إلى مشارف بيروت، ثم اتجهت نحو المناطق الجبلية التي لم يكن للقوات المشتركة وجود فيها اساساً. ومن هناك انعطفت نحو مناطق التواجد الكتائبي، في محاولة للضغط عليهم من جهة، وضمان دفعهم نحو المساهمة في المخططات الاسرائيلية، ان دعت الحاجة إلى ذلك، من جهة اخرى. وفي الوقت نفسه، هاجمت قوات الغزو الصهيوني جنوب لبنان على محورين آخرين ايضاً. و «على الخريطة» يظهر هذا العمل، لأول وهلة، نوعاً جديداً من «عبقرية» شارون المتجددة. الا ان الواقع عكس ذلك تماماً، اذ ان جرة شارون لم تعد من البئر سالمة هذه المرة، بل انه اوقع الكيان الصهيوني في ورطة قد تكون عواقبها وخيمة، بعد ان اخطأ في حسابه وتقديراته.

ومن الواضح ان شارون، وهو العقل المخطط لعملية اجتياح لبنان وكبير المنظرين لها سياسياً وعسكرياً، انطلق في تخطيطه للغزو من التجارب العديدة التي اكتسبها في تعامله العدواني مع العرب، خلال ما يزيد على ٣٠ سنة. وكان شارون قد تقلب في مناصب عدة خلال هذه الفترة، ابتداءً من قيادة وحدة القتلة والزعران في الجيش الاسرائيلي، التي عرفت باسم الوحدة ١٠١، وتخصصت في شن العمليات الانتقامية ضد الدول العربية المجاورة لاسرائيل في مطلع الخمسينات، مروراً بوحدة المظليين التي انبثقت من تلك الوحدة، ثم قيادة قطاعات اخرى مختلفة من الجيش الاسرائيلي في كافة الحروب التي خاضها مع العرب، إلى ان اصبح وزيراً

للدفاع. وخلال هذه الفترة الطويلة لجأ شارون، دائماً وأبداً، إلى اتباع اسلوب الاندفاع السريع والصاعق بقواته في عمق الأراضي العربية، محاولاً الوصول إلى أبعد مسافة ممكنة في اقصى وقت ممكن، ومن ثم الالتفاف على القوات التي تواجهه. كذلك يلاحظ ان شارون تجاوز، في أكثر من حالة، الصلاحيات التي اعطيت له، وحاد عن سير المعركة الذي خطط اساساً، كما حدث خلال غزوة سيناء سنة ١٩٥٦، وخلال حرب تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣. وكانت نتيجة هذا التكتيك، في أكثر من حالة، تفكك القوة العربية المواجهة له ثم انهيارها فالقضاء عليها؛ وان أدّى ذلك أيضاً، في حالات نادرة محدودة، إلى استبسال القوات المحاصرة ودفعها إلى القتال بشراسة، مما اوقع في قوات شارون خسائر كبيرة، أو أجبره على تغيير مخططه.

وما فعله شارون في الماضي، في حروبه مع العرب، حاول تكراره هذه المرة أيضاً. الا ان النتائج اختلفت. فما كان يحدث في الماضي من انهيار في القوات العربية لم يحدث هذه المرة بالذات في المواجهة مع القوات المشتركة، لسبب بسيط هوكونها قوات غير نظامية، تعمل وفق أساليب وقواعد حرب الشعب، التي لم يواجهها الجيش الاسرائيلي في الماضي. وهنا كان خطأ شارون. فبعد ان انقشع الغبار الذي اثارته الدبابات والآليات الاسرائيلية المختلفة في زحفها السريع، واستقرت نسبياً خريطة المواجهة، اتضح ان القوات الصهيونية انتشرت في اماكن واسعة، دون ان تتمكن من السيطرة التامة عليها، حيث «فرشت» نفسها على الطرق الرئيسية وبعض المواقع الاستراتيجية، دون ان تخاطر في الانتشار والسيطرة على الطرق الفرعية أو المناطق الخالية من السكان، معرضة بذلك نفسها لحرب عصابات مستمرة لا تستطيع تحملها طويلاً. أما المواقع الفدائية المتحركة التي حاولت القوات الاسرائيلية اجتياحها فسرعان ما بدلت أماكنها وراحت تتعامل مع العدو بالوسائل الملائمة. فبعض الوحدات الفدائية «اختفت» مع اقتراب الغزو من مناطق تواجدها، ثم ظهرت مجدداً، باعتراف العدو نفسه، لتعمل خلف صفوفه؛ بينما انسحبت غيرها إلى أماكن أخرى، تستطيع ان تعمل بحرية أكبر انطلاقاً منها. أما القوات التي بقيت في أماكنها، فقد خاضت قتالاً مشرفاً مع قوات العدو، واوقعت في صفوفه، مرة أخرى باعتراف أجهزة الاعلام الصهيونية نفسها، اصابات لا تقل عدداً عن تلك التي تكبدتها. وعموماً، بقيت القوات المشتركة متماسكة وصلبة وقادرة على العمل، ان كانت تلك التي تعرضت للحصار في بيروت الغربية وضواحيها، أو التي بقيت تعمل في المناطق الاخرى.

ولا شك ان هذه المحصلة، من ناحية المواجهة العسكرية ــ البشرية، هي أكبر دليل على فشل الغزو الاسرائيلي في تحقيق أحد أهدافه الرئيسية، ان لم يكن الهدف الرئيسي نفسه. فالسعي إلى تدمير «البنية التحتية» لمنظمة التحرير الفلسطينية يقضي، أولاً وقبل كل شيء آخر، القضاء على قوتها العسكرية، مهما كانت محدودة. وهذا بالضبط ما فشل العدو الصهيوني في تحقيقه، بدلالة انه راح يطالب، من ضمن شروطه لفك الحصار عن بيروت، بنزع سلاح المقاومة سلماً، بعد ان فشل في ذلك عنوة. ولعل العبرة الرئيسية من حرب حزيران (يونيو) ١٩٨٢ تكمن في هذه الناحية بالذات، وخلاصتها ان توفر ارادة القتال، مرفقاً بالتخطيط الصحيح والتعامل الملائم مع العدو، كفيل بالتصدي للجيش الصهيوني، الذي أرهب أكثر من حاكم عربي؛ والمثابرة على هذا النهج كفيلة بدحره مستقبلاً.

غير انه قبل الحديث عن المستقبل، ينبغي معالجة الوضع الراهن وتشعباته. فحالياً تنتشر قوات الغزو الصهيوني في اماكن واسعة من لبنان، وتحاول استغلال هذا الانتشار لتحقيق

مكاسب سياسية، بمختلف طرق الابتزاز والتهويل. كذلك يبدو ان هذا الاحتلال لن ينحسر بسرعة عن كافة المناطق التي يتواجد فيها حالياً، مما يمكن الكيان الصهيوني، بمفرده أو بمساعدة المتواطئين أو الصامتين أو المتفرجين، من الاستمرار في ابتزازه. ولكن الرد على هذه المحاولات ينبغي ان يكون واضحاً بطبيعة الحال. لقد فشل العدو، ببساطة، في تحقيق اهدافه الرئيسية، بواسطة الحرب، ولذلك ينبغي، ببساطة أيضاً ولكن بمنتهى الوضوح، منعه من تحقيق ذلك بواسطة السياسة، مهما كانت التضحيات.

و«الانجاز» الوحيد الذي حققته الفاشية الصهيونية خلال غزوها لبنان كان الدمار الواسع وقتل الآلاف من المدنيين الابرياء. وعدا عن ذلك لا تستطيع التبجح بتحقيق أي «انجاز» آخر. اما آمالها وسعيها إلى تحقيق اهداف اخرى، وخصوصاً «تدمير» منظمة التحرير الفلسطينية وشطب الفلسطينيين كعامل سياسي مستقل في المنطقة، فقد ذهبت ادراج الرياح. فمنظمة التحرير الفلسطينية، وجميع حلفائها في الحركة الوطنية اللبنانية، باقون وصامدون، كما ان جميع القطاعات والأجهزة والمؤسسات التابعة لهم، مدنية كانت أم عسكرية، لا تزال تعمل كما كان عليه الحال في السابق، ولا يبدو انها ستتوقف عن العمل في المستقبل. اما التبجح بـ «تدمير البنية التحتية» لـ م.ت.ف. فقد اتضح انه محض هراء، اذ ان ما دمره العدو فعلاً كان عدداً من الابنية والمنشآت، التي ليس من الصعب اعادة تشييدها.

صحيح ان العدو الصهيوني يحاصر الآن مدينة بيروت، وان كان يعلن حتى الآن انه لا ينوي احتلالها، ليس نتيجة لـ «اخلاقه الحميدة» والضغوط الدولية والمحلية التي يتعرض لها، وانما لادراكه بعد تجربته في الصدام مع القوات المشتركة في أكثر من موقع، ان محاولاته دخول المدينة، وفيها من فيها من المقاتلين اللبنانيين والفلسطينيين باسلحتهم المختلفة، قد تتحول إلى مجزرة لآلياته وجنوده، لا قدرة له على تحمل نتائجها، بعد ما لحق به من خسائر حتى الآن. الا ان قوات الغزو، على الرغم من ذلك، مستمرة في ضغطها على المدينة واحكام الحصار حولها. وهي، وان ارغمت على فك هذا الحصار، ان آجلاً أو عاجلاً، بالوسائل العسكرية أو غيرها، ستستمر في ضغطها في المناطق الأخرى، وان جان ذلك لمجرد وجودها فقط في تلك المناطق، التي لا يبدو انها ستنسحب منها خلال فترة قصيرة. ولذلك ينبغي ان نتوقع فترة من المواجة الدائمة، السياسية والعسكرية، تشتد طوراً وتخف تارة، وربما تستمر شهوراً. وهذا وضع لم نعهده سابقاً، وينبغي التعامل معه بالطرق والاساليب الملائمة.

وفي مواجهة هذا الواقع المستجد لعله من المستحسن ان نتذكر جيداً انه اذا كانت الأصابع اللبنانية والفلسطينية في النار، فان اليد الاسرائيلية بأسرها في النار أيضاً. فلكي يستمر العدو في حصاره لبيروت، أو يحافظ على سيطرته على الأماكن التي غزاها في كافة انحاء لبنان من جهة، ويدافع عن تواجده فيها لفترة غير محددة، دعماً لمطالبه السياسية، من جهة اخرى، يحتاج إلى اعداد ضخمة من الجنود. ولتأمين هذه القوات، لا بد من دعوة احتياطه للخدمة. وهذا ما قام به فعلاً. غير انه، في مقابل ذلك، من المعروف جيداً ان هنالك حدا للوقت الذي يمكن لاسرائيل خلاله ابقاء احتياطها في الخدمة الفعلية، من حيث تأثير ذلك على قوة العمل فيها وبالتالي اقتصادها، المتدهور اساساً والذي لا شك انه سيزداد تدهوراً بسبب الحرب. وقد بدأت فعلاً الصعوبات في هذا المجال بالظهور. فلم تمض الا نحو ١٠ أيام على بدء القتال حتى كان رئيس اتحاد الصناعيين في اسرائيل يطلق صيحات الاستغاثة، معلناً ان الصناعة في خطر،

بسبب نقص الايدي العاملة، ومطالباً بتسريح قوات الاحتياط من الخدمة، ولكن طلبه رفض. وبعد اعلان وقف اطلاق النار بفترة قصيرة، طرأ ارتفاع بمقدار ١٩٪ على اسعار كافة السلع الغذائية الاساسية ، بعد ان خفض الدعم الحكومي لها. كذلك ناشدت الحكومة الاسرائيلية يهود العالم مطالبة بزيادة تبرعاتهم لاسرائيل. والحبل على الجرار، ما دام الغزو مستمراً.

غير ان الأخطر من هذا كله، من وجهة النظر الاسرائيلية، هو ذلك الانتشار الواسع لقوات الغزو الصهيوني في مناطق وعرة وجبلية، تكاد مثالية لحرب العصابات. «لقد جاءوا الينا بارجلهم»، كما قال احدهم، وعليهم ان يدفعوا ثمن ذلك، يومياً وباستمرار. وهذا بالضبط ما ينبغي ان يكون تكتيك المرحلة المقبلة واستراتيجيتها. ان القوات المشتركة اللبنانية ــ الفلسطينية، التي لا تزال صلبة ومتماسكة، وتعد بالآلاف، وتتواجد في معظم المناطق، ان لم يكن كلها، لا تحتاج إلى التفتيش عن العدو للاشتباك معه أو ضربه، فهو موجود في أماكن عدة، ليس اسهل من الوصول اليها. ويقيناً ان هذه القوات لو ارسلت كل يوم وكل ليلة ٣ أو ٤ مجموعات، مشكلة من ٣ إلى ٥ عناصر لكل منها، لضرب تجمعات العدو وأفراده هنا وهناك وهنالك، لشلته واربكته لعدة أشهر، واوقعت في صفوفه اصابات جمة، لا يستطيع ان يتحملها طويلاً. ويبدو ان هذا ما يحدث حتى الآن، وان لم يعلن عنه، اذ لم يمر يوم منذ بدء الغزو الا ويعلن الراديو الصهيوني عن مواعيد عدد من الجنازات تجرى هنا وهناك، في كافة انحاء اسرائيل، لافراد من قواته سقطوا في لبنان. ومن المعروف جيداً ان مثل هذا النزيف الدائم، المتمثل في اعداد القتلى الذين يسقطون يومياً، يشكل ضغطاً قوياً لا يستطيع الصهيونيون تحمله لفترة طويلة. كما ان استمرار الضغط العسكري، وان على شكل حرب عصابات، يمنع العدو من الاستقرار ويضعه في حالة ارباك دائم، لم يعهد مثلها في الماضي في مواجهته مع الجيوش العربية، مما يشكل ضغطاً قوياً ومستمراً على الكيان الصهيوني. وعموماً، تبدو الأوضاع ملائمة للغاية لاصحاب نظريات حرب الشعب لاثبات صحة نظرياتهم، وهذه المرة على أرض الواقع.

واضافة إلى ذلك، هنالك أيضاً الصعوبات التي يواجهها الغزو على الصعيد الدولي. فعدا عن موقف الامبرياليين الاميركيين، الذي لا يخلو أيضاً من تحفظ، ليست هناك ولو دولة واحدة تؤيد الكيان الصهيوني في حربه على لبنان والفلسطينيين. ولعل القرارات الصادرة عن مجلس الامن، التي تستنكر العدوان وتطالب بالانسحاب الاسرائيلي من لبنان، دون شروط، وهي القرارات التي لم يستطع المجلس اصدار غيرها بسبب الموقف الأميركي، دون غيره، خير دليل على ذلك.

ويلاحظ ان هذه العوامل مجتمعة بدأت تفعل فعلها، فراحت اشارات التصدع تظهر على ما يسمى «الاجماع القومي» في اسرائيل حول اهداف غزو لبنان. ويبدو انه لن يمر وقت طويل حتى تظهر الخلافات واضحة وتتصدع الجبهة الداخلية، على ما يجره ذلك من تغيير في المواقف السياسية ومن ثم العسكرية. أما على المدى البعيد، فينبغي ان لا نستبعد، نتيجة للفشل الاستراتيجي الذي مني به العدو، ظهور تفاعلات وتطورات داخل الكيان الصهيوني شبيهة بتلك التي شهدناها بعد حرب تشرين، على ما يجره ذلك من تمزق في اسرائيل، على اصعدة عدة، يؤدي إلى اضعافها. وقد يكون في ذلك نهاية الحياة السياسية لمثلث بيغن ــ شارون ــ شامير، ومن ثم أفول نجم التيار الصهيوني الأكثر فاشية، بالدلالات المختلفة التي ينطوي ذلك عليها.

وفي وضع كهذا، ومع شيء من التماسك وارادة التصدي، ليس من الصعب تأمينهما، لن

يمر وقت طويل والا ويبدأ العدو الصهيوني الانسحاب من لبنان، ودون ان يتمكن من احراز مكاسب تذكر، خصوصاً هدفه الرئيسي. وعندما يتحقق ذلك، مشكلاً تصديقاً على أكبر وأخطر ــ وربما آخر ــ عملية اسرائيلية لـ «تدمير» م.ت.ف. والغاء العامل الفلسطيني، سيتحول الفلسطينيون إلى كيان سياسي واقعي، على الأقل، لن يكون بالامكان الاستمرار في تجاهله، حتى من قبل اسرائيل. والمكاسب السياسية التي ستلي ذلك واضحة للعيان.

والمطلوب هو الصمود والتصدي. ونحن قادرون على ذلك.

حرب الوجود والدفاع عن الوجود

فيصل حوراني

منذ العام ١٩٤٧، ومع تبدل الظروف العربية والاسرائيلية، ومع تعاقب الحكومات والانظمة وصفوف القادة على الجانبين، ومع توالي السنين والعقود، تتكرر الحروب العربية ــ الاسرائيلية، حرب كبيرة كل عقد، وعشرات الحروب الصغيرة بين كل حربين.

وفي كل واحدة من هذه الحروب، تتبدل عوامل وتتطور اخرى، في حين يظل عدد من العوامل ثابتاً لا يتبدل عبر هذا الصراع العربي ــ الصهيوني، الذي لا يخفت الا ليحتدم من جديد.

وأكثر العوامل ثباتاً واستمراراً في مجرى الصراع العربي ــ الصهيوني برمته هو وجود الشعب العربي الفلسطيني واستهداف اسرائيل لهذا الوجود، بوصفه النقيض الأكثر حدة لوجودها ذاته.

بدأ الأمر هكذا منذ بداية الصراع ضد الصهيونية، وتأكد عبر تطور هذا الصراع، وتأكد أيضاً، وبصورة خاصة، بعد الاعلان عن قيام اسرائيل، واشتداد حاجتها لتثبيت وجودها، وللتوسع الذي تقرنه اسرائيل بحاجتها لهذا التثبيت.

والعامل الثاني الثابت، وهو عامل مرتبط بالاول، أن كل الحروب العربية ــ الاسرائيلية انطلقت من اسباب تتصل بنشاط الشعب الفلسطيني لحماية وجوده وابرازه، أو استندت إلى هذه الأسباب، ثم امتدت واتسعت فشملت الأطراف العربية، الراغبة أو غير الراغبة، اساساً، في المشاركة في الصراع.

أما العامل الثالث، الثابت هو الآخر، فهو أن الوجود الفلسطيني، الذي تعرض لضربات بدت ساحقة أو شبه ساحقة في كل حرب، كان يعود بعد الحروب، أقول وأكثر فعالية، وكان بعد كل حرب يجد اشكالاً اكثر تقماً للتعبير عن نفسه. ويتصل بهذا العامل ان وتيرة العودة لتأكيد الوجود الفلسطيني من جديد وبعد كل ضربة، اخذت تشتد، وصار بمقدور الشعب الفلسطيني وهو يراكم الخبرات والقدرات، ان يختصر الزمن اللازم من اجل اعادة البناء ومن اجل تطويره.

فلكي تقوم دولة اسرائيل، توجب على المنظمات الصهيونية ان تشن في عام ١٩٤٧ حرب ابادة وتشريد ضد الشعب الفلسطيني، وكانت هذه هي البداية الكبيرة التي اججت الحرب العربية ــ الاسرائيلية عام ١٩٤٨ و ١٩٤٩، واذا كانت هذه الحرب قد افرزت نتائجها المعروفة،

في الظروف المعروفة، فإن الشعب الفلسطيني لم يبد بالرغم من تعرضه لكارثة ماحقة. ولم تنطفىء، إلى الأبد، قدراته النضالية، كما تمنى خصومه كافة. وبعد مضيّ ثماني سنوات كان فدائيون فلسطينيون يتسللون باسلحتهم من قطاع غزة ويثيرون الرعب داخل اسرائيل القوية الحصينة.

ومن اجل ان تتوسع اسرائيل، ولكي توقف غارات الفدائيين الفلسطينيين، وفي ظروف دولية بدت مواتية لها، شنت اسرائيل، الاشتراك مع بريطانيا وفرنسا، العدوان الثلاثي، شعلة الحرب العربية الاسرائيلية الثانية، واحتلت قطاع غزة، فضلاً عن سيناء، واقصت الجيش المصري إلى غربي قناة السويس. وظنت اسرائيل انها بهذا ظفرت بالجائزة الكبرى. غير أنها ارغمت على الانسحاب من سيناء ومن القطاع. والأهم من هذا ان تجربة المقاومة الشعبية الفلسطينية في القطاع، هي التي افرزت بدايات تشكيل المنظمات الفلسطينية الفدائية، التي اخذت تتبلور بعد سنتين فقط من عدوان عام ١٩٥٦، وان ما خلفه العدوان الثلاثي من خبرات وعظات هو الذي امّن قيام منظمة التحرير الفلسطينية، بعد ثماني سنوات من وقوع العدوان، وفتح الطريق أمام الانطلاقة الواسعة لابراز الكيان الوطني الفلسطيني من جديد ولقيام مؤسساته السياسية والعسكرية.

وفي العام ١٩٦٧، كان العمل الفلسطيني المسلح قد بدأ منذ عامين. ولكي تقضي اسرائيل على هذا العمل، ولكي تضرب القاعدة الوطنية الفلسطينية التي يستند إليها، ولكي تزعزع العمق العربي الذي يحتويه، ولكي تتوسع، شنت اسرائيل عدوان حزيران والحقت هزيمة ماحقة بثلاثة جيوش عربية بكاملها، ووضعت كل فلسطين، بالإضافة إلى سيناء والجولان، تحت سيطرتها المباشرة. وتوهمت اسرائيل أنها ظفرت بالجائزة الكبرى، حين اصبح نصف الشعب الفلسطيني في قبضتها، ونصفه الآخر موزعاً على الدول العربية المهزومة في الحرب.

ولكن الأمر هذه المرة، لم يقتض سوى اشهر قليلة، لكي ينطلق العمل الفدائي انطلاقته الكبرى، ولكي يتعزز وجود منظمة التحرير الفلسطينية بانتقال قيادتها إلى ايدي حملة البنادق، ولكي يرسخ الكيان الوطني الفلسطيني وجوده السياسي والعسكري في دنيا العرب، وفي الأراضي المحتلة أيضاً.

وحين استلم النظام الأردني زمام المبادرة لزعزعة هذا الكيان، وبلغ الصراع معه ذروته في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٧٠، ومع ان المبادرة الأردنية لقيت الدعم السياسي والعسكري من اسرائيل، ومن دول الغرب التي تحمي اسرائيل، ومع ان منظمة التحرير الفلسطينية تعرضت في ايلول وبعدها لنكسة كبيرة، ومع أن أطرافاً عربية هي التي ادارت الحرب على المنظمة هذه المرة، فان هذا كله لم يقدم رأس الشعب العربي الفلسطيني لاسرائيل، ولم يزعزع مسيرة تأكيد كيانه الوطني لا في قليل ولا في كثير. بل ان حرب ايلول، بالذات، هي التي اسهمت في رفع الأمور، عربياً ودولياً، في اتجاه الاعتراف الواسع بشرعية هذا الكيان، وبشرعية تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية له، وهي التي حسمت على الساحة الفلسطينية أيضاً مواقف المترددين، وجعلت راية المنظمة الراية الوحيدة المعترف بها فوق هذه الساحة.

ولم يأت زمن الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة، في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣، الا وكانت منظمة التحرير قد اصبحت ذلك الطرف السياسي والعسكري الذي يحقق حضوره الكبير على ساحة الصراع العربي ـ الصهيوني، بامتداداته المحلية والعربية والدولية. ومع ان جيوشاً

كبيرة تطاحنت في هذه الحرب، وان خسائر ضخمة وقعت في صفوفها، ومع ان هذه الحرب افرزت تياراً عربياً استسلامياً واسع التأثير، فإن حقيقة كبرى تأكدت بعدها، وهي ان قضية فلسطين هي لبّ الصراع الدائر على أرض الشرق الأوسط وحوله، وانه لا حل لهذا الصراع قاباً للثبات اذا لم ترض عنه منظمة التحرير.

وحين ظنت اسرائيل انها قطفت ثمرة جهودها وجهود لفائها الغربيين في اتفاقات كامب ديفيد، وحين مضى الظن باسرائيل إلى حد الأمل بالغاء الكيان الوطني الفلسطيني، بعد ان خرجت مصر من ساحة الصراع الساخنة، ظهرت المنظمة داخل وطنها وخارجه، بوصفها العامل الأكثر فاعلية لاستقطاب الجهد العربي والدولي الرافض لاستسلام كامب ديفيد والمتمسك بضرورة حصول شعب فلسطين على حقوقه الوطنية، واتسع الاعتراف والتأييد العربيان والدوليان لهذه الحقوق على نحو لم يسبق له مثيل.

كل هذا جعل مطلب الدولة الفلسطينية المطلب الاكثر الحاحاً الذي يدق كافة الأبواب والنوافذ، وجعل الاستقلال الفلسطيني حقيقة تتفتح العيون كافة على تفتحها الحثيث وفي كل مكان.

حرب حزيران (يونيو) الثانية، هذه التي تدور مطاحنها، فيما نكتب هذه الكلمات، استهدفت صراحة وبغير لبس القضاء على منظمة التحرير، وقبر حقيقة الاستقلال الفلسطيني، وحصول اسرائيل على جائزتها الكبرى التي ظلت في بالها عبر كل حروبها السابقة، وهي سحق شعب فلسطين والغاء مطالبه الوطنية.

وقد اختار الاسرائيليون لهذه الحرب وقتاً ظنوه، من جانبهم، انسب الأوقات؛ الساحة اللبنانية الممزقة، والمحاور العربية المتصارعة والتي تفتقر جميعها إلى الفعالية الكافية، ووجود طرف لبناني متعاون مع اسرائيل، واطراف اخرى جاهزة للتعاون، واحتدام التوتر الدولي الذي يشغل أهم اصدقاء الفلسطينيين وهم السوفيات في معمعانه.

وتوهم الذين أعدوا لهذه الحرب أنها ستكون نزهة، تسمح لهم بقطف الثمرة خلال يومين أو ثلاثة والعودة برأس كليب. ولذا لم يترددوا حتى في اعلان هدفهم ووضع شروطهم التي هي الاستسلام الفلسطيني بغير شروط، غير آبهين بحقيقة وجود المنظمة ومدى رسوخها وامتدادها.

غير ان ما اتضح منذ اليوم الأول لحرب حزيران الثانية هذه جاء تأكيداً لكل الحقائق التي تراكمت على ساحة الصراع وعبر عقوده المرئية.

فقد اتضح، قبل أي شيء آخر، ان اللحم الفلسطيني مرّ على كل الطامعين في نهشه، وان الشعب الفلسطيني الذي ألفَ تقديم التضحيات قادر على ايقاع خسائر متكافئة في صفوف الغزاة.

ونبين، فوق هذا، ان الالتحام الفلسطيني ــ الوطني اللبناني، الذي راهن العدو على زعزعته، منيع وان همة المقاتل الوطني اللبناني في الدفاع عن ارض لبنان وعن وجود منظمة التحرير، ليست أقلّ مضاء من همة المقاتل الفلسطيني في الدفاع عن الأمرين معاً.

كما اتضح ان الحرب التي خطط لها ان تكون حرب ابادة ضد الشعب الفلسطيني وحده، والتي وضعت حسابها على اساس ان مقاتلي هذا الشعب سيقاتلون وحدهم، لم تنغلق ضمن هذه الدائرة المحصورة المحاصرة، وان المساس بعماد القضية الفلسطينية يمس كل من تعنيهم هذه القضية، وتؤثر على وجودهم وكياناتهم وادوارهم القائمة أو المأمولة من قبلهم.

وبدل ان تحسم اسرائيل امرها في ساعات وأيام، وجدت نفسها في شبكة القضية الفلسطينية، وبدل ان تفصل القضية اللبنانية عن القضية الفلسطينية،وجدت ان غزوها للبنان قد ابرز مدى التشابك بين القضيتين، وبدل ان تستفيد من الرغبات العربية المتعددة لتحجيم منظمة التحرير ونفي دورها في اقلاق العروش والكراسي الهانئة، وجدت اسرائيل نفسها مرغمة على ان تحك الانوف العربية، وبدل ان تستثمر الوضع الدولي، ادى الغزو الاسرائيلي للبنان واتساع هذا الغزو وضخامة المخاطر المعلنة التي ستترتب على نجاحه، إلى وضع الاتحاد السوفياتي في موقف المضطر للدفاع عن وجود ومصالح اصدقائه وعن مصالحه المباشرة ايضاً.

وهكذا دارت مطاحن هذه الحرب على اشد ما يكون، وامتدت بدل الايام اسابيع، وقد تمتد لفترة أخرى، بعد ان وضعت اسرائيل الجميع في الزوايا الحادة.

وأياً كانت النتائج التي ستنجلي عنها حرب حزيران الثانية هذه، فإن الطرق التي عبدها نضال الشعب الفلسطيني في اتجاه الحصول على حقوقه الوطنية لن تقفل.

العميد سعد صايل* لـ «شؤون فلسطينية»:

ثماني فرق مدرعة ومشاة ميكانيكية مدعمة بسلاح الجو وسلاح البحرية... اجتاحت لبنان

* شؤون فلسطينية: الأخ العميد... بطبيعة الحال، إنّ أي تقويم لهذه المعركة المتواصلة سيكون صحفياً وسريعاً وغير دقيق، ولهذا رأينا تأجيل هذا السؤال فيما بعد، ولكن نود ان تتحدث لنا عن الأساليب العسكرية الاسرائيلية التي اتبعت في هذه المعركة المتواصلة، وبماذا تميزت هذه الأساليب عن أساليب الحروب الاسرائيلة ضد الدول العربية في السابق؟؟

سعد صايل: معلوماتنا، ومن خلال سير القتال، نفيد ان العدو الصهيوني دفع، في هجومه على لبنان، ما مجموعه ثماني فرق مدرعة وميكانيكية، واستخدم العدو أسلوباً، هو في اطاره العام ليس جديداً، وقد قام العدو بعمليات احتلال مناطق محددة، وقام بعزلها عن المناطق الأخرى، ومن ثم فإنه، بعد ذلك، قام بعمليات تفتيش وتدمير ضمن كل منطقة معزولة على حدة.

ما كان جديداً وتجاوز كافة المعلومات المتوافرة لدينا ولدى العرب أيضاً، منها قدرة سلاح البحرية على عمليات الإنزال البرمائي؛ إذ أن عمليات الانزال البرمائية هذه كان لها دور كبير في إنجاز عمليات العزل للمناطق مع الاندفاع البرّي؛ أما دور باقي الأسلحة الاسرائيلية وخاصة سلاح الجو، فهو لم يخرج عن المتوقع، وبرز سلاح الجو كما هو الحال في الحروب العربية الاسرائيلية السابقة.

وكما هي العادة لدى العدو، فقد تميزت المعركة بالمبلغة والإسراف الاسرائيليين في حجم قوة النيران؛ إن كان يهدف إلى شل إرادة القتال لدى القوات المشتركة، لكن العدو ــ حتى هذه اللحظات ــ فشل في تحقيق هذا الهدف، وقد قاتلت القوات المشتركة بشجاعة وشرف.

* شؤون فلسطينية: قال أحد جنرالات العدو: ان القوات الاسرائيلية استخدمت أسلوب «دمج عمليات الجو والمدفعية والدبابات وسلاح المشاة»، واعتبرت هذا الأسلوب أسلوباً جديداً، وأشار جنرال آخر إلى سلاح اعتبره سلاحاً جديداً وهو «سلاح الطوافات» ما هو تعليقكم؟

---

* العميد سعد صايل هو قائد غرفة عمليات القوات المشتركة الفلسطينية ــ اللبنانية، وعضو اللجنة المركزية لحركة فتح.

** أجرى عز الدين المناصرة هذا الحوار السريع مع العميد صايل في ١٨/٦/١٩٨٢، أثناء سير القتال.

سعد صايل: الأسلوب الأول ليس جديداً؛ أما بالنسبة لسلاح الحوامات، فقد كان ملاحظاً أن طائرات الهليكوبتر الهجومية (A.A.H)، كان لها دور بارز في القتال، خاصة وأن القوات الاسرائيلية، من خلال العمليات الصغيرة التي سبق ذكرها، قد جرّبت هذه الطائرات في جنوب لبنان، واستخدام مثل هذه الطائرات ساعد كثيراً في التمهيد لتقديم التسهيلات لعمليات الإنزال البرمائية واندفاع القوات البرية.

* شؤون فلسطينية: كيف كانت القدرة القتالية للقوات المشتركة في معارك الجنوب المستمرة؟. وما هو الأسلوب أو الأساليب العسكرية التي استخدمتها قواتنا؟

سعد صايل: ثبت، بما لا يدع مجالاً للشك، أن القوات المشتركة تمتلك قدرة عالية من الإرادة القتالية في كل المواقع التي قاتلت فيها، هذه القدرة النابعة، أساساً، من التلاحم الشعبي اللبناني الفلسطيني مع هذه القوات. ورغم دخول العدو في مختلف المناطق، فقد ثبت ان هذه الإرادة القتالية هي أقوى من غطرسة العدو وإسرافه ومبالغته بقوة نيرانه، ومن الجدي الملاحظ في تاريخ الصراع العربي الاسرائيلي، أن هذه القوات المشتركة تمكنت من شل إرادة العدو وفرضت على الكثير من وحداته المتقدمة الاستسلام، بدليل وقوع عدد من الأسرى في قبضة قواتنا، ومنهم أيضاً الكثيرون الذين كانوا يتخلون عن أسلحتهم ودروعهم في الموقف الصعب الذي كانوا يجدون أنفسهم محاطين فيه.

أما اسلوب قتالنا فقد ارتكز على نقطتين: النقطة الأولى هي القتال المتحرك الدائم لمجموعات صغيرة في كل المناطق التي دخلها العدو. والنقطة الثانية هي الإمساك ببعض النقاط الحاكمة والدفاع عنها. وقد ثبت لغاية الآن أن هذا الأسلوب كان ناجحاً في مواجهة العدو في كل المناطق التي دخلها. وتمكنت القوات المشتركة من فرض خسائر بشرية ومادية كبيرة على العدو. اعترف بها وإذا كان العدو، كعادته، يخفي الأرقام الصحيحة لخسائره. إلا انني اعتقد أنه، من خلال سير القتال لغاية الآن، ان العدو مضطر لإعادة حساباته وتقديراته على ضوء النتائج والخسائر التي فرضت عليه. ومما يدعو للإعجاب هو قدرة القوات المشتركة على إدامة القتال لمدة اسبوعين ضد قوات العدو التي تفوقهم عدداً وعدة بكميات لا مجال فيها للمقارنة. وهذا في اعتقادي يعود إلى الإرادة القتالية التي تتمتع بها القوات المشتركة والدعم الشعبي لها، وان هذه القوات مصممة على خوض المعركة حتى النهاية. وأتوقع اننا نستطيع ــ كما حققنا انتصارات في سير القتال لغاية هذه اللحظات ــ أن نحقق انتصارات أخرى.

* شؤون فلسطينية: ماذا عن القتال خلف خطوط العدو في الجنوب؟

سعد صايل: من الجدير بالذكر أنه، في المناطق التي اقتحمها العدو والتي حاول فيها اختيار أهداف رمزية مثل القرى والمدن وتدميرها، بهدف شل إرادة القتال لدى القوات المشتركة، فشل فشلاً ذريعاً في تحقيق مثل هذه الأهداف، إذ، لغاية هذه اللحظات، لا زالت قواتنا، من خلال المجموعات الصغيرة، مستمرة في قتال العدو في المناطق التي دخلها. وبهذا تمكنت تلك المجموعات من إشغال الحجم الأكبر من قوات العدو، والتأثير على عدم إمكانية قيام هذه القوات بالتعاون مع قوات أخرى في المناطق المختلفة.

* شؤون فلسطينية: ماذا عن خطوط الإمداد والتموين ونظامها واستمراريتها؟؟

العميد سعد صايل: ما يساعد على استمرار مجموعاتنا الصغيرة في القتال، هو النظام

الإداري الجيد والذي كان مُعدّاً مسبقاً في كل المناطق؛ إذ ان هذه المنظومة الإدارية كانت العالم الأساسي الذي ساعد على استمرار القتال طيلة هذه الفترة وحتى هذه اللحظات.

* شؤون فلسطينية: يشن العدو حرباً نفسية وعسكرية الآن بتدمير بيروت، تمهد للابتزاز السياسي بفرض الشروط الاميركية الاسرائيلية، فما هي استعداداتنا لمعركة بيروت هذه التي يريدون فرضها علينا؟

العميد سعد صايل: يقوم العدو الآن، بشن حرب نفسية تستهدف التأثير السلبي على معنويات القوات المشتركة والجماهير اللبنانية الفلسطينية، تمهيداً لمعركة بيروت، التي نحن مصممون على خوضها ومستعدون لها. ولكن القوات المشتركة وكافة الجماهير الوطنية اللبنانية الفلسطينية مصممة على خوض هذه المعركة وكلها ثقة بالنصر، وإننا، في هذه اللحظات، أكثر ثقة بالله وبأنفسنا وباستمرار هذه الثورة وتحقيق كامل أهدافها، رغم الصعاب ورغم كل المؤامرات ورغم الأدوار المتخاذلة والخيانية التي برزت من أطراف كثيرة، لأن ثقتنا بأمتنا العربية وثقة أمتنا العربية بنا، كبيرة، وقد قمنا وسنواصل القيام بدورنا للدفاع عن شرف الأمة، كل هذا أقوى من كل المؤامرات... وعلى الله التوفيق.

الدولة الفلسطينية*
شرط أساسي للسلام العالمي

خالد الحسن

تقديم

لا أعتقد أن المصادفة هي التي جعلت من «الدولة الفلسطينية» موضوعاً للبحث يرتبط بالحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني. فطالما أن هناك شعباً اسمه الشعب الفلسطيني، فان ذلك يرتب له حقوقاً طبيعية ثابتة غير قابلة للتصرف، منها حق المواطنية لأفراده، في اطار مجتمع هذا الشعب فوق أرض وطنه، حيث يمارس حياته ويصنع مستقبله وفق قِيَمِه المجتمعية ومتطلبات تطوره، من خلال سيادته الذاتية واستقلاله الوطني، أي أن يكون الفلسطيني مواطناً في دولة فلسطينية مستقلة فوق أرض فلسطين، وطن الشعب الفلسطيني الذي أعطى الأرض هويتها عبر التاريخ.

لقد تطورت القوانين المجتمعية عبر تاريخ البشرية بحيث حددت الحقوق المدنية والسياسية للأفراد والشعوب والدول، والحقوق الطبيعية الثابتة، وصولاً الى تأكيد حق كل شعب في بناء دولته المستقلة، وجعل هذا الحق فوق النقاش.

وعنوان البحث الذي كلفت به، ربط بين قيام الدولة الفلسطينية وبين السلام العالمي، الذي يشمل بالطبع السلام في فلسطين وفي الشرق الأوسط. ان هذا الربط بين الدولة الفلسطينية وبين السلام، يفرض تحديد معنى السلام، وخاصة، بعد أن تعددت الكلمات المستعملة في هذا المجال المتمثل بمشكلة الشرق الأوسط ككلمة «أمن» و«استقرار» و«حدود آمنة» الى جانب كلمتي السلام والسلام العالمي.

وتحديد معنى السلام مطلوب هنا، ليس لمجرد البحث الأكاديمي، بل من منطلق توجيه آفاق التفكير السياسي، الذي يستعمل كلمات سياسية ذات دلالات مختلفة، لوصف

---

* المحاضرة التي ألقاها خالد الحسن عضو اللجنة المركزية لـ «فتح» رئيس لجنة العلاقات الخارجية في المجلس الوطني الفلسطيني، أمام ندوة باريس الدولية (١٢ ــ ١٤ أيار ــ مايو ١٩٨٢)، التي ناقشت الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني. وقد حذفنا من هذه المحاضرة مقاطع تتصل بشؤون تاريخية معروفة للقارىء العربي.

حل لمشكلة واحدة قائمة. ان الكلمات ذات الدلالات المختلفة تؤدي، عند ارتباطها بهدف هو حل المشكلة، الى اختلاف الأهداف، وبالتالي، الى اختلاف الوسائل والمناهج المتبعة للحل. ومثل هذا الاختلاف الذي قد يصل الى حد التناقض، لا يعطل تحقيق الحل الصحيح للمشكلة فحسب، بل ويعمم الفوضى. وحين تنتقل فوضى الدلالات وتناقضاتها الى مرحلة الممارسة والتنفيذ، يزداد عدد المشاكل وحدتها وتعقيدها، وبالتالي الابتعاد عن الحل.

قد يكون من المفيد أن نقترب من فهم المدلول الذي نعتقده لكلمة «السلام» من خلال توضيح ما نفهمه من كلمات الأمن والاستقرار.

ان «الأمن» (Security) أو «الاستقرار» (Stability) في المجتمع، أو في منطقة تضم أكثر من دولة، انما هو وصف لحالة مادية قائمة قد تكون نتيجة فرض بفعل القوة المادية الديكتاتورية في المجتمع، أو بين دول المنطقة من قبل احداها، أو من قبل دولة كبرى من خارجها، وهو ما يعرف بحالة فرض الانضباط الدولي (International Order) بفعل القوة بالتهديد باستخدامها (Threat) أو بالردع (Detterant).

ان فرض الأمن أو الاستقرار، بفعل القوة المادية وبدون عدالة، لا يحقق السلام، ولا يحمل صفة قابلية الديمومة، لتعارضه مع الحرية، وتناقضه مع العدالة، ولأن استمرار الوضع المفروض يرتبط باستمرار وجود القوة التي فرضته، وقدرتها على الاستمرار في ممارسة الفرض، وليس بالعدالة القابلة للديمومة الاختيارية. مثل هذه الحالة، تحمل في ذاتها بذور التمرد عليها ومناخ تغييرها، بالقوة المضادة، حالما تسنح الفرصة لذلك.

أما اذا كان الأمن أو الاستقرار قائماً بفعل قوة الايمان بالفكر المحقق للسلام، من خلال انطلاقه من قاعدة العدالة، والتجاوب مع الحقوق الطبيعية والقانونية للأفراد والشعوب، فان ذلك يعني النجاح في التغلب على المشاكل التي عكرت السلام، وبالتالي الأمن والاستقرار، وهنا تتوافر حالة الأمان (Safeness) أي الأساس النفسي والفكري للسلام.

ومن هنا يمكننا القول: إن السلام يمثل وضعية مرتبطة بالفلسفة التي تحكم تفكير الدولة والشعب والمجتمع والأفراد، وتحدد قيم الحياة الذاتية وتشريعاتها والعلاقة مع الآخرين، على أساسّ ضمان الحقوق الطبيعية أولاً، ثم العدالة من خلال الحقوق القانونية ثانياً. وبدون هذا الضمان لا يتحقق السلام؛ فلا سلام بدون عدالة، ولا عدالة بدون ضمان الحقوق الطبيعية. إن السلام بهذا المفهوم، يعني زوال حالة الخضوع لحق القوة، وقيام حالة التجاوب الطوعي مع قوة الحق والعدالة.

اننا اذ نعتبر أن الصهيونية ــ ضمن هذا الفهم ــ تمثل أعلى درجات التناقض مع السلام، فلأنها تدعي حقاً مطلقاً في الأراضي الممتدة من النيل الى الفرات (فكرة اسرائيل الكبرى)؛

الكبرى)؛ وحقاً مطلقاً في اخراج شعب هذه الأراضي من وطنه، والاتيان بيهود العالم اليها، ولأنها، أيضاً، تؤمن بضرورة ضفاء المجتمع اليهودي، بخلوه من غير اليهود وبتفوق اليهودي على كل من هو غير يهودي، وبأن مقياس العدالة هو ما يتحقق لليهودي من عدالة.

هذه هي الفلسفة التي تمثل القاعدة الأساسية لقيام دولة اسرائيل الصهيونية، وتحكم قيم التجمع اليهودي القائم فلسطين، والمؤسسة العسكرية الصهيونية التي تقوده. وهذه الفلسفة تتناقض مع السلام، بل وتفرض حالة الرعب والقلق والحروب، لأنها، بأفكارها، لا يمكن الا أن تكون عدوانية توسعية وعنصرية، بما يتجاوز الأفكار المثيلة كالنازية والفاشية إلى الأسوأ بما لا يقاس. وبالتالي، فلا يمكن للسلام الفكري والعملي أن يتحققا مع الفلسفة الصهيونية وممارستها، كما لا يمكن لهذه الفلسفة أن تستمر الى الأبد في حكمها لليهود، لتناقضها مع الحقوق الطبيعية للبشر، ومنهم اليهود، أي أنها معادية للسلام على مستوى منطقة الشرق الأوسط، وعلى مستوى سلام اليهود الموجودين في فلسطين، لأن فكرها العنصري المعادي للسلام لا يشمل غير اليهود فقط، من خلال عنصريته وعدوانيته ضد كل من هو غير صهيوني، ولو كان يهودياً، بل يشمل أيضاً الشرقيين **الساميين**، حيث يمارس بحقهم التمييز العنصري من قبل الصهاينة **غير الساميين**.

السلام والتطور الى الأفضل

ان الفكر المنطلق من الايمان بالانسان، بضمان الحقوق الطبيعية للبشر والمجتمعات والدول، ومن العدالة، كمنطلق وهدف في تنظيم الحقوق المترتبة على التعامل، يمثل المنطلق الحقيقي والأساس للسلام.

ولكن هذا الفكر، بدون الانسان، بدون الايمان به وممارسته هذا الايمان، لا يتحول الى واقع حياتي. وبالتالي، لا يتحول السلام الى ممارسة واقعية الا بالانسان؛ ودور الانسان هنا هو: الفهم العميق لهذا الفكر والقناعة به، بشكل يصبح قوة مقياسية ومحركة لضمير الانسان والمجتمع والدولة، حتى تتم ممارسته في واقع الحياة، بشكل صحيح وبوفاء وباستمرارية.

عدم الاستقرار والعنف

ان الأنانية والجشع، والتسلط والخطأ، من الصفات التي يمكن أن تلحق بالبشر، ومنهم قيادات المجتمعات والدول، ولكن المجتمع، أو الدولة التي تقوم فلسفتها الأساسية في الحياة على فكر معاد للسلام، ويحمل جرثومة العنصرية، تصبح المنفعة الذاتية الأنانية والجشعة فيهما محور التفكير والسلوك لأفرادها ومجتمعها. وهذا يجعل من السلوك القائم على الجشع والتسلط أمراً مقبولاً ومطلوباً. ان مثل ذلك لا يمكن أن ينفصل عن تهديد السلام والأمن المجتمعي والدولي، وعن ممارسة القوة لفرض هذا السلوك على الآخرين؛ الأمر الذي ينتج، حتماً، ظهور القوة (العنف) المضادة له لمقاومته.

الكيان الصهيوني

ولسنا بحاجة لإعادة استعراض تاريخ نشوء الفكرة الصهيونية وتطورها، وكذلك نشوء الدولة الصهيونية ودورها وممارساتها. فهذه أمور معروفة، والفلسفة الصهيونية والممارسة الاسرائيلية المحكومتان بها تؤديان، من خلال طبيعتهما العنصرية العدوانية

التوسعية الاستيطانية، الى تهديد السلام المجتمعي لدول وشعوب الشرق الأوسط وتدميره، وتخلقان حالة مستمرة من العداء لهذا الكيان، من خلال اليقظة الحادة لغريزة الدفاع عن النفس في كل مايتصل بشؤون الحياة، السياسية والاقتصادية والتعليمية والصحية. واستمرار الصهيونية في فلسطين، بما ينطوي عليه من استمرار الانتماء الاسرائيلي الى أوروبا، حضارياً وثقافياً، يعني استمرار حالة الغربة الحضارية للكيان الصهيوني في محيط الحضارة العربية التي تستعيد حالياً ذاتها بعد تحررها من الاستعمار. وهذا يعني استمرار حالة التناقض الحضاري والثقافي بين هذا الكيان والمنطقة العربية، مما يحمل اسرائيل على الاستمرار في تنمية طابعها العسكري، وبالتالي العدواني وتقويته، بما يستتبعه ذلك، في ظل السياسة التوسعية والعدوانية، من تدمير مستمر لحالة السلام في المنطقة، وما ينتج عنه من استقطاب الدولتين العظميين لدول المنطقة وشعوبها.

يضاف الى هذا استمرار انغلاق المنطقة اقتصادياً أمام الكيان الصهيوني، وبالتالي، استمرار اعتماده على المساعدات الاقتصادية الخارجية، ليس لتأمين متطلبات التنمية وانما لتأمين استمرار البقاء المعاشي، بسبب الانخفاض الحاد عن الحد الأدنى المطلوب للثروات الطبيعية في فلسطين، لتحقيق الاكتفاء الذاتي الاقتصادي في المستوى الأدنى، الأمر الذي يجعل الوضع الاقتصادي للكيان الصهيوني في أزمة دائمة خانقة، لن تحل الا باستمرار المساعدات والهبات الخارجية، وهذا ما لا يمكن ضمانه الى الأبد، أو بانخفاض عدد اليهود، بما يتناسب مع القدرة الاقتصادية للثروات الطبيعية، وهذا بداية زوال الصهيونية من الواقع العملي، أو بانفتاح المنطقة العربية أمام الانتاج الاسرائيلي، وهذا مستحيل اذا استمرت الصهيونية. أما زوال الصهيونية فسيؤدي الى توحيد فلسطين في دولة واحدة أو متحدة، وعندها تعود فلسطين لتصبح جزءاً من المنطقة العربية، وتنطلق الحياة فيها بشكل مبدع من العدالة والرخاء والسلام.

حالة منطقة الشرق الأوسط

ان قيام دولة اسرائيل يمثل قمة العدوان وفق أي قانون، بما في ذلك ميثاق الأمم المتحدة، كما يمثل قمة الجريمة التي ارتكبها الاستعمار في هذا الموضوع، لأنه أقام دولة على أرض وطن لشعب قائم، بعد طرد هذا الشعب بالقوة من وطنه. لذلك كان من الطبيعي جداً، أن يرفض شعب فلسطين ذلك ويحاربه، كذلك كان من الطبيعي، أن ترفض المنطقة العربية ذلك وتواجهه لأن قيام اسرائيل الصهيونية يمثل قيام كيان غريب عن المنطقة، تاريخاً وحضارة وثقافة، فضلاً عن الطبيعة العدوانية العنصرية التوسعية لهذا الكيان الغريب عن المنطقة، التي تمثل خطراً مستقبلياً على وجود ومستقبل الشعب العربي، في الدول العربية المحيطة بالكيان الصهيوني، بالاضافة الى خطرها على شعب فلسطين.

لذلك، كان لابد للدول المحيطة من انشاء جيوش قادرة، على الأقل، على الدفاع عن دولها أمام العدوان التوسعي الصهيوني المستمر. ولكن الدعم اللامحدود الذي تقدمه «الولايات المتحدة الأميركية» للكيان الصهيوني يجعل التوازن الاستراتيجي العسكري في

صالح الآلة العسكرية الصهيونية، حتى في حالة الدفاع، كما حصل في حرب عام ٧٣ ـ ، حيث كانت سوريا ومصر قادرتين على استعادة ما احتل من أراضيهما في حرب عام ١٩٦٧، ولكن التدخل الأميركي الى جانب الجيش الصهيوني قلب المعادلة.

ان هذه الحالة تفرض: اما الاستسلام للمخطط الصهيوني الأميركي؛ وذلك نقيض لكل معاني الحق والعدالة والسلام، فضلاً عن المصالح للشعب أي شعب؛ واما أن تبذل الدول المحيطة بالكيان الصهيوني، كل ما تستطيع لبناء جيوشها الدفاعية، على الأقل، لتجعل من التوسع الاحتلالي للعدو الصهيوني أمراً صعباً، ان لم يكن متعذراً، وهذا هو الموقف الطبيعي، لأنه يتفق مع الحقوق الطبيعية للشعوب في الحرية والاستقلال الوطني والدفاع عن النفس.

مستلزمات هذا الموقف

ان بناء قوة عسكرية، من الدخل القومي لأي شعب، أمر مكلف جداً، فضلاً عن انعدام المردود الانتاجي له، وتجميد الطاقة الانتاجية للجندي في المجال الانتاجي المجتمعي.

أما اذا كان بناء هذه القوة، محكوم بسباق التسلح مع خصم لا يتوقف عن تطوير جيشه هجومياً، بتنسيق تخطيطي وواجباتي مع واشنطن، ولا يدفع تكاليف قوته العسكرية، فان تكلفة بناء القوات العربية الدفاعية، التي لا تحارب الا دفاعياً، تتحول الى نزيف اقتصادي لا محدود، يعطل كل متطلبات تحقيق النمو والتقدم المجتمعي السلمي في كل المجالات، من زراعة وصناعة وعلم وتعليم وخدمات اجتماعية. ومثل هذا يخلق حالة ارتباك وخلل مجتمعي لا نهاية لها، مما يؤثر بدوره على زعزعة الاستقرار والسلام المجتمعي والسياسي، ويدفع الى الديكتاتورية التي تزيد الاستنزاف حدة، وتتجاوزه الى الاستنزاف القيادي الذي يقع دائماً بقيام الديكتاتوريات في المجتمعات. وهذه الحالة هي القائمة في الشرق الأوسط، وبالتالي، فان السلام في هذه المنطقة لا يتحقق الا بتحقيق حل عادل لشعب فلسطين يمكنه من استعادة حقوقه الوطنية، كخطوة أولى باتجاه السلام الدائم، الذي لا يتحقق الا بزوال الصهيونية باعتبارها الفلسفة العنصرية التوسعية الاحتلالية العدوانية، التي خلقت وتخلق كل أسباب عدم الاستقرار في المنطقة، وتمنع قيام السلام فيها.

ان استمرار الوجود الصهيوني، كواقع عدواني، واستمرار فلسفته التوسعية الاحتلالية العنصرية العدوانية، كقاعدة فكرية لمنطلقات حركته، واستمرار اعتباره قاعدة عسكرية متقدمة لحلف الأطلسي وللولايات المتحدة الأميركية، والتغاضي المستمر من قبل واشنطن وعواصم دول السوق الأوروبية المشتركة عن التصرفات الصهيونية، ودفعها اليها أحياناً، كما حصل في العدو الثلاثي عام ١٩٥٦، وفي عدوان عام ١٩٦٧، وضرب المفاعل الذري العراقي عام ١٩٨٠... ومنع قيام المصادر الغربية للسلاح، ببيعه الى العرب الا في نطاق عدم الاخلال بالتفوق العسكري الاسرائيلي للدول العربية مجتمعة، ان ذلك كله دفع ويدفع بدول المنطقة الى التوجه نحو موسكو، طلباً للسلاح وللمساعدات الاقتصادية لتعويض الاستنزاف الاقتصادي الذي يحدثه التسلح. وهذا يعني.. فتح

أبواب الشرق الأوسط أمام الاتحاد السوفياتي، كصديق، من موقع التناقض بينه وبين واشنطن ومعسكرها، وقبوله بتقديم المساعدات الاقتصادية والتسلحية للعرب، حيث يبيع الاتحاد السوفياتي السلاح للعرب بـ $\frac{1}{8}$(ثمن) ثمنه في الغرب وبالتقسيط، وأحياناً بالمقايضة وبالتقسيط في آن واحد. وقد نتج عن هذا:

١ ــ تغلغل المدارس السياسية الماركسية في المنطقة، بما يخلق صراعاً ثقافياً حاداً في المجتمع العربي، بين الماركسية والرأسمالية من جهة، وبين كل منهما والثقافة العربية والتراثية من جهة أخرى، مما أدى الى ارتباك ثقافي وارتباك في مقاييس الحكم على الأفكار والممارسات، وبالتالي، تخلخل القيم المجتمعية، ووجود حكومات لا تعبر، بتفكيرها، عن الفكر العربي السائد لدى غالبية جماهيرها.

٢ ــ تحول منطقة الشرق الأوسط الى ساحة صراع بين معسكري الدولتين العظميين، قد تتحول، في وقت ما، الى مواجهة بعد أن اقتربت من حافة المواجهة في الأعوام: ١٩٥٦؛ ١٩٦٧ و١٩٧٣.

وهذا الوضع، في منطقة الشرق الأوسط، البالغة الحساسية في السياسة الدولية وفي استراتيجيات الدول الكبرى، في زمني اللاحرب والحرب، يهدد السلام في الشرق الأوسط، بل ويهدد السلام العالمي برمته، فضلاً عن الأمن الاقتصادي، وخاصة الأوروبي.

٣ ــ لذلك، وحتى تستمر حكومات المعسكر الرأسمالي والصناعي الغربي، بقيادة واشنطن، بتبرير استمرار دعمها للكيان الصهيوني العسكري، فقد جعلت من العون السوفياتي للدول العربية المعنية به، وحشاً يهدد سقوط المنطقة بيد السوفيات، واستيلاء السوفيات على هذا الموقع الاستراتيجي وما فيه من نفط، رافضة في الوقت ذاته التعامل الجدي مع متطلبات حل مشكلة شعب فلسطين حلاً عادلاً.

وهذا يعني تبرير زيادة الدعم، والسماح بمزيد من حرية الحركة للكيان الصهيوني العسكري، الأمر الذي يدفع بالدول العربية المعنية الى طلب المزيد من العون السوفياتي، وما يرتبه ذلك من زيادة حجم العلاقات الصديقة ونموها معه، والتي تستعمل، في الوقت ذاته، من قِبَل واشنطن وحلفائها تبريراً للمزيد من الدعم للكيان الصهيوني العسكري. وهكذا تستمر اللعبة الخطرة التي لا يمكن أن تكون طريقاً الى السلام.

ولا بد قبل الانتهاء من هذه المسألة، أن نقول: ان واشنطن وأعضاء معسكرها، قد فتحوا نافذة صغيرة، أوحوا من خلالها، بأن الدعم المطلق بدأ يتحول الى الدعم المعتدل، اذا ما توقف العرب عن الحديث بالعربية، سياسياً، وتبنوا اللغة السياسية الأميركية العبرية، كما فعل السادات. وهذا يعني الاستسلام الكامل لواشنطن وحلفائها في التفريط، ليس فقط بالاستقلال الوطني الكامل، بل حتى بالتفريط بالاستقلال الثقافي والاقتصادي، وهذا يعني، أيضاً، تدمير الشخصية الحضارية العربية، وهو ما لا يمكن لأي شعب أن يرضاه، لأن أحداً ما لا يقبل الانتحار الا إذا فقد ارادة التحدي، أي فقد الرغبة في الحياة، وهذا نقيض الطبيعة البشرية، على مستوى الفرد والمجتمع والشعب والأمة.

حقائق لا بد من معرفتها

حالة الشعب الفلسطيني:

يتميز تاريخ شعب فلسطين، بحالة فريدة، من حيث أنه لم يحارب قط خارج حدود وطنه. واذا كانت أحداث التاريخ قد فرضت عليه، منذ القدم، أن يكون دائماً في حالة الدفاع عن النفس أمام الغزاة الطامعين في أرضه، بسبب موقعها، فان ذلك تفاعل مع نفسية هذا الشعب فجعله يرفض العدوان، ويؤمن بالسلام النابع من ايمانه بالانسان وبالانسانية التي تمثل جوهر حضارته باعتباره مهد الأديان الثلاثة. واستعراض بسيط للتاريخ الوسيط والحديث للشعب الفلسطيني يكفي لكي تتأكد هذه الحقيقة.

فعندما وقع الشعب الفلسطيني ضحية العدوان الصهيوني، الذي أدى الى اقتلاع غالبية هذا الشعب من أرضه، وفقدانه لكيانه الوطني وحياته السلمية، لم يكُفّ هذا الشعب، لحظة واحدة، عن العمل من أجل العودة الى وطنه واستعادة حقوقه الثابتة فيه.

ان الشعب الفلسطيني ضحية عدوان متعدد الوجوه يحرمه من حق العيش بسلام في وطنه، بل ويحرمه من كافة الحقوق الأخرى، بما فيها تلك التي أقرتها وثائق وقرارات متعاقبة صدرت عن الأمم المتحدة.

ولا شك أن أشد حالات الظلم التي تقع على الفرد أو المجتمع أو الشعب، هي تلك الحالة التي تمتنع فيها على الشعب الممارسة العملية لانتمائه القومي والحضاري والمجتمعي، ويحال فيها بين الفرد وبين الممارسة العملية لحقوقه وواجباته، كمواطن، فضلاً عن المنع الذي يقع عليه في تعطيل انتمائه القومي والحضاري، كمواطن أيضاً. وتصل حالة الظلم الشديد هذه الى أقصى ما يمكن أن تصل اليه، عندما تبلغ ذروتها عند اقتلاع الشعب من وطنه، وطرده وتشريده خارج حدود هذا الوطن، والحيلولة، بالقوة، دون عودته اليه، أي منعه بالقوة من استعادة وضعه، كشعب ذي مجتمع وسلطة وقيم مجتمعية وثقافية يمارسها بحرية وسيادة في وطنه.

مثل هذه القسوة، وهذا الظلم الذي ينتهك الحق الطبيعي للفرد والشعب، يشعر بهما كل فرد من أفراد الشعب. ولكن كلما ارتفع مستوى الرقي الثقافي والعلمي للشعب والأفراد، كلما زادت حدة الشعور بالظلم لأنه، أيضاً، يجسد عجز الفرد والشعب على ممارسة حقوقه وواجباته كمواطن وكشعب ينتمي الى حضارة وثقافة تعبر عن هويته الحضارية ومساره المستقبلي الحضاري بشقيها، الثقافي والعلمي. ومن هنا يمكننا أن نتصور عمق الاحساس بالظلم الذي يعيشه شعب فلسطين، هذا الشعب الذي يبلغ عدد طلبته الجامعيين الدارسين والخريجين ٢ ٪ من عدد سكانه البالغ حوالى ٤ ملايين نسمة، متفوقاً بذلك على كل بلدان العالم الثالث، ومنافساً العديد من بلدان العالم الصناعي في مستواه العلمي الثقافي.

واذا كان الظلم يخلق مناخ الرفض والتمرد، فان الاحساس به يدفع الى مقاومته بالعنف المنظم الذي يصل الى مرحلة الثورة.

ومن هنا، يتبين، أن حالة الشعب الفلسطيني، بما وقع عليه منذ عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٤٧، ثم مأساته عام ١٩٤٧ ــ ١٩٤٨، التي تمثل أشد حالات الظلم حدة، بل ان

المأساة، بحكم طبيعتها، تفرض احساس الفلسطيني بهذا الظلم مع دوران الساعة، مما أدى ويؤدي الى أن يعيش الفلسطيني حالة توتر نفسي حاد لا يهدأ الا بعودته الى وطنه، واستعادة مواطنيته، في دولة ذات سيادة ليمارس انتماءه الوطني والحضاري، محققاً بذلك انسانيته، وممارساً حقوقه الطبيعية.

والحيلولة بالقوة بين الفلسطيني وبين استعادته لحقوقه الطبيعية، تفرض عليه، حتماً، العمل لاستعادة هذه الحقوق بالقوة، والا فَقَد أدنى درجات الاحساس الانساني بوجوده، وهذه من الحالات غير القابلة للوجود لدى الانسان أياً كان انتماؤه الوطني والحضاري، الأمر الذي جعل القانون الدولي يبيح مقاومة الاحتلال بكل الوسائل المتاحة، باعتبارها حقاً من الحقوق الطبيعية للشعوب.

ومن هنا، كانت قرارات الجمعية العمومية المتخذة، منذ العام ١٩٧٧ وما بعده، تؤكّد حق شعب فلسطين بالنضال، بكل الوسائل، لاستعادة حقوقه الوطنية، وفق أحكام ميثاق الأمم المتحدة.

وبذلك، وكنتائج حتمية لقيام الكيان الصهيوني العنصري التوسعي الاستيطاني العدواني في فلسطين، تكون قد اتضحت أمامنا الحقائق التالية:

١ ــ حتمية قيام الدول العربية بالدفاع عن نفسها أمام التوسع الصهيوني، سواء كان دفاعاً أمام هجوم عسكري قائم، أم دفاعاً بأسلوب الهجوم الوقائي.

٢ ــ حتمية قيام شعب فلسطين بتنظيم نفسه، في حركة نضالية ثورية، للتغلب على القوة التي تمنعه من العودة الى وطنه، واستعادة حقوقه الوطنية والطبيعية، ومنها حقه في تقرير مصيره وفي استقلاله الوطني.

٣ ــ ان أي كيان يقوم على الفكر الصهيوني يمثل حالة متناقضة مع السلام، فكراً وممارسة، وخالقة للتوتر والارتباك، بكل أنواعها، في منطقة الشرق الأوسط:

ذلك أن الفكر الصهيوني يقوم على التمييز، العنصري والديني والثقافي والحضاري، فضلاً عن العدوان التوسعي الاحتلالي، وما ترتب على ذلك كله من أن الكيان الصهيوني يمثل قاعدة عسكرية متقدمة لحلف الأطلسي وواشنطن، وأن وجوده واستمراره محكومان باستمرار دعم واشنطن والعالم الغربي له، ليقوم بدوره في خدمة مصالح الاستعمار، وتنمية مناخ الصراع بين الدولتين العظميين في هذه المنطقة البالغة الحيوية للسلام العالمي.

٤ ــ إن توقف العون العسكري للكيان الصهيوني، فضلاً عن العون الاقتصادي من واشنطن وحلفائها، سيحوّل اليهود في فلسطين المحتلة عن الصهيونية لتتحول أهدافهم الأساسية من فكرة اسرائيل الكبرى القرينة للحروب، الى فكرة الحياة الانسانية المسالمة والاقتصاد السلمي الذاتي اللذين لا يتحققان الا بالوصول الى حل عادل، لمشكلة شعب فلسطين، ينطلق من استعادة هذا الشعب لحقوقه الوطنية.

٥ ــ هي أنه: اذا كان الظرف التاريخي والفكر الأوروبي العنصري قد أوقعا اضطهاداً شرساً على اليهود غير الساميين المقيمين في روسيا والعالم الأوروبي والأميركي، فهو اضطهاد لم يعرفه اطلاقاً اليهود الساميون (العرب) في العالم العربي عبر التاريخ، واذا كانت محصلة الصراع بين الدول الاستعمارية في أوروبا وأميركا قد اتجهت،

لأسباب استعمارية، لأن يدفع شعب فلسطين ثمن الاضطهاد الغربي لليهود غير الساميين، فان ذلك كله لا يبرر أن يكون هذا الثمن طرد شعب فلسطين من وطنه ورميه في الصحراء. كما أن موقف شعب فلسطين يمثل نموذجاً انسانياً لم يقدّمه أي شعب عبر التاريخ، عندما وافق على عودة الفلسطينيين الى بيوتهم وممتلكاتهم وبقاء اليهود بدون صهيونية في فلسطين، واقامة دولة ديمقراطية علمانية فيها. يتساوى فيها الجميع أمام القانون، دون أي تمييز، بسبب الجنس أو الدين أو اللون.

المأزق الاسرائيلي الصهيوني:

ان الذي لديه اطلاع كاف على مسار التاريخ، وتطور حركة التقدم البشرية باتجاه الحرية والاستقلال الوطني للشعوب، والتراجع المتوالي لفكرة الاستعمار ووجوده النوعي، يستطيع أن يرى، بوضوح، المأزق المستقبلي الذي ينتظر الكيان الصهيوني. ولعل في النقاط التالية ما يوضح مسار هذا المأزق ونهاياته الدرامية، اذا استمرت الصهيونية أساساً للفكر والممارسة للكيان العسكري الاستعماري الصهيوني:

(أ) المسار التاريخي: وجدت اسرائيل في مرحلة نهاية الاستعمار القديم، ومنذ وجودها عام ١٩٤٨، بدأ انحسار الاستعمار الجديد، وهذا يعني مأزقاً تاريخياً، بمعنى أن الوجود الصهيوني أصبح يمثل مرحلة متخلفة على الحالة المتنامية لسيادة فكرة العالم المتحرر من الاستعمار، أي الاستحالة المنطقية لبقاء اسرائيل، كحالة استعمارية شاذة، فضلاً عن عدم امتلاكها المقدرة الذاتية للمحافظة على وجودها الاستعماري هذا، خاصة، وأنها موجودة في قلب العالم العربي وفي مركز مقدسات العالمين الإسلامي والمسيحي، ولأنها تمثل، باستمرار، عملية استنزاف وتدمير للسلام المجتمعي في المنطقة، أي أنها عنصر استقطاب حاد وجماعي للموقف المضاد للصهيونية كفكرة ودولة.

(ب) المجال الاقتصادي العالمي والذاتي: ان المرحلة الجديدة للاستعمار هي الاستعمار التكنولوجي، ومثل هذا النوع لا يمكن للصهيونية أن تواكبه بسبب تعدد الخيارات التكنولوجية في العالم؛ وعدم قدرة التكنولوجيا في الكيان الصهيوني على منافسة غيرها في العالم المتقدم، من حيث الجدوى الاقتصادية؛ والوضع الاقتصادي العالمي؛ وتكاليف الانتاج والنقل؛ ثم عدم ضمان استمرار الغرب في رعايته المكلفة للاقتصاد الصهيوني؛ وكذلك القدرة المتطورة للمنطقة العربية في مجال التكنولوجيا، ضمن حدود الدول الصغرى، بما يغنيها ببساطة عن أن تقع تحت رحمة الاقتصاد الصهيوني.

ثم إن تطور العلاقات الاقتصادية العالمية الدولية، سيفرض على الكيان الصهيوني التراجع المستمر، في علاقاته الاقتصادية مع العالم الصناعي الرأسمالي، التي تمثل عبئاً اقتصادياً عليه. يضاف الى هذا أن نمو الوضع الاقتصادي في العالم العربي، بما في ذلك عملية التصنيع الاستهلاكي الصغير والمتوسط، وصناعة البتروكيماويات والتصنيع الزراعي، وعلاقة ذلك، اقتصادياً وسياسياً، مع الرأسمالية الصناعية في العالم، بما يزيد من أهمية العالم العربي في عملية الأمن الاقتصادي العالمي، وفي العالم الثالث.

وهناك سبب آخر يتصل بالهجرة اليهودية؛ اذ المعروف أن الهجرة اليهودية الى الكيان الصهيوني تمثل أحد أهم أعمدة الاقتصاد الذاتي لهذا الكيان، من حيث أنها

تمثل سبباً رئيسياً لتبرعات الصهيونية العالمية وأصدقائها، ولأن عملية اسكان المهاجرين، تنشط حركة البناء، وهذه بدورها تنشط حركة الانتاج الصناعي للسلع بمشاريع الاسكان. ويمكن تصور الانعكاسات الاقتصادية السلبية جداً على اقتصاد الكيان الصهيوني بسبب ما يمكن وصفه بتوقف الهجرة اليهودية الى الكيان الصهيوني، والارتفاع المستمر للتضخم في اقتصاد الكيان الصهيوني بسبب الأوضاع العالمية الاقتصادية من ناحية، وبسبب الطبيعة المصطنعة للصناعة الصهيونية. وقد وصل هذا التضخم حسب البيانات الاسرائيلية الرسمية الى ١٥٠٪، ويمكن لأي اقتصادي أن يتصور سوء الوضع الاقتصادي لبلد يبلغ فيه التضخم هذه النسبة المستمرة في الارتفاع الذي يقابله انخفاض مستمر في قيمة وحدة العملة الاسرائيلية، التي كانت في عام ١٩٤٨ تساوي ديناراً أردنياً، أو جنيهاً استرلينياً، وأصبحت الآن تساوي ١/١٠٠ من الدينار الأردني، أما قوتها الشرائية، فانها تخسر سنوياً ما يعادل ٩٤٪ بالنسبة للدولار، و١٠٤٪ بالنسبة للاسترليني، هذا فضلاً عن الديون الرسمية التي زادت عن ١٨ دولار. ولهذا كله علاقة بارتفاع حجم الضرائب على الفرد العادي، والتي تبلغ أقل نسبة منها ٤٥٪ من الدخل، وعلاقة ذلك بالعلاقات الاجتماعية الاقتصادية، مثل انتشار المافيا المنظمة، وسرقة الأموال العامة، والرشوة التي أصبحت الآن ظاهرة في مؤسسات الدولة، كما أوضح ذلك ناحوم غولدمان في أكثر من مناسبة. وهناك، الى هذا وذاك، الاعتماد الكلي في ميزانية الدولة، وعدم افلاس الخزينة، وبناء القوات المسلحة على المساعدات الخارجية، وخاصة مساعدات الحكومة الأميركية الرسمية وشبه الرسمية (الأموال المقتطعة من الضرائب).

ان التاريخ لم يقدم مثلاً واحداً، استمر فيه وجود دولة، يعتمد اقتصادها، بشكل أساسي، على المساعدات الخارجية، من حيث حجم المساعدات أولاً، ومن حيث استمرارها الى الأبد ثانياً.

لقد انخدعت الاشتراكية الدولية، منذ الأربعينات، بفكرة المستعمرات الجماعية الصهيونية (الكيبوتس)، الا أن النتائج التي ترتبت على عدوان عام ١٩٦٧، ثم التحول المفاجيء لصالح الفكر الاقتصادي الرأسمالي القديم الذي يمثله انتصار بيغن في الانتخابات، ثم الدراسات الحقيقية التي تمت للطبيعة الاقتصادية الاجتماعية لنظرية الكيبوتس قد غيرت في نظرة الاشتراكية الدولية، لأنها أدركت أن الكيان الاقتصادي الصهيوني لم يمثل الحل الاقتصادي الذي كانت ترجوه الاشتراكية الدولية، بل رأت أنه تابع مطلق للرأسمالية الأميركية. كما أن نظرية العمل في الكيبوتس تقوم على نظرية السخرة (العمل بلا أجر لصالح السيد) والسيد هنا هو اتحاد نقابات الهستدروت، التي تمثل كياناً اقتصادياً من ضمن الكيان الرأسمالي القديم، والتابع في آن واحد لواشنطن. ومثل هذا الاقتصاد لا يملك قدرته الذاتية على الاستمرار.

(ج) **العنصر السكاني (العدد والجنس)**: عند تفحص هذا العامل يبرز في المقدمة انخفاض مستوى التوالد الطبيعي لدى اليهود في الكيان الصهيوني (١,٣٪)، مقابل نسبة التوالد الطبيعي لدى غير اليهود من الفلسطينيين داخل الكيان الصهيوني وخارجه (٤,٨٪). ان عدد الفلسطينيين المسلمين والمسيحيين داخل الكيان الصهيوني، ضمن خط الهدنة الذي كان قائماً قبل عدوان عام ١٩٦٧، قد تضاعف خمس مرات في ثلاثين سنة؛

فارتفع عددهم من ١١٢ ألف نسمة عام ١٩٤٨ الى ٦٠٠ ألف نسمة عام ١٩٧٨، وأصبح العرب في الجليل الأوسط يمثلون ٥٢٪ من مجموع سكانه.

كما يبرز، أيضاً، توقف الهجرة اليهودية من العالم الغربي الى الكيان الصهيوني، باستثناء ما يأتي من الاتحاد السوفياتي، لعوامل لا علاقة لها بالرغبة في الذهاب الى الكيان الصهيوني (حوالى ٤٠٪ فقط من المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفياتي، يذهبون الى الكيان الصهيوني، وأكثر من ٥٠٪ من هؤلاء يعودون فيغادرون الكيان الصهيوني الى أوروبا وأميركا).

وهناك أيضاً حقيقة ازدياد الهجرة اليهودية الى خارج الكيان الصهيوني، الى درجة أدت الى بدء الانخفاض في عدد السكان اليهود في الكيان الصهيوني، بواقع ٢ ــ ٣٪ سنوياً، وفق الاعلانات الرسمية الصهيونية منذ عام ١٩٧٩.

وفي عام ١٩٤٨، تمكنت القيادة السياسية العسكرية الصهيونية من احتلال ٨٤٪ من مساحة فلسطين بالقوة، واستعملت الارهاب الجماعي (كما سبق أن أوضحناه)، لدفع السكان الى الهروب الى خارج خطوط الهدنة التي قام ضمنها الكيان الصهيوني. وفي عام ١٩٦٧، احتل الجيش الصهيوني بقية فلسطين، وأعلن باستمرار عن اعتبار الضفة الغربية وغزة جزءاً من اسرائيل، كما أعلن ولا يزال عن:

(أ) رفضه الاعتراف بالفلسطينيين كشعب.

(ب) رفضه الاعتراف بمنظمة التحرير، كقيادة لهذا الشعب، ورفض التفاوض معها.

(ج) رفضه قيام الدولة الفلسطينية المستقلة على أي جزء من فلسطين، داخل حدود الانتداب البريطاني.

(د) اعلان فكرة غريبة، هي فكرة الوطن البديل، التي تعتبر شرق الأردن هي الدولة الفلسطينية.

(هـ) ثم أعلن مفهومه الغريب عن الحكم الذاتي واعتباره نوعاً من أنواع المجالس الادارية، وذلك كتفسير لتطبيق اتفاقيات كامب ديفيد.

(و) ثم أعلن حزب العمل، عن فكرة الخيار الأردني، وهي اعادة المدن المكتظة بالسكان الى الأردن وربطها بممرات جغرافية، باستثناء القدس الموسعة، والاحتفاظ بالباقي كجزء من اسرائيل (أكثر من ٥٠٪ من مساحة الضفة الغربية).

(ز) أما ائتلاف الليكود، فانه يرفض حتى ذلك، ويريد ضم الضفة وغزة، بعد تهجير الفلسطينيين المقيمين فيهما الى الخارج، بأعمال الارهاب والخنق الاقتصادي والتعليمي والصحي.

ان السبب في هذه المواقف والأفكار التي تؤجل اعلان ضم الضفة الغربية وقطاع غزة الى اسرائيل، هو الـ ١,٣ مليون من الفلسطينيين الموجودين فيهما. ان هذا العدد مع الـ ٦٠٠ ألف الموجودين داخل حدود هدنة عام ١٩٤٨، والذي يبلغ حوالى مليون و ٩٠٠ ألف فلسطيني مقابل مليونين ونصف مليون يهودي، سيؤدي حسب الاحصاءات التحليلية الاسرائيلية الى أن تصبح أغلبية السكان عام ١٩٩٧ من الفلسطينيين العرب المسلمين والمسيحيين. وبذلك سيواجه الكيان الصهيوني، عالمياً، أزمة الحقوق المدنية للسكان

العرب. وستفتضح أكذوبة الديمقراطية التي يدعيها، لتظهر أزمة الحقوق الاقتصادية والسياسية لليهود العرب. كما سيواجه، داخلياً، عملية الانفجارات المجتمعية المتوالية.

(د) **التوسع الجغرافي**: ان الفكرة القضية في الكيان الصهيوني هي: «اسرائيل الكبرى» وهذا يعني التوسع الجغرافي والحاجة الى العنصر البشري اليهودي لاستثمار هذا التوسع. وهي أيضاً الحاجة لاستمرار الهجرة اليهودية ليصل عدد اليهود كحد أدنى الى ستة ملايين نسمة. وتحقيق هذا يتطلب التوسع الجغرافي بالحروب، وتوفير الأمن الاقتصادي والأمن الحياتي المشجعين على الهجرة. كما يتطلب سرعة التفاعل المجتمعي بين التجمعات البشرية المهاجرة لتصل الى مرحلة المجتمع الواحد أو الموحد. وكذلك استمرار الانتصارات العسكرية، وارتفاع نمو نطاق الأمن الاقتصادي والسياسي والمجتمعي، لتبقى اسرائيل مركز جذب للهجرة، وبالتالي، استمرار التوسع الجغرافي أيضاً.

ان هذه الفكرة القضية، بالرغم من نجاحها المؤقت في المراحل الأولى، الا أنها وصلت الى مرحلة التوقف عن النجاح، ليس لانخفاض مستوى التفوق العسكري فقط، وانما لأنه لم يعد بالامكان التوسع السريع المقترن بتهجير المواطنين العرب الى خارج ما يتم احتلاله من أراض، وهذا يعقد الموقف السياسي، ويزيد من ضراوة الحروب وحدّة ارتباك الأمن، الاقتصادي والمجتمعي والحياتي، بما يؤدي الى انخفاض الهجرة اليهودية الى الكيان الصهيوني، كما حصل منذ عام ١٩٦٨ حتى الآن، ويؤدي أيضاً الى ازدياد الهجرة اليهودية من الكيان الصهيوني، خصوصاً بعد أن ضُرِبَت فكرة «التفوق المطلق» للكيان الصهيوني على العرب، في حرب عام ١٩٧٣.

والدلالة المستقبلية لهذا التطور الحتمي، في الفكرة القضية للكيان الصهيوني أنه سيأخذ أحد منحيين؛ إما منهج العناد الانتحاري، وهذا يعني استمرار الصهيونية واستمرار الحروب الى أن يقع الانتصار العربي العسكري، وما سيواكب ذلك من نمو صراع الدول الكبرى في المنطقة بما يهدد السلام العالمي؛ أو تراجع الصهيونية وقيام الدولة الفلسطينية، باتجاه فلسطين في دولة فلسطينية، وعودة السلام الى أرض السلام والى منطقة الشرق الأوسط بكاملها.

(هـ) **العامل الثقافي ووحدة المجتمع**: وينسحب على العامل الثقافي، وعلى وحدة المجتمعين في الكيان الصهيوني ما أشرنا اليه تحت عنوان التوسع الجغرافي: فالفكرة القضية للصهيونية التي أشرنا اليها، ترتبط حتماً باستمرار الصراع العسكري الصهيوني ــ الفلسطيني العربي. والتناقضات القائمة في الكيان الصهيوني، من حيث تعدد الانتماءات العرقية والثقافية واللغوية والمذهبية، وما يصاحب ذلك من التمييز العنصري القائم بين اليهود أنفسهم، وخاصة (الاشكناز والسفاراديم)، هذه التناقضات، تحتاج الى فترة طويلة جداً حتى تتلاشى ظهور المجتمع الموحد، فضلاً عن الواحد.

ان الحروب والتناقضات، فرضت برنامجاً ثقافياً معيناً لتجسيد التناقضات، لتعذر ازالتها الفورية، ولتحقيق وحدة الحركة المجتمعية باتجاه الخارج، لتعذر قيامها باتجاه الداخل. والبرنامج الثقافي يبدأ من سن المرحلة الدراسية الابتدائية، كما يشمل برامج التثقيف داخل الجيش ويقوم على الأسس التالية:

١ ــ استثمار الأعمال النازية المطاردة لليهود لخلق حالة الرعب المتنامية ممن هو غير صهيوني في العالم، ومن شبح تكرر أعمال الابادة المجتمعية.

٢ ــ تعميق الاحساس بالخطر العسكري العربي المباشر، تحت شعار: إما أن نواجه العرب ونقاتلهم ونقتلهم موحدين، والا فسيقتلوننا متفرقين!

٣ ــ تحويل التجمع البشري في الكيان الصهيوني الى مؤسسة عسكرية، وفق تنظيم عسكري يبقي الفرد مرتبطاً بالنفسية العسكرية الخائفة والعدوانية، بصفة مستمرة. وهذا يعني:

(أ) رفض فكرة السلام.

(ب) تفضيل فكرة التوتر الدائم، من خلال حالة اللاحرب واللاسلم، المقترنة باعتداءات مستمرة تبقي مناخ الانتصار والتفوق العسكري في الذهن المجتمعي.

(ج) الاعداد المستمر للحرب، والقيام بالعدوان لتحقيق انتصار بمدة قصيرة

(و) ارادة التحدي الفلسطينية وديناميكيتها: أوضحنا أن الحدة الكمية والنوعية للمأساة الفلسطينية، لايمكن الا أن تدفع الى ممارسة النضال من أجل العودة الى الأرض والاستقلال الوطني، كتعبير عملي نضالي عن الوجود والانتماء للوطن والتراث الحضاري. وبالتالي، فان النضال الفلسطيني هو موقف حتمي مرتبط باستمرار ارادة الحياة لهذا الشعب. كذلك نلاحظ، في أكثر من موقف أشرنا اليه، القدرة التي تميز بها هذا الشعب، الذي تحول، بشكل مفاجيء جداً، الى شعب مشرد لاجيء بدون مال أو مؤسسات، عندما تخطى هذا الواقع بتحقيق لافت للانتباه لكي لا يموت، وذلك من خلال اصراره على رفض التوطن خارج فلسطين؛ واصراره على رفض فكرة الوطن البديل؛ وكذلك من خلال النمو المستمر لروحية النضال لديه، بالرغم من الهزائم العسكرية الناتجة عن الفارق الكبير جداً في ميزان القوى العسكري؛ وكذلك، أيضاً، المستوى العلمي العالمي الذي حققه، والنجاح الاقتصادي العالمي، واعتبار ذلك عوامل تصقل ارادته وقدرته على استمرار النضال من أجل العودة والاستقلال الوطني؛ ثم العمق الانساني لافت للانتباه، في نضالية هذا الشعب، وطريقة تحقيق أهدافه النهائية، وتحول تشتته في العالم العربي من عامل ضعف الى عامل قوة، عندما تحول التشتت الجغرافي الى وحدة نضالية، تُحدِث نمواً نحو الأفضل في النفسية النضالية العربية، في اطار القضية الفلسطينية التي لها طابع عربي بالغ العمق والحيوية في الانسان العربي، بالاضافة الى طابعها الفلسطيني والانساني والدولي.

ان شعباً كهذا، بقضية كهذه، في مواجهة الفكر الصهيوني وممارساته الاستعمارية العنصرية العدوانية، يمثل مركز تفاعل حيوي، في زيادة حدة المأزق الاسرائيلي الصهيوني، اذ لا علاج له الا بتراجع الصهيونية، كفكر وممارسة، واستعادة شعب فلسطين لحقوقه الوطنية، وتحقيق التعايش الإسلامي المسيحي اليهودي في أرض فلسطين.

مأزق واشنطن وحلفائها:

ان الطبيعة الاستعمارية التي شرحناها للكيان الصهيوني، وما يترتب عليها من علاقة مع واشنطن والعالم الرأسمالي الصناعي الغربي، لم تنحصر في حماية أمن الكيان

الصهيوني ووجوده بل شملت الصمت عن عدوانيته وممارساته، وتحوير معاني نصوص القرار الدولي لتتفق مع تفسيراته المتصلة بأهدافه، فضلاً عن التخلي المتوالي عن القرارات الدولية، مع أنها اتُّخذت من خلال نفوذ واشنطن وحلفائها، كقرار التقسيم والقرار رقم ٢٤٢، فمثلاً:

١ ــ تخلت واشنطن وأوروبا عن فكرة الدولة الفلسطينية، مع أنهم هم الذين صنعوا قرار التقسيم، الذي ينص على قيام دولة فلسطينية مستقلة.

٢ ــ تضمن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ حق دول المنطقة أن تعيش في سلام، ضمن حدود آمنة ومعترف بها.

ولكن لفظ حدود آمنة تحول ليصبح:

(أ) حدود جغرافية تمكّن من تحقيق الأمن.

(ب) خطوط هدنة عام ١٩٤٨ أصبحت تسمى حدود عام ١٩٦٧، واعتبرت هي الأساس في حدود الكيان الصهيوني مع تعديلات طفيفة.

٣ ــ لم ينص القرار رقم ٢٤٢ على التطبيع في العلاقات، وتصر واشنطن على علاقات سليمة تعاقدية وعلاقات سلام طبيعية، كتفسير لنص غير موجود في القرار رقم ٢٤٢.

٤ ــ نص القرار رقم ٢٤٢ على عدم جواز الاستيلاء على أراضي الغير بالقوة، وهذا يعني أن حدود الكيان الصهيوني، بالمفهوم الدولي المعاصر للشرعية الدولية، هي حدود قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة، وليس حدود عام ١٩٦٧.

٥ ــ رفضوا ادانة الكيان الصهيوني على انتهاكاته للمواثيق والمعاهدات والاتفاقيات الدولية، ومخالفاته وعدم التزامه بقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن.

٦ ــ أصرت واشنطن وحلفاؤها على نسيان:

(أ) مضمون بروتوكول لوزان الذي يجعل من تنفيذ الكيان الصهيوني لقرارات الأمم المتحدة شرطاً لعوضيته في الأمم المتحدة.

(ب) قرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤ الخاص بحق الفلسطينيين في العودة الى ديارهم وممتلكاتهم، وتعويض من لا يرغب بالعودة منهم.

٧ ــ أصرت واشنطن وحلفاؤها على عدم الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية، كممثل شرعي للشعب الفلسطيني، ورفضوا التفاوض معها، ووصفوا نضال شعب فلسطين بالارهاب.

٨ ــ استعملت واشنطن الورقة السوفياتية، كمبرر لتأييد الكيان الصهيوني ومعاداة المواقف العربية في الصراع العربي ــ الاسرائيلي، ورفض نمو علاقة التعاون العربي ــ السوفياتي، في الوقت ذاته التي ترفض فيه التجاوب مع علاقات تعاونية صديقة حقيقية مع العالم العربي. وهذا يؤدي الى:

(أ) زيادة حدة الصراع العربي ــ الاسرائيلي في الشرق الأوسط.

(ب) زيادة حدة الاستقطاب الدولي في الشرق الأوسط للدولتين العظميين، وبالتالي زيادة خطر الحروب في هذه المنطقة من العالم.

قيام الدولة الفلسطينية

أن عدم قيام الدولة الفلسطينية المستقلة على جزء من فلسطين، كهدف مرحلي باتجاه تحقيق الدولة الفلسطينية الديمقراطية الواحدة على أرض فلسطين، وعودة من يرغب من الفلسطينيين الى بيوتهم وممتلكاتهم، يعني: استمرار الصراع: الفلسطيني ــ الصهيوني، والصراع: العربي ــ الصهيوني. كما يعني: استمرار حالة الاستقطاب الدولي في المنطقة للدولتين العظميين؛ وبقاء منطقة الشرق الأوسط مسرحاً للصراع الدولي، واستمرار تدمير السلام والأمن المجتمعي لدول وشعوب المنطقة. وهذا ينتج حتماً: استمرار حالة الاستعداد المتوالي للحرب، وذلك لتأمين القدرة الدفاعية العربية الذاتية، والسعي لتأمين التفوق العسكري. كما أن هذا كله يعني وقوع حرب حاسمة يتم فيها الانتصار على الكيان الصهيوني.

لقد أوضحنا، قدر الامكان، في الصفحات السابقة، الأسباب الذاتية والموضوعية والتاريخية القائمة في الفكر والممارسة الصهيونيين واللذين يدفعان حتماً إلى هذا الاتجاه، ما لم يتراجع الكيان الصهيوني عن مخططاته وأهدافه، ويوافق على قيام دولة فلسطينية على جزء من فلسطين، من خلال الأمم المتحدة، باعتبارها المسؤولة دولياً، من الناحية الرسمية، عن مأساة شعب فلسطين والشرق الأوسط.

ونحن ندرك أن عامل الزمن سيحقق تفاعلاً حتمياً باتجاه السلام، من خلال فترة الهدوء التي تلي قيام الدولة الفلسطينية، لانشغال الفلسطينيين في بناء دولتهم العصرية، ومواجهة التجمع البشري اليهودي في الكيان الصهيوني للتغييرات الفلسفية والفكرية الجديدة، البديلة للصهيونية العدوانية العنصرية، ويشجع على التفاؤل بسرعة هذا التغيير، ما نلاحظه من حركات داخل الكيان الصهيوني، مثل تجمع شلي وحركة السلام الآن. كما سيترتب على هذا، زوال عاملي الخوف والحقد، اللذين صنعتهما واستغلتهما المؤسسة العسكرية الصهيونية، في اقناع الفرد اليهودي: الطفل والشاب والشيخ، بأن عليه أن يقاتل العرب قبل أن يقتلوه ويرموا به الى البحر. وكذلك، أيضاً، تراجع حمى الدعم اليهودي الخارجي المنطلق من فكرة حماية اليهود من أن يرمي بهم العرب في البحر، وتحوّل العلاقة اليهودية العالمية الى علاقة دينية عادية.

واذا اقترن ذلك كله، بصدق مواقف الدولتين العظميين، وصانعي السياسة الدولية وبفكرة السلام العالمي، وفكرة توافر المصلحة الدولية في تحقيق السلام في الشرق الأوسط، كأحد الشروط الأساسية للسلام العالمي، فان ذلك سيؤدي الى توقف حمى بناء القوة العسكرية الصهيونية المتفوقة. وبذلك تبدأ الخطوط الأساسية الأولى والوحيدة على طريق السلام، للأسباب التالية:

١ ــ ان قيام الدولة الفلسطينية، يؤدي بالانسان الفلسطيني الى استعادة هويته الحضارية، وانتمائه القومي ومواطنيته وممارسة حياته وفق قيمه الحضارية، كبقية شعوب العالم بشكل عملي، وهذا يخفف كثيراً من حدة التوتر النفسي الناتج عن المأساة التي فُرضت على هذا الشعب بقوة السلاح والارهاب.

٢ ــ توجه الجهد الفلسطيني الى بناء الدولة الفلسطينية العصرية، وتنظيم أفراد

الشعب الفلسطيني المقيمين خارج حدود الدولة، التي لن تتسع لكل الشعب الفلسطيني.

٣ ــ زوال فكرة اسرائيل الكبرى، كهدف قابل للتحقيق، ومن ثم التراجع المستمر لفكرة التوسع حتى تصل الى الزوال.

٤ ــ ويترتب على ذلك فوراً، تراجع حاسم في نفوذ المؤسسة العسكرية الصهيونية ومتطلبات التسليح المجنونة القائمة حالياً.

٥ ــ وبذلك ينشأ عامل جديد أساسي، يمثل «الفكرة القضية» الجديدة، البديلة للفلسفة الصهيونية التي يقوم عليها الكيان الصهيوني. فيصبح مركز التنبه المجتمعي الجديد هو تحقيق الحاجات المجتمعية الطبيعية، أي زوال الطابع اللاإنساني الذي يسم الدولة الاسرائيلية، مجسداً في الصهيونية ومؤسساتها العسكرية، مما يعيد للأذهان ما آل اليه الفكر والمؤسسات النازيين بعد الحرب العالمية الثانية. ويخفف الى الحد الأدنى من عملية التسليح القائمة في منطقة الشرق الأوسط ويساعد على ذلك، عدم قدرة الحكومات الغربية، وخاصة حكومة واشنطن، على تبرير استمرارها في الدعم العسكري والاقتصادي اللامحدودين للكيان الصهيوني، الأمر الذي سيعيد الجزء الأكبر من الأموال العربية الى استثمارها في التنمية لمصلحة شعوبها وشعوب العالم أجمع وسيجعل من هذا الموضوع فكرة أساسية، في الحركة المجتمعية داخل دولة اسرائيل.

ويمكن أن نضع في الاعتبار، أن مصادر الثروة الطبيعية في فلسطين، لا تحقق اكتفاءً ذاتياً اقتصادياً لمن يسكنها، اذا لم تفتح له منطقة الشرق الأوسط أبوابها؛ وأن المساعدة الخارجية، بالحجم القائم، لا يمكن أن تستمر، ولا يمكن أن تكون عاملاً في البقاء الأبدي لأية دولة؛ ثم ان التناقض والتصادم الثقافيين في قلب محيط ينتمي الى ثقافة مناقضة، لا يمكن أن يمثل عامل استقرار واستمرار. كما أن ألف باء الاقتصاد الذاتي، لفلسطين، كما هي حال لبنان والأردن، تقتضي أن تكون منطقة الشرق الأوسط مفتوحة أمام هذه الكيانات الصغيرة، وأن ذلك لا يمكن أن يتحقق لليهود اذا استمروا في اعتناق الصهيونية وممارستها، لأن أحداً لا يتعامل مع من يؤمن بحقه في الاستيلاء على أرض الغير.

اذا أخذنا هذه النقاط بعين الاعتبار، بعد انهيار فكرة التوسع الصهيونية، بقيام الدولة الفلسطينية المستقلة، فان ذلك سيؤدي الى سرعة تراجع الفكر الصهيوني حتى يتلاشى، واذا أضفنا الى ذلك أن ٦٥٪ من يهود اسرائيل، هم من اليهود العرب الذين ينتمون الى الثقافة والحضارة والتاريخ العربي، وان تمسكهم بالصهيونية كان نتيجة لنجاح القيادة الصهيونية في اقناعهم بأن العرب المسلمين والمسيحيين سيقتلون اليهود، بما فيهم اليهود العرب ويرمون بهم في البحر، فان امكانية سيطرة ثقافة الأغلبية (اليهود العرب) على مجتمع الأقلية الحاكمة (اليهود الاشكناز) أمر يمكن وقوعه بوضوح، وبالتالي، تكون العودة التدريجية الى الانتماء الحضاري العربي.

ان مثل هذا التطور المنتظر، المبني على الحقائق التي أشرنا اليها، سيضع القيادة الصهيونية والحركة المجتمعية في اسرائيل أمام خيارين:

(أ) رفض التخلي عن الصهيونية، وهذا يعني التمسك بالتوسع الاستيطاني العدواني، أي التمسك بفلسفة المجتمع القائم على فكرة الحرب، وهذا يعني أن لا سلام،

كما يعني، على المدى البعيد، السقوط العسكري الصهيوني من خلال حرب مأساوية جداً.

(ب) أو زوال الفكر الصهيوني، بفعل التطورات التي أشرنا اليها، وهذا سيجعل وحدة فلسطين في دولة واحدة، أو متحدة، تقوم على أساس ديمقراطي، كالنمط السويسري أو غيره، مطلباً يهودياً، لأنه الطريق للخلاص الاقتصادي، وللسلام والأمن المجتمعي لليهود في فلسطين وغير فلسطين.

وعند ذلك، تنفتح أبواب الشرق الأوسط على مصاريعها للدولة الفلسطينية الديمقراطية، ويعيش الجميع في فلسطين، وفي المنطقة في سلام وأمان حقيقيين على مستوى المنطقة، التي لن يهدد أمنها وسلامها الا التطورات غير السلمية في السياسة الدولية.

هكذا، يتحقق السلام، ويتحقق الاستقرار القائم على قوة العدالة، وليس القائم على حق القوة.

الخلاصة

يمكننا تلخيص ما أشرنا اليه بما يلي:

١ ــ قيام الدولة الفلسطينية المستقلة يتناقض مع الفلسفة الصهيونية (الفكرة الاستيطانية للكيان الصهيوني)، بسبب نوعيتها المرتبطة حتماً بالتوسع القهري المستمر على حساب وطن الغير، باتجاه تحقيق «اسرائيل الكبرى» وجلب يهود العالم اليها.

٢ ــ السلام في فلسطين والشرق الأوسط، يتناقض مع طبيعة الفلسفة الصهيونية، التي لا يمكن أن تمارَس الا بالهجرة اليهودية، وتهجير العرب والتوسع الجغرافي، وكل ذلك لا يتم الا بالحرب العدوانية التوسعية الاستيطانية.

٣ ــ ان طريق السلام يمر بزوال الفلسفة الصهيونية المذكورة، والخطورة الأساسية في ذلك قيام الدولة الفلسطينية.

٤ ــ انفتاح الشرق الأوسط أمام فلسطين الواحدة، لن يتحقق الا بزوال الفلسفة الصهيونية، التي يؤدي زوالها الى قيام فلسطين الواحدة، أو الموحدة بالأسلوب الديمقراطي، ومثل ذلك يتناقض مع الفلسفة الصهيونية، ومع حكام الكيان الصهيوني (اليهود والصهاينة والاشكناز) وتحقيقه يحتاج:

(أ) إما الى انتصار عسكري عربي ودرامي.

(ب) موقف دولي، وبخاصة أميركي، باتجاه السلام وليس الأمن القائم على القوة.

٥ ــ المشكلة الفلسطينية بقيام الصهيونية والكيان الصهيوني، هي محصلة للصراع الدولي على مناطق النفوذ، وقد زادت حدته بظهور المعسكر الاشتراكي القوي بعد الحرب العالمية الثانية. وهذا يعني، أن السلام في الشرق الأوسط، يرتبط باقامة الدولة الفلسطينية المستقلة، وهذا يرتبط باخراج الشرق الأوسط من دائرة الصراع الدولي. والمسؤول الأول عن ذلك هو السياسة الأميركية، لأن رغبة دول الشرق الأوسط (باستثناء الكيان الصهيوني) ومصالحها تتعارض مع أن تكون بلادهم مسرحاً لهذا الصراع. وهذا يعني، أن السلام في الشرق الأوسط، من خلال الطبيعة الدولية للصراع القائم فيه مع الصهيونية والقائم حوله مع الدول الكبرى، يفرض موقفاً دولياً باتجاه السلام.

٦ ــ إن هيئة الأمم المتحدة، هي وحدها المؤهلة لتكون الاطار لعملية السلام، خاصة وأن المشكلة أساساً أنشأها قرار التقسيم للأمم المتحدة عام ١٩٤٧. وحتى تتمكن الأمم المتحدة من أداء دورها، فلابد من موقف أميركي باتجاه السلام، خاصة وأن الموقف السوفياتي، لأسباب ذاتية وموضوعية مبدئية ومادية، لايمكن إلا أن يتجاوب بايجابية مع فكرة تحقيق السلام.

٧ ــ ان السلام لايتحقق الا بفكر يقوم على السلام. وان علاج المشكلة لاينعزل عن فهم أسبابها وازالتها دفعة واحدة، أو على مراحل تحقق الأمل بالوصول في النهاية الى الحل العادل الموصل الى السلام.

٨ ــ ان شعب فلسطين لايريد أن يرمي أحداً في البحر، ولكنه يرفض أن يبقى مشرداً في صحراء اللامواطنية، ويتمنى أن يبقى تاريخه نظيفاً، بأن لايفرض عليه العدوان الذي وقع على حقوقه الطبيعية في الحياة، أن يكون سبباً في مأساة الانتصار العسكري على الصهيونية.

٩ ــ ان فكرة توطين الفلسطينيين خارج وطنهم، أو فكرة البديل الواردة في الفكر الصهيوني، هي أفكار معادية للسلام، لأنها لاتمارس الا بالقوة والارهاب والقهر، فضلاً عن كونها مناقضة للطبيعة البشرية ولحركة التاريخ، وهي أمر مختلف تماماً عن الهجرة التي يقوم بها الأفراد طواعية من بلد الى بلد آخر.

١٠ ــ ان السلام يبدأ من قيام الدولة الفلسطينية المستقلة، وقيامها مسؤولية دولية، وخاصة من قبل الأمم المتحدة والدولتين العظميين، لأن تاريخ الصهيونية، قبل قيام الكيان الصهيوني وبعده، أثبت عدوانيته التي لاتتوقف أو تنحسر الا بفعل القوة، كما أثبت الخطر المستقبلي الحاد، الذي سيواجه التجمع الصهيوني القائم في اسرائيل، الأمر الذي يجعل من تحرير اليهود من الصهيونية (وريثة النازية) ضرورة ملحة لتحقيق السلام والأمن المجتمعيين، والتعايش الخلاق بين الأديان الثلاثة في المنطقة. وهو الأمر الذي لايقع على عاتق اليهود وحدهم، اذ يتأتى على الجميع خلق المناخ والظروف الكفيلة بانجاز التحرر الكامل من الصهيونية، وهو اقامة الدولة الفلسطينية. ولا أشك في أن الخطوة الأولى على طريق هذا التحرر هي اقامة الدولة الفلسطينية المستقلة، وعدم اقفال الباب أمام فلسطين الديمقراطية الموحدة بالأسلوب الديمقراطي.

ملحق

أفكار للنقاش

نتيجة لهذا الفهم للمسار المستقبلي للصراع العربي ــ الاسرائيلي، ولفهمنا الانساني والسلمي للدولة الفلسطينية، فقد طرحنا أفكاراً بهذا الاتجاه، بتصرف العالم وخاصة العالم الرأسمالي الصناعي، عندما ظهرت الحركة الأوروبية باتجاه مبادرة أوروبية في عام ١٩٧٩:

١ ــ الاعتراف الكامل بمنظمة التحرير الفلسطينية، كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني، والتعامل معها على هذا الأساس.

٢ ــ تنفيذ قرارات المجتمع الدولي، بانسحاب اسرائيل من جميع الأراضي العربية المحتلة، بما فيها القدس الشرقية.

٣ ــ تسليم المناطق المنسحب منها الى الأمم المتحدة، حيث تؤتمن عليها لفترة لا تتجاوز السنة.

٤ ــ في خلال ذلك، تقوم الأمم المتحدة بالتنسيق مع منظمة التحرير، بتمكين شعب فلسطين من ممارسة حقه في تقرير مصيره، بما في ذلك اقامة دولته الفلسطينية المستقلة.

٥ ــ اذا قرر شعب فلسطين الاستقلال الوطني، يتم اعلان قيام الدولة ويتم قبولها عضواً في الأمم المتحدة.

٦ ــ يعقد بعد ذلك مؤتمر دولي، بقرار من الأمم المتحدة وتحت رعايتها، تشارك فيه كافة الأطراف المعنية، بما في ذلك ممثلو أوروبا والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية، لبحث القضايا ذات العلاقة.

٧ ــ تكون أحكام الشرعية الدولية هي المرجع القانوني (Term of Referance) وهذه الشرعية تستند الى:

(أ) ميثاق الأمم المتحدة.

(ب) الاعلان العالمي لحقوق الانسان.

(ج) قرارات الأمم المتحدة.

٨ ــ في حالة الخلاف، ترفع الأمور المختلف عليها الى محكمة العدل الدولية، ورأيها مُلْزِم لكافة الأطراف.

٩ ــ لا يلغي أي اتفاق، الْحَقَّ في توحيد فلسطين في دولة فلسطينية ديمقراطية علمانية واحدة، بالأسلوب الديمقراطي، اذا زال التهديد العسكري الصهيوني.

١٠ ــ التزام الدول الكبرى عبر الأمم المتحدة بعدم التصرف بما يؤدي الى ايقاع الشرق الأوسط وفلسطين في مصيدة الاستقطابات والنزاعات الدولية، وضمان عدم انحيازه الى أي من معسكري الدولتين العظميين، أو مناخ سباق التسلح.

الشرق الأوسط في ظل «استراتيجية الحربين»

عصام الخفاجي

في ١٦ حزيران (يونيو) ١٩٨١، أعلن وزير الدفاع الأميركي، كاسبار واينبرغر، انتقال الادارة الأميركية الى تبني استراتيجية جديدة، يستطيع الجيش الأميركي بموجبها خوض حربين كبيرتين في آن واحد، وفي منطقتين متباعدتين، دون اللجوء الى الأسلحة النووية. وأوضح واينبرغر أن الاستعداد لمواجهة حربين يقوم على أساس احتمال وقوع حربين كبيرتين في وسط أوروبا ومنطقة الخليج في آن واحد، خلال فترتين شديدتي التقارب[١].

هذه المرة لم تجر الاشارة الى خطر الحرب العربية ــ الاسرائيلية، ولا الى شرقي آسيا والبحر الكاريبي، كما كان الأمر في الماضي. أكثر من ذلك، كان الخليج يقع ضمن احتمال «نصف الحرب» في الاستراتيجية العسكرية الأميركية السابقة لهذا الاعلان، من جانب واينبرغر (استراتيجية حرب ونصف)، فاذا به يحتل الآن موقعاً يهدد بأن يصبح مسرحاً لحرب لا تقل ضراوة عن المجابهة الأوروبية.

ما الذي مهد لهذا الانتقال في أوساط صانعي القرار الأميركي؟ أي موقع تحتله اسرائيل في هذه الاستراتيجية؟ أي دور للسلاح العربي في إعاقتها، أو تسهيلها؟ وهل سيعاد ترتيب أولويات السياسة العربية في ظلها؟

ممهدات الانتقال وذرائعه

يسهل اليوم، في ظل التوتر الشديد السائد في المنطقة، تكرار ما تورده وسائل الاعلام الغربية عن أخطار نجمت عن التدخل العسكري السوفياتي في أفغانستان، أو عن الحرب العراقية ــ الايرانية، وأدت بالتالي، الى قلق مفهوم، ان لم يكن مشروعاً، من جانب الغرب على مصادر امداداته النفطية. لكن لمحة تاريخية شديدة الاختصار عن فكرة قوات التدخل السريع، تبين أن الأمر سبق كل تلك الأحداث بكثير، وإنه كان ينتظر توافر عنصر ايديولوجي للمضي به الى نهايته المرسومة.

لقد انتهت حرب فيتنام، وتدهور الطلب المحلي والخارجي على منتجات الصناعة

العسكرية، التي شكلت القطاع الأكثر دينامية في الاقتصاد الأميركي، لأسباب لا مجال لذكرها هنا. وكان مثل هذا الكساد، اذا استمر، يهدد بركود اقتصادي يمتد الى قطاعات اقتصادية أخرى، بل ويشمل بلداناً رأسمالية أخرى. ومع انتهاء الحرب، ظهرت احدى نتائجها المباشرة في أن الولايات المتحدة لم تعد زعيماً لا ينازع للاقتصاد الرأسمالي العالمي، كما تفاقمت، منذ أوائل السبعينات، أزمة البطالة، وأزمة الدولار الخ... ولأول مرة منذ ١٨٩٣، شهد الميزان التجاري الأميركي عجزاً حاداً عام ١٩٧١، بعد أن ظل يسجل فائضاً طوال ثلاثة أرباع القرن. ولم يكن انتقال الصناعة الحربية الى فروع مدنية بالأمر البسيط، كما تصور كتب الاقتصاد المدرسية، في اقتصاد رأسمالي وصل الى مستوى عال من مركزة الاحتكارات. وتلك كانت جذور المعضلة التي عرفها الاقتصاد الرأسمالي منذ السبعينات «الركود التضخمي Slag Flation»، حيث علاج الركود الكلاسيكي يقود الى مزيد من التضخم، وحيث يؤدي العلاج الكلاسيكي للتضخم الى مزيد من الركود.

لسنا هنا في معرض تحليل الجذور الاقتصادية للعسكرة المتزايدة، بل أردنا فقط تبيان أن انتاج المزيد من السلاح كان مطلوباً لتنشيط دور الولايات المتحدة كزعيمة للعالم الرأسمالي، وبالتالي كقائد عسكري سياسي له، وكان مطلوباً، لتنشيط دور الاقتصاد الأميركي، حيث العسكرة مطلوبة لخلق سوق مضمونة لسلع سريعة التبدل وعالية التكنيك، كما كان مطلوباً لمعالجة الخلل في الميزان التجاري بزيادة الصادرات من الأسلحة.

ويوم أعلن نيكسون مبدأه حول «فتنمة الصراع» عام ١٩٧١، كانت مبيعات الأسلحة، محلياً وخارجياً، قد بلغت أدنى مستوى لها. فبعد أن حققت مبيعات الطائرات وحدها (٢٨) بليون دولار عام ١٩٦٨، هبطت لتصل الى (١٧,٨) بليون دولار عام ١٩٧١ (بالأسعار الثابتة لعام ١٩٦٨). وهنا تكمن أهمية مبدأ نيكسون، القائم على تزويد الولايات المتحدة «لحلفائها» بالمعدات بدل القوات، مع علم صانعي السياسة الأميركية بأن أية سوق خارجية لا يمكن أن تعوض عن استيعاب الجيش الأميركي للسلاح، فهو المنفذ الأساسي للتعاقد ولتطوير أسلحة جديدة. لكن هذا يتطلب شروطاً أخرى لم تكن فترة أوائل السبعينات توفرها.

كان مسؤولو الادارة الأميركية يدركون على الدوام، أن تنفيذ برنامج عسكري ضخم، يتطلب خلق جو نفسي ملائم يُشعِر المواطن الأميركي أن حياته، أو أسلوب حياته مهدد بالخطر. هكذا كان الحال حين أعلن مبدأ ترومان عام ١٩٤٧، وهكذا كان، أيضاً، في أوائل الستينات حين أُقنع المواطن الأميركي بأن فيتنام تهدد المصالح الغربية. لكن أواخر الستينات شهدت ما أسماه المحللون الأميركيون بالمرض الفيتنامي (The Vietnam Syndrome)، المتمثل في بروز النزوع السلمي للجماهير، وادراك فشل السطوة الأميركية.

وكما يقول المفكر الأميركي الليبرالي شومسكي: «كان لا بد من شن هجوم عنيف نحو المواطنين الأميركيين، جنباً الى جنب، مع بناء أساس لتثبيت سطوة القوة الأميركية، بالطريقة ذاتها التي تحققت في ظل مبدأ ترومان، وفي ظل مجلس الأمن القومي عام ١٩٦٨، وفي ظل ادارة كندي». وهذا، كما يرى شومسكي: «يفسر واحدة من أبرز حملات

الدعاية في التاريخ البشري: حملة 'حقوق الانسان' في السبعينات... لقد تم تنفيذ حملة استثنائية بمهارة كبيرة، واختيرت الأهداف حسب الظرف في وقت كان كل امرىء يعرف أن الولايات المتحدة ارتكبت جرائم كبرى في كوبا، والهند الصينية وشيلي». وهكذا «استطاع محرض نموذجي، مثل ارثر شليسنغر، أن يصف هذه الحملة الصليبية، في صحيفة وول ستريت جورنال، بأنها نجاح كبير فيقول: في الواقع تحل حقوق الانسان محل حق تقرير المصير كمثال موجه لسياستنا الخارجية»(٢).

وبين كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٨، وأواخر ١٩٧٩، كان يمكن لمتابع الاعلام الغربي ملاحظة تصاعد نشوة الانتصار الجنوني، والاعلان الصريح بأن «المرض الفيتنامي» قد عولج. والتواريخ مهمة هنا، لأنها تبين أن الأمر سابق على الثورة الايرانية، أو احداث أفغانستان. فقد جرت تهيئة المزاج الجماهيري لتقبل فكرة التدخل العسكري المباشر في مناطق بعيدة، أو استخدام القوات العسكرية الأميركية لردع احتمالات التغيير في الأوضاع القائمة*.

باختصار، كان كارتر الخطوة الانتقالية لعهد ريغان. وكانت نهايات عهد كارتر، وفترة الحملة الانتخابية بخاصة، مؤشراً واضحاً على ذلك؛ فما بدأه كارتر لابد من استكماله بنهج أكثر عدوانية. مذ ذاك، بدأ مفهوم التفريق بين مهمات «المركز» و«المحيط» يتعرض للتحديات. لقد كان هذا المفهوم يتناسب مع مرحلة ما بعد فيتنام حيث يصعب التلويح بالقوات المسلحة الأميركية في كل مكان. على هذا الأساس جرى التفريق بين مصالح «المركز» التي يجب الدفاع عنها بزج كل طاقات أميركا، ومصالح «محيطية» يُعهد بالحفاظ عليها، بالدرجة الأولى، الى حلفاء واتباع. وعلى هذا الأساس نفسه جرى تسليح ايران ودول قريبة أخرى بكميات كثيفة لتنفيذ مهمات «المحيط»(٣).

في كانون الثاني (يناير) ١٩٨١، تحدث الجنرال ديفيد جونز، رئيس هيئة الأركان الأميركية المشتركة أمام الكونغرس قائلاً: «اننا نعيش حقبة يمكن أن يقود فيها انقلاب عسكري، أو اضراب كبير، أو هجوم ارهابي، أو حرب بعيدة بين جيران الى عواقب عالمية تهدد رخاءنا القومي وأمننا... اننا بحاجة الى نظرة استراتيجية شاملة تدمج المشاكل الاقليمية في اطار عالمي»(٤). وقبل ذلك كان كبار العسكريين الأميركيين مثل القائد السابق لقوات حلف الأطلسي الكسندر هيغ، ووزير الدفاع السابق جيمس شليسنغر يتساءلون عن معنى التفريق بين المهمات المحيطية والمهمات المركزية، فقد اعتبر الأخير تحفظ ادارة كارتر تجاه التدخل في مناطق «المحيط» مثل أثيوبيا وأنغولا، مدخلاً لتشجيع تحديات أكبر في مناطق

---

* ليس هنا المجال المناسب لمناقشة فكرة «تهيئة المزاج الجماهيري» بالتفصيل، اذ ليس المقصود هنا، بالضرورة، تقبل الشعب الأميركي لسياسة ادارته العدوانية، بل على الأقل خلق جو من الفزع والقلق يجعله يذعن لهذه السياسة. كما أن نجاح هذه السياسة، حتى في المدى القصير، مشكوك فيه بجدية كما تبين المعارضة المتصاعدة للتدخل العسكري في السلفادور. والأمر المهم هنا، هو أن القادة السياسيين والعسكريين يدركون كذب ادعاءاتهم. اذ بعد عشرين عاماً من اعلان «مبدأ ترومان»، أعلن وزير خارجيته «دين اتشيسون» بفخر أنه استمال الكونغرس لصالح المبدأ عبر اختلاق فكرة الغزو السوفياتي على ثلاثة محاور: ايران، واليونان ومضيق الدردنيل.

مركزية كالشرق الأوسط[٥]. وتم تتويج الحملة بتحدي فكرة التفريق بين «حروب كبيرة» و«حروب صغيرة»، عبر أحد مستشاري المرشح الجمهوري، آنذاك، ريغان: «قد تكون الحرب/ الصغيرة/ في الخليج الفارسي، صغيرة فقط بالقياس الى الحرب الكبيرة في وسط أوروبا، أي بمعنى انخراط قوات أقل في المعركة. أما المصالح المتنازع عليها فقد تكون شديدة الضخامة.. فاعتماد حلفائنا الرئيسين في أوروبا الغربية وشمال شرقي آسيا على نفط الخليج متفاوت، لكنه اعتماد شديد الكبر. انه من الكبر بحيث لا معنى للتساؤل عما اذا كان الهجوم على الخليج أقل أهمية من الهجوم على وسط أوروبا. فالهجوم على الخليج يعادل هجوماً غير مباشر على الوسط»[٦].

وواضح من كل تلك التعليقات، ان الاستراتيجية المطروحة تجاوزت، ليس الحديث عن «حق تقرير المصير» فحسب، بل «الدفاع عن حقوق الانسان» كذلك، كمعايير للسياسة الخارجية. اذ نحن هنا أمام نصوص تعلن أن منطقة الخليج، ناهيك عن شعوبها، ليست مهمة بحد ذاتها. انها مهمة للحفاظ على مصالح البلدان الرأسمالية وتماسك تحالفها. ولكن كيف صيغت موضوعة الخطر على الخليج؟ بمعنى، ما هو السيناريو المفترض لمصدر الخطر على الخليج؟ وما هي وسائل الدفاع عنه؟ وهل تتلاءم وسائل «الدفاع» مع مصدر «الخطر»؟

من يهدد الخليج؟

في ملحق خاص بعنوان: «الدفاع عن الخليج»، تطرح الايكونومست[٧] السيناريوهات التالية: غزو سوفياتي للمملكة السعودية، انقلاب عسكري في المملكة؛ حرب أهلية في ايران؛ هجوم سوفياتي على حقول النفط شمالي العراق: اغراق ناقلة نفط في مضيق هرمز. خيال بارع! نعم، لكنه خيال موجّه. سنتجاوز، مؤقتاً، طرح «سيناريو» أكثر احتمالاً يتعلق بهجوم اسرائيلي، فمن وجهة النظر الاستراتيجية الغربية، كما سنلاحظ، سيكون هذا «حلاً» بوجه المخاطر المهددة لضمان امدادات النفط.

الأمر الأكثر أهمية هنا، ملاحظة كيف يجيب استراتيجيو البيت الأبيض على أسئلة من النوع التالي: ما هي المعطيات القائمة لاحتمال تحقق أحد هذه السيناريوهات؟ هل أن تحقق أحدها يمكن أن يهدد مصادر امدادات الغرب بالطاقة؟

وليس في نيتنا هنا الدخول، في تفاصيل عن التوازن الاستراتيجي بين الاتحاد السوفياتي وقوات حلف وارسو من جهة، والولايات المتحدة وحلف الأطلسي من جهة أخرى. ذلك أننا عند حساب القدرات العسكرية المجردة، يمكن أن نتوصل الى شتى الاستنتاجات. وسنكتفي بالاشارة الى أن المنطق الأميركي نفسه، هو المنطق الوحيد الذي يمكن بموجبه، تبرير الاحتلال، أكان أميركياً أم غير أميركي.

في دراسة نشرتها نيويورك تايمز على ثلاث حلقات، تبدأ الصحيفة بالاشارة الى أنه في عالم اليوم لا يكفي الاعتماد على النوايا بل لابد من التركيز على الامكانات، لكنها لا تخفي في النهاية أن منطقة الخليج والمحيط الهندي التي تهم الأميركيين، كمجال لمد نفوذهم وهيبتهم القومية، تبدو في طريقها لأن تصبح مسؤولية أميركية، بعد أن ظلت طوال أكثر من مائة عام خاضعة لبريطانيا[٨].

لقد بنت الاستراتيجية الأميركية حساباتها على الشكل التالي: ان استيراد النفط الخام ليس عنصراً حاسم الأهمية للاقتصاد الأميركي نفسه، فالولايات المتحدة تنتج، أقل بقليل، من حاجتها من هذه المادة. لكن حلفاءها، في أوروبا الغربية واليابان شديدو الاعتماد على هذا النفط، بحيث ان أي انقطاع لمصادر النفط الخام، وبخاصة نفط الخليج، يمكن أن يهدد اقتصاد ونمط حياة هذه البلدان. ظاهرياً، يبدو مثل هذا الطرح منطقياً. لكن ثغرتين جديتين تبرزان هنا، على الأقل.

أولاهما: إذا كانت الولايات المتحدة تنتج أقل بقليل من حاجتها من النفط الخام فالاتحاد السوفياتي ينتج أكثر من حاجته من هذه المادة؛ ويصدر الفائض لسد حاجة بلدان أوروبا الاشتراكية. فما الذي يدفعه الى «الغزو»؟ يجيب هولستيتر[٩]، ان تقديرات المخابرات المركزية الأميركية* تشير الى أن الاتحاد السوفياتي سيتحول الى مستورد للنفط خلال النصف الثاني من الثمانينات. وبعيداً عن الاشارة الى التقديرات اللانهائية لوكالة المخابرات المركزية، التي ثبت تعمد الخطأ فيها، فلا بد من التساؤل من جديد، لماذا لا يعمد الاتحاد السوفياتي عند ذاك الى استيراد حاجاته من النفط الخام، كما يستورد الآن كثيراً من المواد الأولية الأخرى؟ واذا كان الجواب أن تكاليف الاستيراد باهظة فما علينا إلا مقارنة تكاليف البناء الحربي الضخم في هذه المنطقة بتكاليف الاستيراد لملاحظة تهافت هذه الحجة. بعبارة أخرى، ان المنطق العسكري الأميركي ينطلق أصلاً من حجة مفادها: ان الحاجة الماسة لمادة أولية معينة تبرر احتلال مناطق انتاجها، ليعود هذا المنطق وبعد أن يعكسه على الطرف المعادي الآخر (الاتحاد السوفياتي) فيبين أن هذا الطرف سيكون بحاجة ماسة الى تلك المادة مما يشكل خطراً على البلدان التي تنتجها!

عسكرياً، تعجز الدراسات الاستراتيجية الأميركية عن اغلاق الثغرة المشار اليها أعلاه. نشير، على سبيل المثال، الى حجتين أساسيتين طرحتا لتبيان زيف هذا الادعاء، أولاهما تثير مسألة الدافع لهذا البرنامج العسكري الضخم. هل هو الاعتماد على نفط الخليج؟ حسناً، لقد رفض نيكسون المضي في برنامجه لتصنيع النفط من الأحجار الزيتية على أساس تكاليف البرنامج. وما علينا سوى مقارنة تكاليف ارسال القوات الى منطقة الخليج لمقارنة أيهما أكثر كلفة. أما الحجة الثانية فتتساءل، على افتراض صحة وجود خطر تدخل سوفياتي، هل من الضروري بناء ترسانة ضخمة من الأسلحة التقليدية؟ ذلك أن الاستراتيجية الأميركية تقوم على أن تعرض المراكز الحيوية للهجوم كاف لاستخدام أساليب «التصعيد العمودي»، أي التخويف باستخدام السلاح النووي.

أما الثغرة الجسدية الثانية في الاستراتيجية العسكرية الأميركية فانها ترتبط بالعلاقة بين الولايات المتحدة وحلفائها، اذ يتضح من التصور الأميركي نفسه أن محوري «الخطر السوفياتي» لا يمسان الولايات المتحدة مباشرة، فهناك احتمال حرب في أوروبا، واحتمال حرب أخرى في الخليج دفاعاً عن المصالح النفطية لأوروبا الغربية واليابان بالدرجة الأولى، (بعد أن أسقطت احتمالات الحرب مع الصين أو في جنوب شرقي آسيا منذ الستينات). بيد أن أية متابعة للوقائع تبين أن الدول الواقعة على «خط المجابهة»

---

* وهي بالطبع واحدة من مئات المواد الدراسية والاعلامية الأميركية التي تدور حول الموضوع ذاته.

المزعوم، بعيدة عن أخذ هذه الأخطار مأخذ الجد، فألمانيا الاتحادية تميل الى خفض موازنتها الدفاعية منذ أواخر السبعينات. وينطبق الشيء ذاته على موقف أوروبا الغربية تجاه احتمالات الخطر في الخليج، مع أن لفرنسا وبريطانيا، كما سنلاحظ، وجوداً بحرياً في المنطقة. وبرغم كل الضغوط الأميركية على أوروبا الغربية الا أنها لم تتوصل في جو هذه الدول، الى التعاطي مع المنطقة من الزاوية ذاتها. وهذا لا يعني بالطبع، أن موقف هذه الدول أو بعضها على الأقل، أقل عدوانية تجاه المنطقة، اذ لعل سياساتها أكثر دهاءً، في هذا المجال، من الولايات المتحدة. لكنه يشير الى ثغرة تعجز الاستراتيجية الأميركية عن ردمها تجاه المواطن الأميركي المدعو للاقتناع بضرورة الانخراط في الدفاع عن «مصالح العالم الغربي». بل ان الحجج التي طرحها الجمهوريون لتفسير التقاعس الأوروبي، ترتد ضد المنطق الجمهوري نفسه. يشير كيسنجر، على سبيل المثال، الى سعي أوروبا لخلق حلقة تجارية مغلقة بينها وبين الشرق الأوسط على حساب البلدان الاشتراكية والولايات المتحدة في آن[١٠]. فاذا صح هذا، فان الاستراتيجية الأميركية ليست مبنية على أساس الدفاع عن مصالح الغرب، قدر ما هي استراتيجية حرب، أو استعادة الزعامة على العالم الغربي ان لم يكن العالم كله.

هذا في ما يتعلق بالاستراتيجية الأميركية تجاه احتمالات «الغزو المباشر» السوفياتي. وسنؤجل الحديث عن السيناريوهات الأخرى القائمة على احتمالات انقلاب عسكري، حتى نتعرف على وسائل الدفاع بوجه الخطر، كما تطرحها استراتيجية ريغان، لنرى ان كانت هذه الوسائل نفسها تشجع أو تعيق احتمالات الانقلاب، بتصعيدها للعسكرة داخل بلدان الخليج نفسها، وارسائها الأساس المادي بالتالي، لزيادة الثقل الاجتماعي ــ السياسي للعسكريين المحترفين داخل تلك البلدان.

من تصدير السلاح الى تصدير القوات

تنتهي دراسة هولسنيتر[١١] المشار اليها، بخلاصة ذات مغزى مفادها: ان نجاح الاستراتيجية المرسومة يتطلب «اقتناع حلفائنا في الخليج بوجود خطر غزو حقيقي». وها أن القناعة متوافرة لدى بعض الأطراف على الأقل، فما هي وسائل الدفاع؟

في ١٩٨١/٥/٢١، أعلن مساعد وزير الدفاع الأميركي لشؤون المساعدات العسكرية أن بيع المعدات العسكرية الى الخارج واحد من الأدوات الاساسية للسياسة الخارجية الأميركية[١٢]. وجاء هذا التصريح ليفتتح عهداً جديداً في تطور تجارة السلاح، بعد أن أعلن الرئيس كارتر مبدأه بتقييد صادرات السلاح الى الخارج قبل ذلك بأربع سنوات[١٣]. وتم تكريس هذا الموقف بقرار الرئيس ريغان، في ٨ تموز (يوليو) ١٩٨١ الذي قام على أساس «تعزيز قدرات الدفاع الذاتي لحلفاء الولايات المتحدة»، بما فيها البلدان ذات السجل البارز في ميدان انتهاك حقوق الانسان. وشرع بتنفيذ هذا القرار، في البدء بازالة الخطر السابق على بيع سربي مطاردات ف ــ ١٦ الى كوريا الجنوبية، وسرب طائرات من الطراز ذاته الى فنزويلا فضلاً عن (١١٧٧) صاروخ جو ــ جو من طراز سايدوندر، وطائرات الأواكس (بوينغ) الخمسين الى العربية السعودية. وهكذا عاد ريغان الى استكمال ما بدأه نيكسون وفورد قبله؛ حيث ازدادت مبيعات السلاح في ظلهما،

من بليون دولار الى ١٥ بليوناً. ولابد من اشارة عارضة هنا، الى أن كارتر، رغم كل ما فرضه من قيود، لم ينجح في خفض تصدير السلاح، بل لعل مأثرته الوحيدة تكمن في أن مبيعات الأسلحة لم تزدد كثيراً في عهده، اذ بلغت ١٥,٣ بليون دولار عام ١٩٨٠، وهو رقم قياسي لمبيعات الأسلحة، على أية حال*[١٤].

ويقوم الطرح العسكري الأميركي على التسليم بأن البلدان المتسلمة للسلاح لن تكون قادرة وحدها على ردع هجوم عسكري من جانب الاتحاد السوفياتي، لكنها ستكون قادرة على الأقل على تأخيره ريثما تصل «القوات الحليفة» لنجدتها، هذا فضلاً عن تمكين تلك البلدان من الوقوف بوجه حلفاء للاتحاد السوفياتي في حالة هجوم عليهم.

على أساس هذه الصياغة للأهداف الأميركية شرعت الولايات المتحدة وباقي بلدان أوروبا الغربية، وبخاصة فرنسا، في دفع أسلحة متزايدة الضخامة والتعقيد الى بلدان المنطقة. (أنظر الجداول)، وبعد أن كانت حصة الشرق الأوسط من ميزانية التسلح العالمي، أو من اجمالي استيرادات السلاح في العالم لا تشكل الا كسراً ضئيلاً أخذت هذه النسبة تتصاعد حتى غدت المنطقة اليوم أكبر مستورد للسلاح في العالم (٤٨٪ من اجمالي الاستيرادات العالمية من السلاح طوال العقد الماضي، و٣٢٪ من اجمالي استيرادات الأسلحة الثقيلة في العالم)[١٥]، ومن ٤٠ مليون دولار في أوائل الخمسينات، تصاعدت واردات الأسلحة الى المنطقة فغدت بمعدل ٢٠٠ مليون دولار في أواخر الستينات[١٦]، ثم ٧ مليارات دولار في أواخر السبعينات.

فهل ازدادت القدرة الدفاعية للعرب، وفق المنطق الأميركي ذاته؟ حين ازدادت مبيعات الأسلحة الفرنسية الى الخارج، لم يخف أحد مساعدي ديستان أن أهداف فرنسا لا علاقة لها بالدفاع عن البلدان العربية، اذ قال: «ليس هناك ما يعيب بيع السلاح الى الدول العربية الغنية بالنفط، فهي تريد أن تحمي ثرواتها المكتسبة حديثاً، ونحن نريد أن نسدد فاتورة حسابنا من النفط الباهظ»[١٧]. أما في الأوساط الاعلامية الأميركية فنادراً ما تظهر مثل هذه التصريحات في الصحف اليومية، ومع ذلك، فان رجال الصناعة الأميركيون لا يخفون «أن أسهل طريقة لاعادة تدوير الفائض النفطي هي بيع السلاح»[١٨]. لقد انفقت بلدان الخليج العربي ٣٥٠ بليون دولار** على شراء السلع والخدمات العسكرية من الخارج خلال الفترة ١٩٧٤ ــ ١٩٨٠[١٩]، فكيف يقيّم الاستراتيجيون الغربيون قدراتهم الدفاعية في ضوء هذا الاتفاق؟

تلخص دراسة نشرت في «المجلة الدولية للقوات المسلحة» الأميركية[٢٠]، والملحق الاعلاني لمجلة أيكونومست[٢١]، ودراسة هولستيتر[٢٢]، التصور الأميركي لامكانات الاعتماد على القدرة الذاتية، اذ تشخص هذه الدراسات النواقص التالية:

١ ــ تعتمد معظم دول الخليج على مستشارين وفنيين أجانب. ويعتمد بعضها على ضباط ومرتزقة متعاقدين. ونادراً ما أدت مثل هذه القوات دوراً كفؤاً في القتال، فضلاً عن

---

* الأرقام تتعلق بمبيعات الأسلحة عموماً لا الصادرات.

** ان هذا الرقم أعلى من الرقم الوارد في الجداول عن استيرادات السلاح، لأنه يشمل نفقات التعاقد لإقامة منشآت عسكرية، ونفقات تدريب وصيانة الخ...

وجود شكوك جدية حول نوعية ومستوى كفاءة المتعاقدين أنفسهم.

٢ ــ خضعت قوات المنطقة، ولا تزال تخضع الى عملية تحديث واعادة هيكلية جذرية، بمعدلات تحويل (Conversion rates) شديدة الارتفاع. مثل هذه المعدلات برهنت على عدم فاعليتها لصعوبة استيعاب عملية التحديث، حتى من جانب قوات عسكرية غربية عالية التعقيد وذات خبرة عسكرية عريقة في استخدام السلاح الحديث. وعلى العموم تمضي القوة الجوية الملكية البريطانية أو سلاح الجو الفرنسي فترة أطول بكثير في تجريب أنماط المقاتلات الجديدة من بلدان الخليج.

٣ ــ تعاني الأسلحة المختلفة لجيوش المنطقة من اختلالات جدية في تناسب مكوناتها تعيق تشغيل أسلحتها المشتركة بصورة فعالة. اختلالات ليست بين القوة الجوية والبرية والبحرية فحسب، بل ضمن كل سلاح على حدة. وعلى سبيل المثال، تتوافر طائرات عالية الأداء من دون صواريخ وذخيرة تتناسب معها، أو تتوافر طائرات شديدة التنوع لا يمكن ضمان صيانتها والتدريب على استخدامها.

٤ ــ حتى إذا أدخلنا المتعاقدين الأجانب في اعتبارنا، تعاني جيوش هذه البلدان من انخفاض مريع في نسبة القوى البشرية إلى معدات القتال المتوافرة، ناهيك عن مستوى تأهيل هذه القوى بالقياس إلى متطلبات التسليح.

٥ ــ تلجأ معظم جيوش هذه البلدان الى تنويع أنماط سلاحها لأغراض الهيبة، الأمر الذي يضيف مشاكل جديدة وجدية الى امكانية الاستفادة منها، والتدريب عليها وتوحيد مجال عملها، وتوفير الصيانة لها الخ...

٦ ــ تبدل سريع في الصفوف العليا للضباط لأسباب سياسية تعيق الاستفادة من الكفاءات القليلة المتوافرة.

ويضيف هؤلاء الى تلك النواقص، صعوبة التنسيق بين منظومات السلاح وأساليب التدريب والعقائد العسكرية التي تتبعها هذه البلدان، ناهيك عن توحيدها، بسبب خوف الدول الأصغر من الدول الأكبر في المنطقة، ليصلوا الى استنتاج «أن مراكمة القوى المسلحة تخلق في الواقع خطراً محتملاً على عدة دول خليجية، يتجاوز أي خطر خارجي من جانب الكتلة السوفياتية أو من جيرانها» و«ان أهم ميزان عسكري يجب الحفاظ عليه في معظم بلدان الخليج هو الذي يمنع قواتها المسلحة من استخدام السلطة»[٢٣].

إذاً، بدأ المنطق الغربي بالتخويف من السوفيات، ودعا الى تقوية الجيوش المحلية. تعززت الجيوش المحلية، «فاكتشف» مخاطرها ودعا إلى حماية منابع النفط من «التغييرات الراديكالية» داخل هذه البلدان ومن هذه القوات المسلحة. وبعد أن خلق أساس العسكرة في بلدان تجاوزت حصة الانفاق على الدفاع فيها نسبة ربع اجمالي الانفاق العام، وتجاوزت حصتها من اجمالي استيرادات السلاح العالمي ٤٨ ٪، أخذ يحذر من مخاطر ذلك، ويبحث عن وسائل الدفاع، من عدم الاستقرار الذي يثيره وجود هذا السلاح. وما دام بحثنا منصباً هنا على متابعة الفكر العسكري الأميركي، فلن نناقش هنا جدية هذه المخاطر أو عدم جديتها، وطبيعة التناقضات التي يمكن أن تجابهها هذه البلدان. انما يهمنا هنا ابراز أن الوجود العسكري المباشر من جهة، والبحث عن حلفاء مستقرين يشكلان عمودي فكرة قوات التدخل السريع، وعسكرة اسرائيل في آن واحد، وان التفكير

بموجب منطق اقناع الولايات المتحدة بأن مصالحها تقع في هذا الجانب أو ذاك ليس إلا ضرباً من الخيال.

متراس العالم الحر

«لست مضطراً لأن أقول لكم ان هذا ليس مجرد نزاع بين اسرائيل والعالم العربي، بل هو صراع اسرائيل الدولة الملتزمة ايديولوجيا بمجتمع الأمم الديمقراطية وبقيادة أميركا لهذا المجتمع ضد السوفيات. لقد كانت اسرائيل متراساً وستبقى كذلك بوجه التغلغل السوفياتي في الشرق الأوسط»(٢٤). هكذا يلخص موشي آرنس (وكان يومها رئيس لجنة الدفاع والشؤون الخارجية في الكنيست) فكرة «الاجماع الاستراتيجي» التي تسعى الادارة الأميركية الى تحقيقها في المنطقة. فبعد انهيار التجربة الايرانية لم تعد فكرة «شرطي الخليج» لتقنع أحداً في أوساط صانعي القرار الأميركي سواء من حيث توافر البديل ذي الامكانات المقاربة لامكانات ايران الشاه، أو من حيث ضمان استقرار هذا البديل. بالأحرى صار أحد «هموم» الاستراتيجية الأميركية الرئيسية كيفية ضمان عدم تعرض هذا التوازن الهش الى الاختلال. وذلك هو مغزى التحول في مركز الثقل نحو الوجود العسكري المباشر من جهة، وتقوية القدرة العسكرية الاسرائيلية من جهة أخرى، وليس وضع تعارض بين الحاجة الى القدرة العسكرية الاسرائيلية من جهة، والتحالف مع العرب من جهة أخرى، بل من زاوية أن ضمان التحالف مع العرب يكمن في اسرائيل قوية ومتفوقة تعيق أي تفكير عربي بخيار عسكري ضدها، وتفرض نفسها كأمر واقع، وترغم الباحثين عن الاستقرار على التفكير بأن جزءاً من استقرارهم يرتبط بتنسيق المواقف والجهود «لمقاومة التغلغل السوفياتي». ويشير موشي آرنس الى هذه الفكرة كما يلي: «لقد جاء السادات [الى اسرائيل] لأنه أدرك ألّا خيار عسكرياً أمامه. ولكن اذا فعلنا أي شيء يمكن أن يضعف اسرائيل، فسينشأ تصور في العالم العربي بأن أمامهم خياراً عسكرياً»(٢٥).

والواقع أن التصور الاسرائيلي ينطلق، كما تدل الوقائع، من تفهم لمعنى تراكم السلاح في المنطقة العربية محل البحث ودوافعه، من دون التعاطي معه ــ برغم كل التصريحات الاعلانية ــ كاخلال بميزان القوى القائم. اذ انطلاقاً من مقارنة كمية للأسلحة والقوات المسلحة بين اسرائيل والبلدان العربية الأربعة التي يمكن أن تحاربها، تعترف اسرائيل بأن هناك تفوقاً عددياً لغير صالحها، انتقل من نسبة ١/٣ الى ١/٤(٢٦). لكنها تؤمن لنفسها تفوقاً نوعياً ساحقاً في المنطقة، يضمن لها عدم التعرض للخطر، كما تدعي وقوة رادعة على مستوى المنطقة بأسرها، الأمر الذي يجعلها حقاً «شرطي» الامبريالية الوحيد الذي يمكن الركون اليه. يلخص هذه الفكرة أريئيل شارون كما يأتي: «ان اسرائيل لن تستطيع الاستمرار طويلاً في سباق تسلح مع أعدائها العرب على أساس الكمية، اذ عليها بدلاً من ذلك العمل على ابقاء وتطوير تفوقها النوعي عليهم»(٢٧).

ويقوم هذا التفوق النوعي على عدة وسائل أبرزها، تعدد الدول التي يحتمل أن تخوض صراعاً مسلحاً ضد اسرائيل، والعمل على تحويل تجزئتها جغرافياً الى تفتت

استراتيجي يقوم على جعل أولويات كل دولة متباعدة، ان لم تكن متنافرة مع أولويات الدولة الأخرى؛ بحيث يصعب دخولها موحدة في هذا الصراع، فضلاً عن الاستفادة من تباين العقائد العسكرية لجيوشها؛ الأمر الذي توضحه اهتمامات العراق حالياً بحربه الدائرة مع ايران، واهتمام دول أخرى بمصادر خطر مفترض على الخليج. وتقوم الوسيلة الثانية، والأهم على امتلاك السلاح النووي، الذي تدل الوقائع على نجاح اسرائيل في تصنيعه وفي توفير وسائل استخدامه واطلاقه (طائرات كفير وفانتوم وصواريخ أريحا التي يبلغ مداها ٤٨٠ كليومتراً، والمصنوعة بمساعدة فرنسية، والسعي للحصول على صواريخ بيرشنغ الأميركية) بحيث تلعب اسرائيل دور «الشرطي النووي للمنطقة»، على حد تعبير صحيفة عل همشمار[٢٨]. ان مثل هذه الوسيلة لكسب التفوق النوعي، لا تهدف، كما هو واضح، الى ضمان عدم تعرض اسرائيل لهجوم بل الى ضمان الابقاء على هيمنة اسرائيلية على المنطقة، بحيث تؤخذ «المصالح الاسرائيلية ــ الأميركية» بعين الاعتبار في رسم السياسات العربية. وهذا المنطق الابتزازي واضح من تصريح البروفسور شلومو أهارونسون، أحد الداعين لتطوير قنبلة هيدروجينية، «لادخال الرعب في نفوس معسكر العرب... فعلى العرب أن يعرفوا أننا حددنا مائة هدف حيوي سيؤدي تدميرها الى تغيير كامل لخارطة المنطقة»[٢٩].

وأخيراً، هناك وسيلة ثالثة وفعالة توضح، في الوقت ذاته، الترابط بين أهداف الولايات المتحدة من تسليح البلدان العربية، والوجهة الاسرائيلية لضمان تفوقها النوعي. بحيث تتحقق الفكرة الاسرائيلية ــ الأميركية: أن الوصول الى اجماع استراتيجي يمر عبر اقتناع العرب بأن لا مجال لأي خيار عسكري ضد اسرائيل، وان الاجماع الاستراتيجي يمكن أن يتحقق مع اسرائيل لمواجهة عدو مشترك، لالكي يكون اجماعاً ضد اسرائيل نفسها. تتمثل هذه الوسيلة في الشروط التي ترتبط بالتسليح العربي، وما أبرزته، على سبيل المثال معركة الحصول على الأواكس، من دون دخول في تفاصيلها. ويكفي أن نشير هنا الى ثلاثة أمثلة، لتبيان أن الأمر لا يتعلق فقط بلوبي صهيوني يضغط على الادارة الأميركية، قدر ما يتعلق بتفاهم مشترك حول وجهة التسليح. المثال الأول يتعلق بالقيود على استخدام شاشات الرادار الأردني في مناطق غربي الأردن، بما يمنع الأخيرة من تتبع الطلعات الجوية الاسرائيلية الواطئة، وباشتراط الادارة الأميركية تثبيت شبكة صواريخ هوك شرقي عمان[٣٠]. والمثال الثاني حول شروط تزويد العربية السعودية بطائرات ف ــ ١٥، حيث حُظر وضعها في قاعدة تبوك الشمالية واشترطت الادارة الأميركية استخدامها فقط في قواعد خميس مشيط قرب الحدود اليمنية، وفي الظهران المطلة على الخليج وفي الطائف قرب مكة[٣١]. والمثال الثالث حول الاجراءات المهدئة لاسرائيل في مقابل تمرير صفقة الأواكس «وافق ريغان على منح اسرائيل قروضاً بقيمة ٦٠٠ مليون دولار لتمويل شراء عشر طائرات اضافية من طراز ف ــ ١٥. كما يعتزم بيع اسرائيل معدات معقدة تنسق عمل القوات وتضاعف فاعليتها، ومعدات الكترونية يمكن أن تشل عمل الأواكس السعودية. وليس هذا مجرد هدية ترضية؛ اذ يريد وزير الخارجية ألكسندر هيغ تقوية اسرائيل، بما يتجاوز حاجاتها الدفاعية، لكي تتصرف كقوة ردع بوجه أية مغامرة في المستقبل من جانب السوفيات، أو الليبيين، أو السوريين أو أي نظام

عربي راديكالي»[٣٢].

المظلة الأميركية

بدهي، ان الاستراتيجية الأميركية بوضعها التدخل المباشر «لحماية حقول النفط» هدفاً من أهدافها، لا يمكن أن تستعيض عن الوجود الأميركي، والغربي المباشر بالاعتماد على اسرائيل أو على حلفاء محليين آخرين، لأسباب واضحة. اذ يمكن لاسرائيل توجيه ضربات عسكرية مباشرة ضد الأنظمة التي لا ترق لها (سوريا ومصر عبد الناصر)، أو ضد أهداف تهدد تفوقها النوعي، أو ضد الشعبين الفلسطيني واللبناني. وهي في كل ذلك قادرة على الحديث عن «ضمان أمنها» أمام العالم. وهي قادرة على التخويف بتفوقها النوعي لعرقلة الاخلال بالميزان السياسي القائم. لكنها لا تستطيع ادامة احتلال مباشر لأراض بعيدة عنها لأسباب عسكرية ــ تعبوية ولأسباب سياسية واضحة. فيما رسمت السياسة الأميركية خطتها ليس على أساس مواجهة مع السوفيات فحسب، بل على أساس مواجهة تغيير داخلي يشل امكانية الاتحاد السوفياتي، بانذاره بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لبلدان المنطقة. اذ مع تدخل عسكري أميركي سيتم فرض أمر واقع عسكري وسياسي على العالم، كما ترى الاستراتيجية الأميركية. ولا تخفي الولايات المتحدة أن من بين أهداف وجودها العسكري المباشر سعيها، في حالة حصول تغيير داخلي، الى «مساعدة القوى المعتدلة على افشال التمرد... وفي حال عجزها فسيتم احتلال آبار النفط»[٣٣]. أكثر من ذلك، تطرح العسكرية الأميركية هدفاً آخر لوجودها حتى في ظل بقاء تلك الأنظمة من دون تهديد يتمثل في «جعل التدخل محتملاً في حالة فرض حظر نفطي، أو رفع غير منطقي لأسعار النفط، كما حدث عام ١٩٧٣، أو حتى اذا حدث بنسبة أقل كما في عام ١٩٧٩»[٣٤]، المهم ألا «يتكرر ما حدث في العراق عام ١٩٥٨، أو في ايران عام ١٩٧٩»[٣٥].

على هذا الأساس، سارعت ادارة كارتر الى تبني فكرة «قوات الانتشار السريع» التي بدأت بدعوة من كيسنجر لالردع السوفيات، بل لردع أي حظر نفطي أو رفع لأسعار النفط غداة حرب تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣. لقد كان الهدف أن تكون للولايات المتحدة كلمتها المسموعة في أي حدث سياسي في المنطقة، وهذه الكلمة لن تكون مسموعة من دون وجود هراوة مباشرة. يقول ريغان: «ان ضعف الولايات المتحدة العسكري هو السبب في بقائنا محايدين في الحرب بين العراق وايران»[٣٦].

قبل أن يعلن الرئيس كارتر قراره، رقم ١٧ لعام ١٩٧٧، بانشاء قوات الانتشار السريع (وهو كما يتضح من تاريخ اعلانه سابق لأحداث ايران أو أفغانستان)، كان الوجود العسكري الأميركي في المنطقة يقتصر على ثلاث بواخر متوسطة في قاعدة المحرق بالبحرين[٣٧]. وكان الوجود الأبرز للأسطول السادس في البحر الأبيض والأسطول السابع في المحيط الهندي. وفي حينها لم يكن الحديث عن غزو سوفياتي وارداً، ولا الحديث عن تغيرات سياسية في المنطقة. بل كان ما يطرح علناً يقتصر على امكانية اغلاق مضيق هرمز، أما الآن، فقد تراجعت هذه الحجة لتهافتها. فالمضيق أعرض وأعمق من أن تغلقه حتى ناقلة نفط يتم اغراقها فيه، اذ يبلغ عرضه ٢٤ ميلاً، وعمقه ١٠٠ متر.

ومع اعلان أنشاء قوات الانتشار السريع، تحولت مهمة قاعدة المحرق العائمة الى «حارس أمامي لقوة المهمات المحمولة من خارج الخليج»، وزادت القطع التي تستقر فيها فصارت ٤ ــ ٥ فرقاطات، وأصبحت القاعدة تحت امرة أميرال بحر أميركي. وبدأت القوة بـ ٢٦٠ بحاراً، يمكن زيادتهم في حالة الطوارىء بسحب قوات من احتياطي حلف شمال الأطلسي، كالفرقة ٨٢ المحمولة جواً. ولم تمض بضعة أشهر حتى سحبت هذه القوة قطع أسطول المحيط الهندي وأصبح تحت امرتها ١٨ ــ ٢٠ باخرة حربية و١٠ سفن اسناد، فضلاً عن سبع سفن تجارية أعيد اصلاحها على عجل، مع معدات ووقود ومياه كافية لتموين فرقة بحرية مكونة من ١٢ ألف رجل ولإدامة ١٢ سرب طيران حربي، أما المعدات فتشمل أكثر من ٥٠ دبابة، و٩٥ عربة مدرعة وحوالى ٦٠٠ شاحنة. وارتفع عدد العسكريين خلال هذه الأشهر الى ١٨٠٠ نصفهم في البحر والنصف الآخر في استراليا في الحالات غير الطارئة. وكانت خطة كارتر تقضي ببناء ١٢ باخرة خاصة قادرة على حمل تجهيزات فرقة بحرية كاملة (١٣ ألف رجل، بحيث تسلم أولى السفن عام ١٩٨٣ وآخرها عام ١٩٨٧، حين تستقر الفرقة بصورة دائمة قرب الخليج. ولتسهيل نقل المعدات والعسكريين شرعت وزارة الدفاع الأميركية بالتعاقد لتصميم طائرة جديدة استراتيجية، من طراز (CX)، تستطيع النزول في أشرطة ساحلية ضيقة وذات مدى طويل، بحيث تبلغ تكلفة صنع ٢٠٠ طائرة حربية من هذا النوع حوالى ١١ بليون دولار.

ومع مجيء ريغان الى السلطة، تم تحويل هذه القوة الى مستوى «قوة موحدة»: بمعنى اعلان استقلالها ادارياً بعد أن كانت تستعين بقوات ومعدات الأسطولين السادس والسابع. وطالب واينبرغر برفع اعتماداتها حتى عام ١٩٨٥ الى ١١ بليون دولار، بعد أن كانت اعتماداتها ١٠ بلايين دولار، فضلاً عن دفع الجهود للضغط على الحلفاء بهدف الحصول على قواعد، أو تسهيلات دائمة، تؤمن سرعة الحركة بدل تحمّل مشاكل الانتقال من جزيرة دييغو غارسيا الى المنطقة. ولعل الاتفاق الاستراتيجي مع اسرائيل (برغم تعليقه مؤخراً) كان أبرز نجاح في هذا الشأن من حيث مدلوله الرمزي فحسب، اذ أنه يضع كل الموانىء والمطارات والقواعد والتسهيلات الاسرائيلية تحت تصرف القوات الأميركية لمواجهة «الخطر السوفياتي». وهو، ان لم يقدم جديداً على صعيد التعاون الاسرائيلي ــ الأميركي، فانه يمثل تكريساً قانونياً لهذا التعامل على الأقل. أما على صعيد منطقة الجزيرة والخليج، فلا يخفي المخططون الأميركيون أن هذه الأراضي ستصبح قاعدة أميركية متى برز خطر جدي مقلق. وعلى صعيد التسهيلات التي يمكن أن تستخدمها القوات الأميركية كنقاط انزال وانطلاق، فهي حتى الآن، وبالاضافة الى البحرين، رأس بناس في مصر، وتمريت ومصيرة وصلالة والسيب والقوص، بالاضافة الى مدرج طيران قرب مضيق هرمز في عمان، فضلاً عن بربرة في الصومال وموميناسا في كينيا. ولا بد من الاشارة هنا، الى أنه في حال وجود تنسيق عسكري بين فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة، فستكون قاعدة جيبوتي الفرنسية مصدر اسناد اضافي، وكذلك الأسطول الفرنسي المكون من ١٠ ــ ١٢ بارجة حربية و٣ سفن مقاتلة و٣ سفن تجهيز والأسطول البريطاني المكون من بارجتين حربيتين وسفينتي تجهيز.

وهكذا تتكامل أعمدة الطوق الثلاثة في السعي نحو تأمين اجماع استراتيجي

اقليمي، بوجه خطر غير محدد الملامح، ولا المصدر ولا الاتجاه، لكن الثمن عسكرة كاملة للمنطقة. وعلى الطرف الآخر، ثمة رأي يستحق الدراسة، تلخصه افتتاحية صحيفة «الغارديان» البعيدة كل البعد عن محاباة الاتحاد السوفياتي: «ان كثيراً من جهود أميركا الدفاعية مكرس لأمن الخليج... غير أن للاتحاد السوفياتي، في هذا الشأن على الأقل، تصوراً أدق لموقع الخليج في السياسة العالمية... لقد أعلن السيد بريجنيف: ان لدينا آراء مختلفة جذرياً حول كيفية ضمان السلم حقاً في منطقة الخليج وحولها. فبدلاً من استخدام المزيد والمزيد من القلاع الجوية والبحرية والقوات والأسلحة، نقترح ازالة الخطر العسكري عبر اتفاقات دولية. وبفضل الجهود المشتركة وأخذ المصالح المشروعة لكل الأطراف في حسابنا، يمكن أن نخلق جو استقرار وهدوء في هذه المنطقة. ويمكن ضمان حقوق السيادة لدول المنطقة وأمن البحار وخطوط المواصلات الأخرى التي تربطها بالعالم'. ان هذا تصريح يستحق الدراسة، قبل أن يتم رصد بلايين الدولارات»[٣٨].

الجدول رقم (١)*

تطور الانفاق العسكري لبلدان الشرق الأوسط

بالأسعار الثابتة لسنة ١٩٧٣، وأسعار صرف الدولار للسنة نفسها. بملايين الدولارات

(بملايين الدولارات)[١]

البلد / السنة	١٩٥٨	١٩٦٨	١٩٧٦	١٩٧٨	١٩٨٠[٢]
البحرين	—	—	(١٤)	(٢٢)	١٠٠
مصر	(٢٩٣)	٨١٦	٢٩٥٧	١٩٣٣	—
الأردن	(٨٠)	١٧٠	١٢٤	١٦٠	—
الكويت	—	١٠٦	(١٥٣٥)	—	١٠٠٠
لبنان	٢٥	٦٢	٧١	٦٨	—
عمان	—	—	٥٨٤	٤٨٢	٩٠٠
السعودية	—	٤٦٥	٣٩٧٣	٣٦٥٣	٢٠٧٠٠
سوريا	١٠٠	٢٠١	٦١٩	٦٦٢	—
الامارات العربية	—	—	٥٤٤	—	٨٠٠
اليمن الشمالي	—	١٤	(٤٤)	—	١٠٠
جمهورية اليمن الديمقراطية[٣]	—	(٣١)	(٣٢)	(٣٤)	(٥٠٠)
العراق	١٥٠	٤٣٩	(١٢٦١)	٢٤٠٠[٥]	٢٧٠٠
مجموع الشرق الأوسط[٤]	١٢٢٥	٤٤٢٥	١٦٤٩١	١٧٠٤٦	٣٧٩٠٠

* المصدر: World Armament and Disarmament, Yearbook of SIPRI, 1979, London, 1979, p. 40, pp. 34-35. IISS, The Military Balance 1980-1981, Autumn 1980, p. 19. الكتاب السنوي لمعهد استوكهولم الدولي لابحاث السلام (سبري). العمود الأخير عن: الميزان العسكري ١٩٨٠ ــ ١٩٨١.

(١) الأرقام الموضوعة بين أقواس تخمينية.

(٢) هذا العمود غير قابل للمقارنة مع الأعمدة الأخرى، لأنه بالأسعار الجارية ومحتسب على أسس مختلفة.

(٣) الأرقام لليمن الديمقراطية كلها تخمينية وبالأسعار الجارية.

(٤) مجموع هذا العمود أكبر من الفقرات المنفردة لأنه يضم دولاً أخرى.

(٥) الرقم يعود لسنة ١٩٧٩، ومحتسب على الاسعار الثابتة لسنة ١٩٧٨.

الجدول رقم (٢)*
بعض المعطيات عن التسلح في المنطقة

	عدد أفراد الجيش(١)	عدد الدبابات	الطائرات الحربية
اسرائيل	٤٠٠	٣٠٥٠	٥٧٦
مصر	٣٩٥	١٦٠٠	٥٦٣
الأردن	٦٧	٥٠٠	٧٣
العراق	٢٤٢	٢٧٥٠	٣٣٢ ـ ٥٤٢(٢)
العربية السعودية	٤٧	٣٨٠ ـ ٩٠٠(٢)	١٧٨ ـ ١٩٦(٢)
اليمن الشمالي	٣٢	٦٧٥	٤٩
عمان	١٤,٢	ـ	٣٨
الكويت	١٢,٤	٢٨٠	٥٠ ـ ٥٨(٢)
البحرين	٢,٥	ـ	ـ
قطر	٤,٧	٢٤	٤ ـ ١٠(٢)
الامارات العربية	٢٥,١	٣٠	٥٢

* المصدر: الميزان العسكري، مصدر سبق ذكره.
(١) لا يشمل الفنيين المدنيين أو المتعاقدين الأجانب.
(٢) الرقم الثاني يشمل معدات في طور التسليم.

الجدول رقم (٣)*
نسبة الانفاق العسكري الى الناتج القومي الاجمالي لعام ١٩٧٩

البلد	النسبة
ايران	٥,٦
العراق	١٢,٦
الكويت	٨,٤
البحرين	٥,٩
قطر	١٠
الامارات العربية	٦,٧
العربية السعودية	٢١,٩
عمان	٣٤,٤
مصر(١)	٢٥,١
الأردن(١)	١٦,٥
سوريا(١)	١٥,٩

* المصدر: محتسبة على أساس الأرقام الواردة في: الميزان العسكري، المصدر نفسه، عدا البلدان الثلاثة الأخيرة، فقد احتسبت من الكتاب السنوي (لسبري)، مصدر سبق ذكره.
(١) نسب الى الناتج المحلي الاجمالي لعام ١٩٧٧.

الجدول رقم (٤)*
الانفاق العسكري الاسرائيلي

السنة	مليون دولار	للفرد الواحد من السكان (دولار)	نسبة الى الانفاق الحكومي	نسبة الى الناتج المحلي الاجمالي
١٩٧٣	٣٦٤٤	١١٤٦	٦٠,٤	—
١٩٧٤	٣٨٦٩	١١٧٣	٥١,-	—
١٩٧٥	٣٥٥٢	١٠٤٥	٥٠,١	—
١٩٧٦	٤٢١٤	١٢٠١	٥٦,٧	٢٧,٩
١٩٧٧	٤٢٦٨	١١٧٨	—	٢٦,٦

* المصدر: الميزان العسكري، مصدر سبق ذكره.

الجدول رقم (٥)*
أهم مستوردي السلاح في الشرق الأوسط
عام ١٩٧٨، بأسعار ١٩٧٥ الثابتة

	قيمة الاستيرادات بملايين الدولارات	نسبة الى مجموع المنطقة
العراق	١٤٢٣	٢٨
ايران	١٣٩٣	٢١
اسرائيل	١٣٧٧	٢١
العربية السعودية	١٠٧١	١٦
سوريا	٦٢٦	١٠
مجموع الشرق الأوسط	٦٥٨٣	٪١٠٠

* المصدر: الكتاب السنوي (لسبري)، مصدر سبق ذكره.

الجدول رقم (٦)*
تطور صادرات السلاح من أبرز البلدان الرأسمالية[١] (بملايين الدولارات)

البلد / العام	١٩٥٩	١٩٧٨	الحصة من اجمالي صادرات السلاح في العالم خلال فترة ١٩٧٥ ــ ١٩٨٠
الولايات المتحدة	٣٢٦	٥٨٠٠	٪٤٣,٣
بريطانيا	٢٣٩	٦٦٠	٪٣,٧
فرنسا	٦٥	٢٠٠٠	٪١٠,٨
المانيا الاتحادية	٣٤	٨٠	—
اجمالي الصادرات العالمية	١٢٠٣	١٣٩٤٨	٪١٠٠

* المصدر: الكتاب السنوي (لسبري)، مصدر سبق ذكره.

(١) لا تشمل قيمة المباني والانشاءات العسكرية، أو نفقات التدريب والخدمات الاخرى.

(١) *Wall Street Journal,* 16/6/1981.
(٢) *The Guardian,* 15/6/1981.
(٣) Michael Claire, «Une Stratégie de Defence Gbbale pour une Amerique Forte», *Le Monde Diplomatique,* Sep. 1981.
(٤) David Jones, *The American Military Situation for Fiscal Year 1982,* Washington,: US. Ministry of Defence, Dec. 1981.
(٥) James Schlesinger, «A Time of Choice for America», *Fortune,* Feb. 1979.
(٦) Albert Wholesteter, «Half Wars and Half Policies in the Persian Gulf» in *The National Security in the Eighties, from Weakness to Strength* New York, 1980, p. 124.
(٧) «Defending the Gulf», *The Economist,* June 6, 1981.
(٨) Michael Kauffman, «Supremaxy» at Sea: The Race in the Indian Ocean,», *New York Times,* 19,20,21/4/1981.
(٩) Whole Steter, *op.cit.,* pp. 124.126.
(١٠) Quoted from Noam Chomsky, *The Guardian,* June 15, 1981.
(١١) *Ibid.,* p. 164.
(١٢) James Buckley, *Address to the Responsibles of the Aviation Industries Association,* Virginia: US. Ministry of Foreign Affairs, May 21, 1981.
(١٣) القرار الرئاسي رقم ١٣، ١٣/٥/١٩٧٧؛ الاعلان الرئاسي حول سياسة نقل الأسلحة، واشنطن، ١٩/٥/١٩٧٧.
(١٤) Michael Klair, «Une Instrument Essential pour la politique etrangere», *Le Monde Diplomatique,* Jan. 1982.
(١٥) *The 1980 Yearbook of Stockholm,* London: International Peace Research Institute (SIPRI), 1981.
(١٦) SIPRI, *«Arms Trade and the Third World»,* Stockholm, 1971, p. 506.
(١٧) السفير، (بيروت، ٨/٢/١٩٨١.
(١٩) *National Defence,* May — June 1976.
(١٩) A. Kassim Mansour, «The Military Balance in the Persian Gulf: Who Guards the Gulf States from its Guardians?», in *The International Review of Armed Forced,* Nov. 1980.
(٢٠) *Ibid.*
(٢١) *Ibid.*
(٢٢) *Ibid.*
(٢٣) *Ibid.*
(٢٣) *Ibid.,* p. 47, 51.
(٢٤) كلمة لموشي أمرينس أمام مسؤولي صناعات الطيران الأميركية، نشرتها مجلة *Aviation Week* كافتتاحية لها، ١٠/٧/١٩٧٨.
(٢٥) المصدر نفسه.
(٢٦) *The New York Times,* Oct. 18, 1981.
(٢٧) *Times,* April 12, 1976.
(٢٨) A. Kaplioukk, «Israel et le risque de Proliferation Nucleaire dans le Proche Orient», *Le Monde Diplomatique,* July 1981.
(٢٩) *Ibid.*
(٣٠) *The Economist,* June 20, 1981.
(٣١) *Ibid.*
(٣٢) *Newsweek,* March 23, 1981.
(٣٣) *The Economist,* June 6, 1981.
(٣٤) *Ibid.*
(٣٥) *Ibid.*
(٣٦) *MEED,* Oct. 17, 1980.
(٣٧) *The New York Times,* Apr. 19, 20, 1981.
(٣٨) *The Guardian,* June 10, 1981.

القضية الفلسطينية وجدلية الصراع

د. حسام الخطيب

تمهيد

بعد مضي ثلث قرن من الزمان على النكبة الأولى عام ١٩٤٨، وحوالى قرن على البداءة الرسمية للمؤامرة الصهيونية على فلسطين، تبدو القضية الفلسطينية، من خلال منظور شمولي، شديدة التعقيد والتشعب والتداخل، وتبدو خطوط تطورها غير متساوقة على الاطلاق، فهناك خطوط مستقيمة ممتدة كالسهم في مجالي الوعي التنظيري والعمل الدولي، وهناك خطوط متعرجة متكسرة ولا سيما في مجال العمل العسكري، وهناك خطوط متقطعة ومتداخلة لا تكاد تشير إلى اتجاه كخطوط الوحدة الوطنية؛ وهكذا دواليك.

ومن هنا يكاد أي موقف سياسي أو أي تحليل نظري، بشأن القضية الفلسطينية، يثير من الخلاف والإشكال والتساؤل ما يُلقي في روع المراقب الخارجي أنه لا وجود لاتفاق على شيء وأن الاجماع مفقود والاختلاف هو الأصل. وإن هذه الحقيقة وحدها تستدعي اجراء مراجعات شاملة مستمرة لتطورات القضية، وقد لا يكون من شأن هذه المراجعات أن تأتي بالجديد دائماً، ولكنها تفيد حتماً في وضع النقاط على الحروف والإسهام في تكوين نظرة متماسكة إلى القضية يمكن من خلالها أن تقاس المواقف التفصيلية والمسائل الطارئة والاجتهادات المنهمرة كمطر كانون.

أولاً: جدلية الصراع وطبيعة أطرافه

يمكن أن نتصور الصراع العربي الصهيوني على أنه جدلية (دياليكتيك) أو مشروع جدلية بين ثلاثة أطراف هي: الطرف الصهيوني، الطرف الدولي والطرف العربي.

ونعني بالجدلية* هنا الصراع التوالدي، أي التصادم والتداخل والتشابك، بحيث لا تكون نتيجة الصراع من جنس العوامل التي تدخل في الصراع، وانما تكون تركيباً جديداً ناجماً عن حصيلة قوى الأطراف المتصارعة، مختلفاً عما يريده كل طرف من

(*) من الواضح أن كلمة (جدلية) مستخدمة هنا بمعناها العام لا بمعناها الفلسفي الدقيق.

الأطراف المتصارعة وعاكساً مدى التداخل الشديد بين أطراف الصراع وتأثير وضع كل طرف وتطوراته في الطرف الآخر. مثلاً: فكل شقاق أو خلاف عربي ينعكس لصالح الطرف الصهيوني، ولعل أوضح مثل هنا هو خروج مصر السادات من الطرف العربي (لا من معادلة الصراع) وانحيازها إلى الطرف الصهيوني. ذلك أن هذا الخروج لم يؤثر تأثيراً شديداً في الطرف العربي (تأثير سلبي مدمر بالطبع) بل كان له في الطرف الصهيوني تأثير قوي جداً كذلك، ولكنه تأثير ايجابي أعطى الطرف الصهيوني قوة مادية اضافية، ودفقة معنوية، وخلاصاً مؤقتاً من مأزق قاتل. وكذلك أثر هذا الخروج في الطرف الدولي وأحدث زعزعة نسبية في خط تطوره الذي كان متجهاً بوضوح شديد لصالح الطرف العربي.

وبالمقابل، يمكن القول ان الوعي القومي المتصاعد للأقلية العربية التي بقيت في فلسطين عام ١٩٤٨، وبدء اتصالها مع الثورة الفلسطينية وتحركها في سبيل تحقيق هويتها القومية، كل ذلك يؤثر في وضع الطرف الصهيوني ويزعزع الموقف الاسرائيلي من الداخل، ويعطي الطرف العربي قناة جديدة فعالة في الصراع المتعدد القنوات. كذلك محاولات اليسار الفلسطيني والعربي الاتصال بالأقلية اليسارية في اسرائيل ودعمها في أي اتجاه تبديه لمناوأة السلطة الصهيونية كفيلة بأن تحدث شرخاً في البنية الاسرائيلية؛ وذلك بصرف النظر طبعاً عن جوانبها الأخرى التي تجعل كثيراً من الناس يقفون موقف المنكر أو المتشكك منها. كذلك المحاولة الأخيرة التي جرت منذ سنتين للاتصال بالطائفة المغربية في الكيان الصهيوني وتحريضها على المطالبة بحقوقها داخل الكيان الصهيوني وتسهيل عودة أي يهودي من أصل مغربي يرغب في العودة إلى موطنه الأصلي، هذه المحاولة التي تتضمن مخاطر كثيرة ومزالق ظاهرة وخفية، تصلح أيضاً مثالاً لما يمكن أن تؤدي إليه التطورات داخل أي طرف من تأثير في الطرف الآخر أو ــ على الأصح ــ في الطرفين الآخرين.

وكما أن تطورات الصراع على الساحة تترك أثرها البالغ في موقف الطرف الدولي فإن كل تطورات تحدث في الطرف الدولي تترك آثاراً واضحة في معادلة الصراع، بل ان الصدام الحربي في المنطقة غير ممكن إلا حين تكون هناك رغبة بذلك ظاهرة أو مبطنة لدى الأطراف الدولية المهمة أو بعضها.

إن معادلة الصراع العربي الصهيوني متداخلة ومتشابكة بحيث لا ينفع فيها التبسيط، وحساباتها معقدة وذات وجوه متعددة، ويكفي أن نذكر أن القضية الفلسطينية في مراكز الأبحاث مصنفة تحت مئات البنود، وذلك بسبب التداخل الشديد بين أطراف الصراع وكذلك التعددية في ساحات الصراع الحربية والسياسية والاقتصادية والفكرية والحضارية وغيرها.

ومن المأمول أن تتضح حقيقة تداخل الأطراف، بشكل أفضل، من خلال المحاولة التالية لتحديد طبيعة كل طرف من الأطراف الثلاثة الداخلة في الصراع.

بالطرف الصهيوني نعني الصهيونية وأتباعها من اليهود وامتداداتها العالمية والدولة التي تسمي نفسها اسرائيل. وبعيداً عن الاجتهادات والخلافات، يمكن القول ان

الصهيونية تعتبر نفسها ايديولوجية قومية، وتقوم على الزعم بأن اليهود شعب واحد له ماض مشترك وهدف عام واحد وأن فلسطين وما جاورها من الأراضي العربية هي (الوطن القومي اليهودي) الذي ينبغي على جميع يهود العالم أن يتجمعوا فيه.

وبالطبع تبقى الصهيونية كذبة كبيرة واختلاقاً استعمارياً، ولعل أكبر دليل على ذلك هو أن «دولتها» لم تستطع، بعد ثلث قرن من تأسيسها، أن تجذب إليها على الرغم من كل أساليب الترغيب والترهيب ــ أكثر من ربع يهود العالم، وأن أكبر غلاة الصهيونية اليوم هم أكثر الناس بعداً عن التفكير في اسرائيل كوطن قومي لهم.

وبالطرف الدولي نعني ذلك الجانب الفاعل من الأسرة الدولية، وليس هذا الطرف هامشياً ولا عاملاً مساعداً، ولكنه جزء لا يتجزأ من المركب المعقد للصراع العربي الصهيوني. ومن الواضح أن القضية الفلسطينية نبتت أصلاً خارج فلسطين، وفي مكان بعيد جغرافياً عن المنطقة العربية، ومن خلال ظروف لا تمت بصلة قوية لمشكلات هذه المنطقة. ولم يكن في فلسطين حين ظهور المؤامرة في القرن التاسع عشر سوى أقلية ضئيلة لا تكاد تتجاوز نسبة ٥٪ من السكان بحال من الأحوال. وفي الظاهر، كانت خطط استيلاء الصهيونية على فلسطين حلاً لمشكلة أوروبية صرف هي «المسألة اليهودية» أو مشكلة الأقليات الدينية اليهودية في المجتمعات الأوروبية. ولم تكن هذه المشكلة سوى واحدة من المشكلات الأوروبية المختلفة التي حاول الاستعمار الأوروبي حلها خارج أوروبا وعلى حساب شعوب آسيا وأفريقيا وأميركا. ومن هنا، كانت الصهيونية امتداداً عضوياً للحركة الاستعمارية. وكان الاستعمار في القرن التاسع عشر هو الطرف الدولي الفعال. وفيما بعد اختلفت طبيعة الطرف الدولي ودخلت في الأسرة الدولية اتجاهات متعددة أقواها الاتجاه المعادي للامبريالية. وترتب على ذلك تفاوت **موقف** الطرف الدولي حسب تطور تركيبه، ولكن **دور** الطرف الدولي ظل في تصاعد، وهو داخل دخولاً عميقاً في تعقيدات الصراع، وليس بالامكان فهم أية مرحلة من مراحل هذا الصراع دون فهم ضلوع الموقف الدولي فيها. ويكفي ــ على الأقل ــ حقيقة واحدة مفادها أن «اسرائيل» لا يمكن أن تعيش أو تستمر لولا مالها من امتداد دولي. ومن هنا يصر البحث الحالي على اعتبار الطرف الدولي جزءاً أساسياً من معادلة الصراع.

وهناك أخيراً، **الطرف العربي**، والمقصود به الأمة العربية بشعبها الواحد ودولها. وليست فلسطين سوى نقطة البدء في العدوان. وبعيداً عن المناقشات الايديولوجية والنظرية، يمكن لأي مراقب محايد أن يلاحظ أن تطورات القضية الفلسطينية أثبتت أن قضية فلسطين هي أخطر القضايا القومية التي تواجه الأمة العربية، وآثارها على مستقبل القضية القومية أعمق من جميع التحديات التي واجهت حركة التحرر العربي حتى الآن. ذلك أن المخططات الصهيونية الامبريالية تشكل في الأصل تهديداً للوجود العربي والتقدم العربي والمستقبل العربي.

واذن لا يصح النظر إلى القضية الفلسطينية على أنها الشعب العربي الفلسطيني وحده، أو قضية الدول المجاورة لفلسطين، أو قضية دول المواجهة وحدها، أو قضية قطر عربي دون قطر، وانما هي قضية الأمة العربية بأجمعها. وليس ذلك فقط لأن العرب أبناء أمة واحدة تشترك في وحدة المصير القومي وما يصيب أي قطر من أقطارها لا بد أن يؤثر

في قضية وجود الأقطار الأخرى ومستقبلها، بل كذلك لأن الخطر الصهيوني يهدد جميع أقطار الوطن العربي، إما مباشرة عن طريق العدوان المسلح والتوسع، وإما بشكل غير مباشر عن طريق بسط النفوذ السياسي أو السيطرة الاقتصادية والاستغلال. وقد تأكد هذا الخطر الصهيوني من خلال حلقات التوسع ابتداء من عام النكبة (١٩٤٨) حتى عام العدوان الثلاثي (١٩٥٦) حتى عام العدوان الأكبر (١٩٦٧)، حتى مسلسل الاعتداءات الاسرائيلية على لبنان منذ عام ١٩٦٩، حتى الغارة الجوية على المفاعل الذري العراقي في شهر حزيران (يونيو) عام ١٩٨١؛ حتى الغارة الوحشية على المناطق السكنية في بيروت يوم ١٩٨١/٧/١٧.

ومرة أخرى، ليست المسألة ايديولوجية أو معتقدية فحسب بل هي مسألة واقعية وحيوية، والصهيونية تعدّ الوطن العربي كله مجالها الحيوي وعدوها الذي تخطط للسيطرة عليه.

واذن، سوف يجري الحديث عن الطرف العربي بوصفه كلاً متكاملاً، وإن كانت ضرورات الدقة التاريخية والاعتبارات الحيوية تحتم التركيز على الدور الخاص للشعب العربي الفلسطيني من خلال الاطار العربي العام.

ثانياً: مرحلة ما قبل النكبة

١ ــ الطرفان الصهيوني والدولي: تطابق وتحالف

وليس من قبيل المصادفة أن يذكر الطرف الصهيوني في أول المعادلة بل أن هذا الترتيب مستقى من التطورات التاريخية للصراع ومبني على أسس سوف تتضح من خلال البحث إن كانت غير واضحة في ذهن أي من الناس. لقد كان الطرف الصهيوني هو الذي هيأ المؤامرة على فلسطين وأعد لها عدتها وتعامل مع الطرف الدولي (الاستعمار الاستيطاني) على هذا الأساس وعقد معه التحالفات والمواثيق، وحين استوى الأمر ونضجت «الطبخة»، جرى تصدير المؤامرة بأكملها إلى المنطقة التي تخصها، إلى فلسطين والشرق العربي. فاذن كان التحضير للصراع يدور أصلاً في أوروبا، في الخارج، وكان الطرف المعني أصلاً بالموضوع، وهو الطرف الفلسطيني بالمعنى الضيق والطرف العربي بالمعنى الواسع غافلاً عن الموضوع، ولم يدخل معادلة الصراع إلا في وقت متأخر، ومن الناحية التاريخية الخالصة كان دخوله بعد فترة واضحة من استواء المؤامرة، فحين عقد مؤتمر بال مثلاً لم تكن على الخارطة السياسية للعالم أية دولة عربية مستقلة. أما من ناحية الفعالية فقد كان دخوله في المعادلة ضعيفاً جداً ولم يتبين تأثيره إلا في وقت متأخر، وذلك بسبب معاناته من عوامل التخلف والاستغلال الداخلي.

وهكذا كان الطرف الصهيوني هو العنصر الأول زمناً وفعالية، ويمكن القول انه بدأ بالاعداد لـ«المشروع الصهيوني» قبل حوالى قرن من دخول الطرف الغربي في الصراع. ومع الطرف الصهيوني كان هناك أيضاً الطرف الدولي الذي كان على صلة كبيرة بالموضوع منذ البدء. وقد كان هناك تعامل قوى وتعاون يصل إلى درجة التطابق بين الطرف الصهيوني والطرف الدولي الذي كان يعني في القرن التاسع عشر «الاستعمار الاستيطاني ــ الكولونيالي» حصراً. واذن لم يكن هناك دياليكتيك في منشأ الصراع بل كان

هناك تعاون وتعامل بين الطرفين الصهيوني والدولي ابتدأ في وقت مبكر من القرن التاسع عشر وانسحبت آثاره حتى قيام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨. وهذا ما يفسر لنا مقدرة الصهيونية على التوصل إلى جميع أهدافها ــ بل ربما إلى أكثر مما خططت له ــ حتى منتصف القرن العشرين على الأقل، بل حتى عدوان حزيران (يونيو)؛ ذلك أن غياب أحد أطراف المعادلة الرئيسية عن ساحة الصراع سمح للطرفين الآخرين بأن يضعا موضع التنفيذ كل مايتفقان عليه دون أن يعيق عملهما عائق، ولا سيما لأن الطرف الدولي لم يكن متعدداً كما هو شأنه اليوم، بل كان مقصوراً على أوروبا الاستعمارية، وهذا ما يسمح لنا باستعارة مصطلح «المثلث المكسور» (The Broken Triangle) من الكاتب الايرلندي ايرسكين تشايلدرز (Erskine Childers) لنقول ان الصراع ظل، حتى فترة أخيرة، مثلثاً مكسوراً قائماً على ضلعين، أما الضلع الثالث، وهو الضلع العربي، أي الضلع الأساسي والأهم، فكأنه لم يكن موجوداً. وهكذا أدى تحالف الصهيونية مع الاستعمار إلى أن تكون الجدلية ناقصة، وحتى عام ١٩٤٨ على الأقل كان ما يريده الطرفان الصهيوني والاستعماري هو الذي يتحقق على أرض الواقع ولم تكن ردود فعل الطرف العربي لتؤثر في ايقاف المخطط الصهيوني الاستعماري. بل أن الأمر هو أغرب من ذلك بكثير. فحتى بعد أن دخل الطرف العربي في الصراع ابتداء من العقد الثالث من القرن العشرين ظل عديم التأثير بل كانت الحصيلة الفعلية لتدخله لصالح الطرف الصهيوني لأن دخوله كان ضعيفاً وبالتالي كان تأثيره معكوساً، وكانت النتائج تأتي دائماً مخيبة لآماله. ومن أجل ايضاح هذه النقطة، لنتذكر ما حدث عام ١٩٤٨؛ إذ حدثت معارك بين الفلسطينيين وبين الصهيونيين وكان المجاهدون الفلسطينيون يعملون حسب طاقتهم من أجل ابطال قرار تقسيم فلسطين الذي أقرته هيئة الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٧، أي أن حجم الخطر المرحلي في ذلك الحين كان قرار التقسيم، أي قيام الكيان الصهيوني على تلك الرقعة من الأرض الفلسطينية التي خصصت للصهيونيين في قرار التقسيم الذي رفضه العرب رفضاً قاطعاً.

ومن المعروف أن الطرف العربي تدخل، عام ١٩٤٨، تدخلاً قاطعاً سافراً عن طريق خمسة جيوش رسمية هي الجيش المصري والجيش السوري والجيش العراقي والجيش العربي (الأردني) والجيش اللبناني أيضاً. كما كانت هناك فصائل نظامية أو متطوعة من دول عربية أخرى في جيش الانقاذ. وكانت هناك معارك وخيانات وأخطاء. كما كانت هناك بطولات شعبية وتضحيات كبرى. ولكن ماذا كانت النتيجة؟ استطاع الصهيونيون الاستيلاء على كل الأرض المخصصة لهم في قرار التقسيم؛ وذلك بالاضافة إلى النقب والجليل ومناطق أخرى من فلسطين. وهكذا بنتيجة التدخل غير المتكافىء، قامت الدولة الصهيونية على ٧٧,٤٪ من أراضي فلسطين (٢٠٧٠٠ كم٢) أي بزيادة ٢١٪ على الأراضي التي خصصت لها وفق قرار التقسيم؛ وذلك بالاضافة إلى خروج ٧٥٠ ألف عربي فلسطيني من ديارهم، وتحولهم إلى لاجئين في الأقطار العربية ومناطق أخرى من العالم. بل أكثر من ذلك، كشفت الوثائق التاريخية أن الصهيونيين كانوا يدركون أن تدخل الطرف العربي في الصراع بطريقة ضعيفة هو فرصة لتوسيع مخططاتهم الاغتصابية. وفي موضوع أحداث عام ١٩٤٨، كشفت الوثائق عن أن بن ــ غوريون رئيس وزراء الكيان

الصهيوني آنذاك، عرض على مجلس الوزراء الاسرائيلي خلال الحرب خطة لاحتلال فلسطين بأكملها، ولكن وزير خارجيته موشي شاريت عارض الخطة بناء على ما يعرفه من الموقف الأميركي، ولعب دوراً مع الأميركيين لإيقاف هذه الخطة. ولم تكن المعارضة الأميركية بالطبع متعلقة بمبدأ التوسع ولكن بتوقيته.

ومغزى ذلك كله أنه حينما حصل اتفاق بين الطرف الصهيوني والطرف الاستعماري لم تكن هناك صعوبة في تنفيذه حتى وقت متأخر من مراحل الصراع، وربما ــ على وجه التحديد ــ حتى حرب تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣ التي كان معناها الأساسي ــ من خلال وجهة النظر التي يطرحها البحث الحالي ــ استواء معادلة الصراع وانتفاء امكانية تفرد الطرف الصهيوني بإملاء ارادة وحيدة الجانب، وذلك نتيجة لبروز الطرف العربي عنصراً أساسياً من عناصر جدلية الصراع؛ وهذا هو المعنى الجوهري للنصر الذي حققه العرب في حرب تشرين.

وهكذا نرى أن جدلية الصراع في مرحلة ما قبل الدولة لم تكن مكتملة حتى منتصف القرن العشرين؛ وذلك بسبب الظروف التاريخية الصعبة التي كان يمر بها الوطن العربي ولا سيما من ناحية التخلف الشامل وسيطرة الرجعية، مما مكن الصهيونيين، بالتطابق الكامل مع الطرف الدولي الاستعماري، من تحقيق برنامجهم باستيطان فلسطين واقامة الدولة الهجينة فوق أرضها. وكان خط التطابق الصهيوني الاستعماري في تصاعد مستمر ولا سيما من خلال الحلقات التالية:

١ ــ تصريح بلفور في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٧ الذي كان أول وثيقة رسمية تصدر بتأييد اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين.

٢ ــ صك الانتداب الذي صدر عن عصبة الأمم عام ١٩٢٢ والذي تضمن الزام بريطانيا بتطبيق تصريح بلفور.

٣ ــ مخطط التعاون العملي بين حكومة الانتداب البريطاني والوكالة اليهودية خلال فترة الانتداب.

٤ ــ قرار تقسيم فلسطين في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٧ الذي صدر عن هيئة الأمم المتحدة.

٥ ــ اعتراف الدول الكبرى وعدد كبير من دول العالم باسرائيل بعد اعلان قيامها في ١٥ أيار ١٩٤٨.

وهكذا كان سقوط فلسطين مؤامرة صهيونية استعمارية. وسوف تكشف الأحداث المقبلة أن المؤامرة الصهيونية الاستعمارية تتجاوز فلسطين إلى استهداف الوجود العربي بأكمله.

٢ ــ الطرف العربي

ان الحديث عن ضعف تأثير الطرف العربي في جدلية الصراع حتى قيام الدولة الصهيونية لا يعني أبداً الانتقاص من النضال الدامي المرير الذي خاضته الأمة العربية ضد الصهيونية منذ نهاية القرن الماضي، ولا من التضحيات الجسام التي قدمها الشعب العربي، بوجه عام، والشعب الفلسطيني، بوجه خاص، على امتداد سنوات الصراع. ولكن

حين يقيس الانسان الأمور بنتائجها فإنه يحس أن هذا النضال العظيم كان يعاني من فجوات أدت إلى حدوث الكارثة، بل إلى استمرارها وتضخمها. ولا بد من مواجهة هذه الثغرات بشجاعة لكي يستمد الانسان من فهمها المقدرة على مواجهة تحديات المستقبل.

ومن خلال الايمان المطلق بأن القوة المعنوية والمادية بيد العرب وأن انتصارهم على العدوان يرقى إلى درجة الحتمية، سوف يتم استعراض سريع لموقف الطرف العربي وردود فعله فيما أسميناه بالجدلية العرجاء الناجمة عن غياب تأثيره العملي المنشود في مجرى الأحداث.

(أ) قبل الحرب الأولى وحتى الحرب الثانية:

حين بدأت المؤامرة الصهيونية على فلسطين في القرن التاسع عشر كانت معظم أقطار الشرق العربي خاضعة لسلطان الدولة العثمانية واستبدادها، ووقعت مصر والسودان في قبضة الاستعمار البريطاني في نهاية القرن التاسع عشر، ولم تكن أقطار المغرب العربي أسعد حالاً، إذ غزتها الجيوش الفرنسية في وقت مبكر وأخذت سلطات الاحتلال فيها تعمل على طمس طابعها العربي ومسح اللغة العربية وتحويلها إلى منطقة استيطان وإلى قاعدة اقتصادية عسكرية ملحقة بفرنسا.

ومن الناحية الاجتماعية كان الاقطاع مسيطراً سيطرة تامة وكانت نسبة الأمية مرتفعة جداً حتى أن معرفة القراءة والكتابة كانت ظاهرة نادرة في الريف، وكان الفلاحون يعيشون في شروط رهيبة من البؤس والاضطهاد ولم يكن هناك سوى وجود محدود للطبقة العاملة بسبب اعتماد البلاد اعتماداً كاملاً على الاقتصاد الزراعي.

ومن خلال هذه الظروف، استطاعت الصهيونية أن تتسلل إلى فلسطين وأن ترسل إليها أفواجاً من المهاجرين كانوا يزدادون بالتدريج وينتقون الأراضي الخصبة والمواقع الهامة ليقيموا عليها مستوطناتهم المحصنة ويخلقوا واقعاً جديداً يستندون عليه لاقامة الدولة الصهيونية فيما بعد. وكان على الطليعة العربية في ذلك الحين أن تناضل ضد الاستبداد العثماني وضد المطامع الاستعمارية وضد التخلف والجهل وضد الغزوة الصهيونية الوافدة. وأتت فترة الانتداب البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى لتلقي على كاهل الطليعة عبئاً نضالياً جديداً وتضعها في حيرة بشأن أولويات النضال. كما أن التغيرات الاجتماعية المفاجئة التي واكبت مجيء البريطانيين أحدثت بلبلة في القيادات والولاءات الشعبية. وقد بذل البريطانيون كل جهد ممكن لتمزيق الحركة الوطنية مستعينين بالاقطاع وزعماء الأسر التقليدية والمنتفعين الجدد من وضع الانتداب. وفي أثناء ذلك، لم يكفّ الشعب العربي الفلسطيني عن النضال العنيد وتعاقبت الانتفاضات والثورات منذ سنة ١٩٢٠ وكان أبرزها ثورة البراق عام ١٩٢٩ وثورة القسام (١٩٣٢ ــ ١٩٣٥)، والثورة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٣٦ التي استمرت حتى عام ١٩٣٩، وانتهت على أثر نداء وجهه ملوك الدول العربية ورؤساؤها مقابل وعود بريطانية ملتوية مع أن فترة انشغال بريطانيا بالحرب العالمية الثانية كانت أفضل فترة لاستمرار القتال والحصول على المكاسب السياسية.

وكان ميزان القوى، في هذه الفترة، مختلاً اختلالاً شديداً لغير صالح الطرف

العربي، ولم تستطع حصيلة النضال الفلسطيني، على الرغم من نبل التضحيات، أن تؤثر في معادلة الصراع، وسرعان ما أصبحت الطريق معبدة لوقوع الكارثة عام ١٩٤٨.

(ب) الطرف العربي خلال الحرب وحتى النكبة:

في حين استفاد الصهيونيون من فرصة الحرب لم يحسن الطرف العربي الاستفادة من هذه الفرصة في مجال مجابهة الكارثة المتوقعة، ولكن الحرب نفسها أسفرت عن نتائج مهمة منها حصول سوريا ولبنان على استقلالهما وجلاء الجيوش الفرنسية عنهما عام ١٩٤٦، ومنها أيضاً تشديد نضال الجماهير العربية في المشرق العربي ضد تحالف الاقطاع والبرجوازية وظهور طليعة الثورة التحررية العربية التي وعت قضية فلسطين منذ الأربعينات وأخذت تمارس نشاطها في نشر الوعي القومي والتقدمي وتنبيه الجماهير العربية إلى الخطر الصهيوني على فلسطين والأمة العربية.

أما المغرب العربي، فقد كان معزولاً عن المشرق ومنهمكاً في مقاومة الاستعمار الفرنسي ومشاريعه الاستيطانية. وعلى الرغم من تنبه الجماهير العربية المبكر للخطر الصهيوني فإن الحكومات العربية لم تفعل شيئاً في سبيل الاعداد للمعركة المتوقعة مع العدو، بل خلاف ذلك لعبت دور المهدىء للتحرك الشعبي العربي داخل فلسطين وخارجها.

كما أن ظروف الاحتلال الصعبة لم تسمح للشعب العربي الفلسطيني أن يهيىء نفسه إلا حين بدأت بريطانيا بتخفيف قبضتها بعد اعلان قرار التقسيم. وعلى الرغم من تضحيات الأفراد ونشاط «اللجان القومية» التي شكلت على عجل في مختلف المناطق فإن قوات «الجهاد المقدس» المؤلفة من متطوعين فلسطينيين لم تكن في وضع يؤهلها لمقارعة القوات الصهيونية المدربة والمسلحة وان كانت أبدت ضروباً رائعة من التضحيات ولا سيما في منطقة القدس بقيادة الشهيد عبدالقادر الحسيني. وفيما بعد رفدت قوات «الجهاد المقدس» بقوات «جيش الانقاذ» الذي شكلته الجامعة العربية على عجل وضم متطوعين من مختلف أقطار الوطن العربي بما في ذلك المغرب العربي.

وكانت قوات الانقاذ تشكو من ضعف التدريب والتسليح والتجانس، ومع ذلك خاضت معارك ضارية ضد القوات الصهيونية وقدمت تضحيات جسيمة، جسدت ثانية التيار النضالي العريق القائم على امتزاج الدم العربي فوق تراب فلسطين.

وحين دخلت الجيوش العربية النظامية إلى فلسطين، لم يكن حظها أوفر من حظ جيش الانقاذ في التأثير في مجرى الصراع؛ وذلك لأسباب سياسية وعسكرية يرجع معظمها إلى ثلاثة عوامل أساسية:

١ ــ ارتباط قيادات معظم هذه الجيوش بالاستعمار، كما كان الشأن بالنسبة للجيوش الأقوى والأقدم عهداً مثل الجيشين العراقي والمصري. وكان الجيش العربي (الأردني) بوجه خاص تحت إمرة ضباط بريطانيين.

٢ ــ حداثة عهد بعض الجيوش وضعف امكاناتها كالجيش السوري، مثلاً، الذي دخل الحرب بعد سنتين من الاستقلال.

٣ ــ تَبعية معظم الأنظمة للاستعمار بشكل مباشر أو غير مباشر.

وهكذا لم يستطع التدخل العربي أن يوقف الكارثة أو يقلل من حجمها. ولكن الكارثة كان لها نتائجها في طبيعة الطرف العربي؛ إذ وضعت الجماهير العربية أمام تحدي التغيير من الداخل ومهدت الطريق لتصاعد دور حركة التحرر العربية وبروز قوى سياسية واجتماعية جديدة تكون لها نظرتها الأكثر جدية في معادلة الصراع.

ثالثاً: مرحلة ما بعد النكبة

لم تكن نكبة عام ١٩٤٨ حدثاً مفاجئاً في جدلية الصراع، ولم تكن كذلك تحولاً بسيطاً في التاريخ الحديث للأمة العربية، بل كانت حداً فاصلاً بين عهدين، وتغيرت بها طبيعة كل طرف من الأطراف، حتى أنه ليس من قبيل المغالاة التأكيد على أنه «لا شيء بعد النكبة يشبه ما قبلها».

ومن خلال المنطق الخاص بجدلية الصراع العربي الصهيوني فقد تغير كل شيء، ربما باستثناء بند واحد ظل ثابتاً في المعادلة وهو التطابق الصهيوني الاستعماري. أما ما عدا ذلك، فقد طرأت تغيرات جذرية على الأطراف الثلاثة، مما صعد بمستوى الصراع إلى درجات لم يعرفها من قبل، فقد أصبحت الصدامات حروباً بين دول، وأصبحت الخسائر البشرية والمادية والمعنوية ذات أبعاد كبيرة جداً، وتعمق البعدان الدولي والعالمي للصراع بحيث أصبح من غير المستهجن التخوف من أن تكون منطقة الشرق العربي هي الصاعق الذي يهدد بتفجر الوضع الدولي، وأخيراً اتضحت أكثر من أي وقت مضى طبيعة الصراع، وهي كونها قضية موت أو حياة بالنسبة للوطن العربي بأكمله لا بالنسبة لفلسطين وشعبها العربي فحسب.

ولقد مضى الآن ثلث قرن ويزيد على تطورات الصراع، وكانت هذه الحقبة حافلة بالتطورات الدرامية من عسكرية وسياسية واقتصادية، وليس من الممكن استقصاء كل هذه التطورات في المقدمة الحالية، ليس بسبب ضيق المجال فحسب بل كذلك خوفاً من ضياع المعنى المقصود من العرض الحالي. ولذا سيجري تحليل وضع كل من الأطراف الثلاثة بمنتهى الاختصار، ومن خلال زاوية واحدة فقط هي اتجاه جدلية الصراع نحو الاكتمال، مما يعني بالدرجة الأولى تناقص مقدرة الطرف الصهيوني الاستعماري على تحقيق مخططاته.

١ ــ الطرف الصهيوني

بعد مضي ثلث قرن على قيام الكيان الصهيوني يستطيع الباحث اليوم أن يقول باطمئنان ان «اسرائيل» أخفقت في أن تكون تجسيد الحلم الصهيوني القديم. ان غلاة الصهيونيين اليوم يؤكدون على هذه الحقيقة بل أنهم يندبون اسرائيل وما تمثله من هزال داخلي ومن صورة بشعة للغطرسة الناجمة عن الشعور بالضعف.

ومن الثابت أن نمو الدولة الصهيونية أتى بنسب أضعف بكثير مما خطط له المشروع الصهيوني ذو الجوانب البشرية والاقتصادية والسياسية والعسكرية. ولنحاول أن نستعرض المسألة من خلال هذه الجوانب.

(أ) المشروع البشري:

لقد كانت الهجرة دائماً الهاجس الأول لزعماء الصهيونية، وهي الحصان الأساسي

الذي تراهن عليه الصهيونية لأنه «الشرط اللازب» (Sine quanon) الذي بدون تحقيقه لا مجال للحديث عن المخططات الأخرى. وقد جاء في تصريح للدكتور غولدمـــان عام ١٩٨٠، وهو عضو طاقم التخطيط الفكري التابع للوكالة اليهودية ما يلي:

«إذا نضب ينبوع الهجرة فلن نستطيع الحفاظ على الدولة، حتى ولو عقدنا تحالفاً سلمياً مع كل جيراننا. ان المحيط العربي سيبتلعنا ولن يترك لنا أثراً».

وتدل المؤشرات على أن هذا الحصان الذي لا استمرار للصهيونية بغير وجوده هو حصان كسيح وعاجز عن حمل عبء المخطط الصهيوني الاستعماري المنوط به. وحتى يفهم الانسان مأزق الهجرة اليهودية على حقيقته يجب أن يتناوله من خلال الزوايا التالية:

١ ــ **نسبة عدد يهود اسرائيل إلى نسبة سكان الوطن العربي، أي نسبة ثلاثة ملايين إلى ١٦٠ مليوناً***: وهنا من السهل أن يستنتج الانسان أنه مهما بلغ من شأن الكيان الصهيوني فإن أمله معدوم في الاستمرار بطبيعته الحالية. وكما ذكر جون دايفز في كتابه «السلام المراوغ» فإن اسرائيل لكي تستمر يجب أن تتخلى عن طبيعتها الصهيونية، وفي هذا إلغاء لمسوِّغ وجودها.

٢ ــ **نسبة عدد يهود اسرائيل إلى يهود العالم**: ذلك أن فكرة قيام اسرائيل مرتبطة بمسألة استيعاب يهود العالم. واذا قبلنا الاحصاءات الصهيونية التي تقدر عدد اليهود في العالم بخمسة عشر مليوناً وجدنا أن اسرائيل، خلال ثلث قرن، استوعبت خمس هؤلاء فقط، وأن خط استيعابهم في تراجع مستمر. وإذا كان الكيان الصهيوني قد حقق قفزة في الهجرة خلال العقدين التاليين لقيام الدولة فإن نسبة الهجرة أخذت تنخفض ابتداء من السبعينات وبرزت مقابلها هجرة خارجة حتى أن الهجرتين تعادلتا في بعض السنوات، ومعنى ذلك أن اسرائيل، كمشروع بشري، آخذة بالتجمد لأنها تعتمد على النسبة الضعيفة للزيادة الطبيعية بين اليهود.

وإذا أخذنا عام ١٩٨٠ مقياساً للمشروع البشري الاسرائيلي نستطيع القول ان مشروع الهجرة اليهودية متجه إلى الافلاس. ويفيد تقرير نشرته جريـدة «دافار» في ١٩٨٠/١/٢٤ أن هجرة اليهود **انخفضت** حسب المعدلات التالية بالمقارنة مع الفترة نفسها من عام ١٩٧٩:

ــ من الاتحاد السوفياتي بنسبة ٤٨ ٪.
ــ من جنوب أفريقيا بنسبة ٦٤ ٪.
ــ من الأرجنتين بنسبة ٢٦ ٪.
ــ من فرنسا بنسبة ١٦ ٪.
ــ من الولايات المتحدة بنسبة ٢٥ ٪.

وعلى الرغم من أن بعض الظروف السياسية في بلدان العالم قد تؤدي إلى موجات هجرة يهودية جديدة ولكن خط هذه الهجرة كما هو واضح غير متجه إلى اسرائيل. فمثلاً

(*) يفيد آخر احصاء نشره المكتب المركزي للاحصاء في اسرائيل (تشرين الأول ١٩٨١) أن عدد سكان اسرائيل بلغ حتى أول تشرين الأول (اكتوبر) ثلاثة ملايين وتسعمئة وثمانية وستين ألفـاً ٣,٩٦٨,٠٠٠ منهم ٣,٣١٥,٠٠٠ يهودي و ٦٥٣,٠٠٠ غير يهودي أي عربي.

تشير المصادر الاسرائيلية إلى أنه غادر ايران بعد الثورة ٦٥ ألف يهودي، وصل منهم إلى اسرائيل ١٥ ألفاً فقط وهاجر الباقون إلى مناطق أخرى من العالم، ولكن لم يبق من المهاجرين إلى اسرائيل سوى بضع مئات ونزح الآخرون إلى الخارج كما نزح أقرانهم[١]. كما تشير آخر نشرة للمكتب المركزي للاحصاء في اسرائيل أن عدد سكان اسرائيل ازداد في العام الماضي، من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٠ إلى الشهر نفسه عام ١٩٨١، بمقدار ٤٩ ألف نسمة، منهم ألفان فقط من خلال ميزان الهجرة[٢].

٣ ــ **نسبة عدد اليهود إلى عدد العرب في فلسطين المحتلة**: منذ بدء المشروع الصهيوني طمأن اليهود أنفسهم أنهم سيأخذون أرضاً بلا شعب، وظلت هذه الأكذوبة سارية حتى أن تشرشل، حين زار فلسطين عام ١٩٣٣، استغرب وجود معارضة عربية فلسطينية للمخططات الصهيونية الاستعمارية. وفيما بعد، عمل الصهيونيون، بتخطيط منظم، من أجل اخراج العرب من فلسطين واستخدموا أبشع الأساليب في سبيل ذلك ونجحوا إلى حد بعيد.

ولكن العرب القليلين الذين تشبثوا بأرضهم، عام ١٩٤٨، أصبحوا الآن بعد ثلث قرن يشكلون تهديداً ديمغرافياً لاسرائيل، وقد كان هذا الأمر هاجساً مقلقاً لغولده مئير قبل موتها. وفيما يلي تطور تكاثرهم حسب المصادر الاسرائيلية:

في عام ١٩٤٨	١٦٠ ــ ١٧٠	ألف نسمة
في عام ١٩٥٢	١٧٩,٣٣٠	ألفا (أي ١١ في المئة من مجموع السكان)
في عام ١٩٦٥	٢٣٤	ألفا
في عام ١٩٧٥	٥٣٧	ألفا
في عام ١٩٧٩	٦٢٣	ألفا
في عام ١٩٨١	٦٥٣	ألفا

وتدل هذه الأرقام على أنهم تضاعفوا أربع مرات خلال ثلث قرن. وتعتبر نسبة تكاثرهم من أعلى النسب في العالم (٥,٩٪)، في حين أن نسبة تكاثر اليهود من أدنى النسب؛ إذ لا تتجاوز ١,٧٪[٣]. ومن الواضح أن عرب عام ١٩٤٨ يشكلون وحدهم خطراً ديمغرافياً على اسرائيل فكيف إذا حسب إلى جانبهم سكان الضفة الغربية والقطاع الذين يقدر عددهم بمليون ونصف نسمة؛ وكيف إذا أضيف إلى هؤلاء مليونا فلسطيني من المشردين في البلاد العربية والأجنبية.

وتدل تصريحات زعماء العدو أنهم يحسبون حساباً كبيراً لمستقبل الصراع الديمغرافي وأكثر ما يزعجهم الازدياد المطرد في تشبث عرب عام ١٩٤٨ بهويتهم القومية وتفاعلهم مع الثورة الفلسطينية. ولو أحسن العرب الاستفادة من هذا العنصر لكان هؤلاء الصامدون هم اللغم الذي يفجر اسرائيل من الداخل.

(ب) المشروع الاقتصادي:

ان الاستعمار، في جوهره، مشروع اقتصادي، ولكن يبدو أن المشروع الصهيوني حتى الآن عجز عن تحقيق هذه المقولة. وقد حاول الصهيونيون أن يخفوا العجز

الاقتصادي بأشكال الدعاوات المختلفة، ولكن مواصفات الاقتصاد الاسرائيلي تدل على أنه مشروع غير رابح بل هو عالة مستمرة على أصحابه. وفيما يلي بعض صفات هذا الاقتصاد.

١ ــ انه اقتصاد زراعي صناعي أهم زراعة فيه الحمضيات وأهم صناعة هي الماس. وفيما عدا ذلك لم تصب محاولات توسيع الاقتصاد نصيباً كبيراً من النجاح. وتشير الدلائل إلى أن صناعة الماس وقعت ابتداء من النصف الثاني من عام ١٩٨١، في أزمة خانقة.

٢ ــ انه اقتصاد تابع للمتطلبات العسكرية؛ وهي متطلبات ملحة بالنسبة لخطط الكيان الصهيوني. وقد جرت محاولات كثيرة للاستفادة من الصناعة الحربية الاسرائيلية في تدعيم الاقتصاد، ولكن هذه المحاولات تبقى أسيرة اعتبارات الصناعة الحربية الأميركية، إذ تستمد منها القوة والضعف.

٣ ــ يدين الاقتصاد الاسرائيلي باستمراره إلى عاملين غير عاديين:

الأول: سلب الاسرائيليين لأراضي الفلسطينيين وممتلكاتهم وكذلك غنائم الحروب المختلفة.

الثاني: المعونات الأوروبية والأميركية واليهودية.

والعامل الثاني خطير جداً لأنه أولاً يدخل في صلب البناء الاقتصادي الاسرائيلي حتى أن الموازنات الاسرائيلية تبنى على أساس الهبات والمعونات الخارجية، وثانياً لأن اسرائيل تزداد اعتماداً على المعونات سنة بعد سنة.

وتعد اسرائيل، في العالم المعاصر، مثالاً فريداً للدولة التي تعيش على المعونات، وبالتدريج تصبح تكاليف تثبيت اسرائيل مرهقة للامبريالية. وفيما يلي بعض الاحصاءات:

ــ بلغت المعونات المتدفقة على اسرائيل حتى أول سنة ١٩٧٢ أحد عشر مليار دولار.

ــ ارتفعت مساعدات الولايات المتحدة إلى اسرائيل من معدل ٥٠٠ مليون دولار سنوياً، خلال الستينات، إلى ١,٨٧٥ مليون دولار عام ١٩٨٠.

ــ بلغت ديون اسرائيل الخارجية حداً شبه خيالي. ففي عام ١٩٧٢، بلغت ٤٢٠ مليون دولار، وفي عام ١٩٧٤ قفزت إلى ٥,٥ مليون دولار، وفي عام ١٩٨٠ بلغت ١٧ مليار دولار.

٣ ــ يتصف الاقتصاد الاسرائيلي بارتفاع متزايد في نسبة التضخم التي بلغت عام ١٩٨٠ حسب التصريحات الرسمية ١٦٠ ٪، ويورد تقرير وزارة الخارجية الأميركية «حول حقوق الانسان في الدول التي تتلقى مساعدات أميركية» لعام ١٩٨٠ الجدول المثير التالي لارتفاع تعرفة الأسعار:

١٩٧٨	٤٨ ٪.
١٩٧٩	١١١ ٪
١٩٨٠	١٤٠ ٪

وهذا ما يجعل الحياة اليومية جحيماً لا يطاق، ويعد ذلك أحد أسباب الهجرة الخارجية.

٤ ــ تزداد تبعية الاقتصاد الاسرائيلي للاستعمار سنة بعد سنة، ويرتبط ارتباطاً مباشراً بالولايات المتحدة ويظل تحت رحمة اقتصادها ومتطلباتها.

٥ ــ يعاني الاقتصاد الاسرائيلي من الحصار الاقتصادي العربي ومن ضيق أسواق التصدير. ومن هنا كان تطبيع العلاقات بين النظام المصري واسرائيل نافذة انقاذ جديدة يخشى إذا توسعت أن تحدث بعض الانفراج في الأزمة الاقتصادية الخانقة في الكيان الصهيوني.

وقد يقال ان كثيراً من الدول تعاني من الصعوبات نفسها، وهذا صحيح، ولكن اسرائيل مشروع اقتصادي بالأصل وليست دولة طبيعية، وحياتها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمدى نجاح اقتصادها، ويكفي أن يذكر الانسان أن الأزمة الاقتصادية تسبب ضآلة الهجرة الوافدة وازدياد الهجرة الخارجية أي تضرب الدولة الصهيونية في صميم وجودها.

(ج) المشروع السياسي والاجتماعي:

تتكون الدولة الصهيونية من مهاجرين ينتمون إلى أكثر من ١٢١ بلداً ويتكلمون أكثر من ثلاثين لغة، ويتوزعون في انتماءاتهم السياسية توزعاً شديداً، ويجب ألا تخدعنا قائمة الانتخابات الاسرائيلية الأخيرة التي جرت في نهاية شهر حزيران (يونيو) ١٩٨١، وكان توزعها على النحو التالي:

التجمع أو الحزب	عدد المقاعد في الكنيست التاسعة ١٩٧٧	عدد المقاعد في الكنيست العاشرة ١٩٨١
الليكود	٤٣	٤٨
التجمع العمالي (المعراخ)	٣٢	٤٧
الحزب الديني الوطني (المفدال)	١٢	٦
أغودات اسرائيل	٥	٤
الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة (راكح)	٥	٤
حركة تراث اسرائيل (تامي) ــ أبو حتسيرة	ــ	٣
حزب هتحياه (النهضة)	٢	٣
حزب شينوي (الحركة الديمقراطية سابقاً)	١٥	٢
حركة التجديد الوطني (تيلم) ــ موشي دايان*	ــ	٢
حزب الحقوق المدنية	١	١
بوعالي أغودات اسرائيل	١	ــ
القائمة العربية الموحدة	١	ــ
التطوير والسلام	١	ــ
شيلي	٢	ــ

(*) أعلن عن موت موشي دايان يوم ١٩٨١/١٠/١٧، وهذا يعني انفراط عقد كتلته.

إن هذه القائمة تضم أربعة عشر حزباً، ولكن العدد الفعلي للأحزاب يصل إلى ثلاثة وعشرين أو أكثر، ذلك لأن كلاً من الحزبين الكبيرين (التجمع ــ معراخ) و(التكتل ــ ليكود) يمثل تآلفاً بين عدة أحزاب واتجاهات، كما أن هناك أحزاباً كثيرة لم تنل أية مقاعد، وتتصف الأحزاب الاسرائيلية بظاهرة مطردة هي الانشقاق المستمر كما هو واضح من المقارنة بين الانتخابات الجديدة والانتخابات السابقة. ثم أنه يجب ألا تخدع المرء ظاهرة الديمقراطية البرلمانية في الكيان الصهيوني، وتدل أسماء الزعماء الاسرائيليين (مناحيم بيغن وموشي دايان، يغئال يادين، اسحق رابين، الخ) على أن المؤسسة الارهابية العسكرية هي التي تصدر الزعامات للأحزاب السياسية. على أن التعمق في الحياة السياسية الاسرائيلية يشير إلى أن هذه المؤسسة هي الحاكمة الفعلية لاسرائيل؛ إذ أنها تتمتع بوصاية كاملة على مختلف مرافق الحياة من اقتصادية وصناعية وتعليمية، بل هي التي تملي طبيعة السياسة الخارجية.

ويعاني المجتمع الاسرائيلي من التمييز العنصري ضد اليهود الشرقيين وكذلك من التمييز الهمجي ضد «الأقلية العربية»، كما يعاني من ضغط الزعماء الدينيين المتشنجين.

ومن ناحية العلاقات الخارجية، تعد اسرائيل من الدول التي منيت باخفاق ذريع لأنها بدأت علاقاتها الدولية بشكل تحسد عليه أية دولة ناشئة، ولكنها افتضحت من ناحية علاقتها الامبريالية وطبيعتها العنصرية العدوانية، ونجح الحصار العربي في تقليص علاقاتها حتى أصبحت الدولة الثانية في العالم (بعد جنوب افريقيا) من ناحية عزلتها الدولية. ولكنها تظل الدولة الأولى من ناحية الادانات والقرارات التي اتخذت ضدها في المحافل والمنظمات الدولية.

ويؤدي ذلك بها إلى زيادة الارتباط بالولايات المتحدة الأميركية والدول الامبريالية الأخرى، بحيث يمكن القول انه لولا الامبريالية لما كان لاسرائيل علاقات خارجية.

وأن الهشاشة الداخلية والخارجية لدولة العدوان صورة مناقضة لما تخيله هرتسل وأقرانه القدامى. ويجب ألا تخدع المرء قوتها الخارجية، فهي معرضة للانهيار بسرعة كما اتضح من خلال حرب تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣.

(د) المشروع العسكري

ربما كان الجانب العسكري هو الجانب الأكثر نجاحاً من جوانب الكيان الصهيوني. ومن هنا شهد تاريخ الصراع العربي الصهيوني اتكاء متزايداً من قبل العدو الصهيوني على الورقة العسكرية. وان تفسير الحروب المتلاحقة التي قامت بها اسرائيل لا يكمن في التوسع فقط، بل أن مفهوم «الضربة الوقائية» يضرب جذوره في حقيقة أساسية من حقائق جدلية الصراع، وهي أن العدو الصهيوني كان يقدم على استخدام الورقة العسكرية لتعديل كفة الصراع كلما شعر بخطر استواء المعادلة ودخول الطرف العربي بقوة في حلبة الصراع.

ان النزعة العسكرية العدوانية متأصلة في الايديولوجية الصهيونية ويراد بها، كما قال مناحيم بيغن في كتابه الثورة، أن تشبع «رغبة جارفة مكبوتة عند اليهود للانتقام».

ونظراً لأن الامبريالية أرادت من «اسرائيل» أن تكون مخلب قط وحربة صدام فقد

ركزت على المساعدات العسكرية بل على «عسكـرة» اسرائيـل. وفي الخمسينات، تلقت اسرائيل مساعدات وتوريدات عسكرية مذهلة الحجم من دول الاستعمار التقليدي، ولا سيما من ألمانيا الغربية وفرنسا وبريطانيا. ولكن، منذ مطلع الستينات، أخذت الولايات المتحدة تلبي طلبات اسرائيل من الطيارات والصواريخ مباشرة، وبعد حرب حزيـران (يونيو) ١٩٦٧، أخذت تمد اسرائيل بأحدث أنواع الأسلحة وتقدم لها مختلف أشكال الدعم التدريبي والتقني، وقفز مستوى المساعدات بعد حرب تشرين الأول (أكتـوبر) ١٩٧٣، إذ قدمت أميركا لاسرائيل أحدث أنواع الطيارات قبل تقديمها لحلفائها الآخرين (طيارات ف ١٥ وف ١٦)، كما منحت اسرائيل تسهيلات عسكرية فائقة ولا سيما في مجال دراسة الخطط في (البنتاغون)، واستخدام حاسباته الآلية المعقدة، وتبادل المعلومات. كما أن أميركا أسهمت أسهاماً كبيراً في الصناعة الحربية الاسرائيلية، وسمحت للشركات الأميركية المنتجة للأسلحة أن تفتح فروعاً لها في اسرائيل، وأعطت اسرائيل من امتيازات تصدير الأسلحة ما لم تعطه لأية حليفة أخرى. وخلال الأشهر الأولى من عام ١٩٨١، حدثت أزمة مسرحية بين اسرائيل والولايات المتحدة حول أسـواق أميركـا اللاتينية، وبالنتيجة سمحت الحكومة الأميركية لاسرائيل بتصدير بعض طائرات كفير (وهي ذات محرك أميركي) إلى تلك الأسواق.

وخلال ثلث القرن الماضي حاول الاسرائيليون تطوير عقيدة عسكرية خاصة بهم، كما عملوا على تعديل الأسلحة المستوردة بما يتناسب مع البيئة المحلية، وفي حروبهم المتوالية، اعتمدوا اعتماداً أسـاسياً عـلى عنصر المباغتـة واستغلوا بعض الثغرات في الجيوش العربية، وأحاطوا جيشهم بهالة كبيرة من الدعاوة والتبجيل، وأطلقوا عليه اسم «الجيش الذي لا يقهر». ولكن بفضل حرب تشرين الأول (أكتوبر) لعام ١٩٧٣، وبعد ذلك بسالة الثورة الفلسطينية في جنوب لبنان أخذت الهالة المزيفة بالانكشاف.

على أنه ليس من الحكمة الاستهانة بالاعداد العسكري الاسرائيلي الذي تقف من خلفه ترسانة الجيش الأميركي وتكنولوجيته، وقد أتت ضربة المفاعل النووي العراقي في حزيران (يونيو) ١٩٨١، دليلاً على وجود قفزة نوعية في قوة سلاح الطيران الاسرائيلي، كما أن هناك دلائل متوالية على أن اسرائيل تمتلك، أو هي في طريقها لامتلاك القنبلة الذرية. ويظل السر في ذلك كله هو الدعم الأميركي الذي لا يحده حد. وقد أثبتت أميركا، خلال حرب تشرين الأول (أكتوبر) أنها مستعدة لفعل المستحيل لانقاذ هيبة الجيش الاسرائيلي. وكان آخر ما فعلته بهذا الصدد الاعلان الرسمي عن التحالف العسكري الاستراتيجي مع اسرائيل على أثر زيارة مناحيم بيغن لواشنطن في شهر أيلول (سبتمبر) عام ١٩٨١.

٢ ــ الطرف الدولي: قوى جديدة

حتى بداءة الحرب العالمية الأولى، ظل الاستعمار الأوروبي هو الطرف الأكثر تأثيراً في السياسة الدولية، كما رأينا في السابق. وخلال الحرب الأولى قامت ثورة أكتـوبر الاشتراكية وظهر الاتحاد السوفياتي إلى الوجود، كما ظهرت قوى دولية أخرى، ولكن ظلت السيادة الدولية بيد أوروبا الاستعمارية؛ وذلك على الرغم من التناقضات الشديدة

بين دولها التي أدت إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ والتي شاركت فيها اليابان إلى جانب ألمانيا وايطاليا، وشارك فيها الاتحاد السوفياتي إلى جانب بريطانيا وأميركا والحلفاء، بعد الهجوم الألماني المفاجىء على أراضيه.

وبعد الحرب العالمية الثانية، بدا تماماً أن الاستعمار لم يعد هو القوة الدولية الأساسية في العالم، وأن استقلال عدد كبير من الدول، وظهور الثورات التحررية والاجتماعية، أديا إلى بروز ثلاثة اتجاهات رئيسية في الطرف الدولي هي:

١ ــ **الامبريالية**، وقد عقدت قيادتها بعد الحرب الثانية للولايات المتحدة الأميركية، وتبعاً لذلك انتقل مركز ثقل الصهيونية من بريطانيا إلى أميركا.

٢ ــ **المنظومة الاشتراكية**، وتضم الاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية والصين ودول أخرى متفرقة في العالم. وقد أدى الخلاف الصيني السوفياتي الذي نشب في أوائل الستينات إلى استفادة الامبريالية من الاحتفاظ ببعض مواقعها الدولية بعد أن كانت مهددة بالخروج نهائياً من القارة الآسيوية على الأقل.

٣ ــ **مجموعة دول العالم الثالث أو عدم الانحياز**: وهي تضم معظم دول آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، وكذلك الدول العربية، وتحاول هذه المجموعة أن تميز نفسها بالسعي لإنصاف الدول الفقيرة وإبعاد شبح الاستغلال الامبريالي وتكوين قوة عالمية مهدئة تمنع الحرب وتؤكد على مبادىء الاعلان العالمي لحقوق الانسان، وتتفاوت دول هذه المجموعة في قوة تأثيرها تفاوتاً شديداً.

وبالنسبة للموقف من الصراع العربي الصهيوني تأخر كثيراً تمايز هذه الاتجاهات ولم تتضح مواقفها إلا بعد حرب عام ١٩٦٧ ربما للسببين الرئيسيين التاليين:

١ ــ ان كثيراً من دول العالم الثالث التي استقلت بعد الحرب العالمية الثانية احتاجت إلى وقت طويل حتى تكون لنفسها رؤية مستقلة ــ ولو نسبياً ــ عن رؤية الدولة الاستعمارية التي كانت مسيطرة عليها قبل الحرب.

٢ ــ ان الدعاوة الصهيونية نجحت ــ بسبب أخطاء الاعلام العربي وضعفه ــ في إعطاء تفسير مقلوب لما حدث في فلسطين من عدوان صهيوني، وكذلك نجحت في استغلال جو الاضطهاد النازي لليهود للتغطية على حقيقة اسرائيل الاستعمارية.

ولكن مواقف الكتل الدولية بدأت تتضح بالتدريج، وكان لاسهام الرئيس الراحل جمال عبدالناصر، وحزب البعث العربي الاشتراكي في انشاء حركة عدم الانحياز في منتصف الخمسينات أثره في إعطاء صورة جديدة للموقف العربي، وفي الوقت نفسه، كان لبدء اتصال بعض الحكومات العربية ــ مثل سوريا ومصر ــ بالكتلة الاشتراكية أثره في جر هذه الكتلة إلى تأييد الموقف العربي. كما كان لحلقات العدوان الاسرائيلي المتتابعة أثره البارز في لفت نظر العالم إلى الارتباط الاسرائيلي الاستعماري، إذ تحسن الموقف العالمي من العرب على أثر العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، ثم قفز التأييد العالمي للعرب قفزة كبرى على أثر عدوان ١٩٦٧ وانكشاف الخداع الاسرائيلي.

وكان لظهور الثورة الفلسطينية عام ١٩٦٥، ثم لحرب تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٧٣، ثم لتصاعد المكانة السياسية والاقتصادية للوطن العربي أثر بالغ في تأليب الرأي العام العالمي لصالح القضية العربية، واستطاع العرب، في السنوات التي تلت حرب

تشرين الأول (أكتوبر) أن يحصلوا على أغلبية ثابتة في هيئة الأمم المتحدة وفي المنظمات الدولية، ومثّل صدور القرارين: ٣٢٣٦، ٣٢٣٧، عام ١٩٧٥، عن هيئة الأمم المتحدة وما تبعهما من قرارات، انتصاراً دولياً عظيماً للحق العربي؛ ذلك أن هذه القرارات أكدت الحقوق الراسخة للشعب العربي الفلسطيني واعترفت بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً لشعب فلسطين وعضواً بناء في الأسرة الدولية.

وبنتيجة انشاء اللجنة الفرعية الخاصة بحقوق الشعب الفلسطيني، أصبحت هذه الحقوق ــ نظرياً ــ في عهدة الشرعية الدولية. وعلى الرغم من استمرار حق النقض (الفيتو) الأميركي في خدمة الباطل الاسرائيلي في مجلس الأمن، فقد توصل العرب إلى سلسلة من القرارات المهمة في المجلس نفسه. كما أحرز العرب انتصارات ساحقة في المنظمات الدولية الأخرى مثل الاتحاد البرلماني الدولي ومنظمة العمل الدولية ومنظمة اليونسكو ومنظمة الصحة العالمية؛ وذلك على الرغم من أن الولايات المتحدة كانت دائماً تضع ثقلها الدولي لحماية اسرائيل سياسياً، مثلما كانت تفعل لحمايتها عسكرياً. ومن المعروف، مثلاً، أن الولايات المتحدة أوقفت مساهمتها المالية في كل من اليونسكو ومنظمة العمل الدولية انتقاماً لما اتخذته هاتان المنظمتان من مواقف ادانة لاسرائيل.

وبالمقابل، ازدادت العلاقة الصهيونية الامبريالية تماسكاً وتطابقاً، وجعلت الولايات المتحدة الأميركية من نفسها أضحوكة دولية لما قامت به من مواقف غير مسؤولة في التغطية على العدوان الاسرائيلي وفي التصدي للاجماع العالمي، وقد حدث أكثر من مرة في المحافل الدولية خلال السنوات الأخيرة أن وقفت اسرائيل والولايات المتحدة في صف والأغلبية الساحقة من دول العالم في صف، واستنكفت دول أوروبا الغربية، حفظاً لماء وجهها وخجلاً من تأييد الباطل الاسرائيلي المكشوف.

وربما أمكن اعتبار اسرائيل الدولة الثانية بعد بريتوريا (جنوب أفريقيا) في عزلتها الدولية من جهة وفي سوء سمعتها ومتانة ارتباطها بالامبريالية من جهة أخرى، وقد ظل طوق العزلة بعد حرب تشرين الأول (أكتوبر) يزداد إحكاماً من حول اسرائيل حتى وصلت إلى درجة الاختناق شبه التام، ولكن الذي أسهم في الحلحلة النسبية للحصار الدولي لاسرائيل في أواخر السبعينات كان عملاً امبريالياً مباشراً عن طريق دفع نظام أنور السادات* إلى الخيانة وتطبيع العلاقات بين العدو الصهيوني وبين أكبر دولة عربية، مما أعطى الامبريالية ثغرة لاختراق منطق الحصار العربي لاسرائيل؛ وأعطى بعض الدول الأخرى مسوِّغاً للتنصل من مقاطعتها لاسرائيل، كما أعطى اسرائيل فرصة لشن حملة على أنظمة المقاطعة العربية ولا سيما في اطار الولايات المتحدة والدول الغربية.

٣ ــ الطرف العربي: انقلاب شامل

خلال ثلث القرن الذي تلا النكبة، حدثت تطورات نوعية في طبيعة تركيب الطرف العربي على مختلف مستويات الحياة يصح وصفها بأنها انقلاب شامل. وليس من السهل الاحاطة بهذه التطورات في مجلد بل في مجلدات. واذن، فإن هدفنا في هذه العجالة لا يمت

(*) قتل أنور السادات على يد جيشه خلال العرض العسكري الذي أقامه في القاهرة احتفالاً بالذكرى الثامنة لحرب تشرين الأول (أكتوبر) يوم ٦/١٠/١٩٨١.

إلى الاحاطة بصلة، ولكنه محاولة للتذكير بأهم علامات التطور.

١ ــ على الصعيد البشري والاجتماعي:

تتّسم الأقطار العربية بمعدلات نمو سكانية مرتفعة ناجمة أساساً عن ارتفاع معدلات الانجاب، ويقدر عدد سكان الوطن العربي في مطلع الثمانينات بين ١٦٠ و ١٧٠ مليون نسمة، ويقدر حجم قوة العمل العربية بحوالى ٤٥ مليوناً في عام ١٩٨٠. وتهتم أغلب الأقطار العربية بالتعليم الذي قفز خلال العقدين الأخيرين قفزات كمية مذهلة يمكن أن تنبىء عنه المقارنة التالية(٤).

	عام ١٩٦٠	عام ١٩٨٠
عدد تلاميذ الابتدائي	٧ مليون تلميذ	٢٠ مليون
عدد تلاميذ الثانوي	١,٣ مليون	٨ مليون
عدد تلاميذ التعليم العالي	١٦٣ ألف تلميذ	١,٣ مليون

وخلال العقدين الماضيين، خرجت قوى اجتماعية كبيرة من ظلام الخمول إلى نور الفعالية بما في ذلك الطبقات الفقيرة وجماهير النساء. وتطورت الثقافة والأدب والعلم في الأقطار العربية بوتائر عالية. وعلى الرغم من استمرار جوانب كثيرة من التخلف الاجتماعي وعلى الرغم من عدم استواء التوزع الكافي في الأقطار العربية، فإن التقدم البشري والاجتماعي الذي أحرزه الوطن العربي خلال العقود الثلاثة الأخيرة يشكل مستودع القوة العربية الأساسي من جهة، ويشكل من جهة أخرى التهديد الخطير للمشروع البشري الاسرائيلي العاجز عن موازنة النمو العربي.

٢ ــ على الصعيد الاقتصادي:

تصاعدت القوة الاقتصادية للوطن العربي تصاعداً عظيماً بسبب النمو الهائل للثروة البترولية وبسبب مشروعات التنمية في بعض البُلدان العربية، وقد وصل دخل بعض أقطار الخليج من الثروة البترولية أرقاماً خيالية، وكان لذلك تأثيرات اجتماعية وسياسية متعددة الجوانب. ولكن مهما يقال في ذلك فليس هناك شك في أن الوطن العربي أصبح قوة اقتصادية كبرى، وهو يتمسك بزمام موضوع الطاقة بفضل ما في أرضه من احتياطي ضخم للبترول.

وتشير وثيقة مقدمة إلى الاجتماع المشترك لوزراء الخارجية والاقتصاد العرب التحضيري لمؤتمر القمة العربي الحادي عشر (عمان ١٩٨٠)(٥)، إلى التطور الكبير للناتج القومي للأقطار العربية خلال السبعينات؛ إذ بلغ سبعة أضعاف بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٨٠، بينما بلغ نمو الأقطار النفطية وحدها عشرة أضعاف.

كما يذكر تقرير الأمين العام لمجلس الوحدة الاقتصادية للدورة العادية السابعة والثلاثين عدداً من النقاط المهمة نقتبس منها الفقرتين التاليتين:

١ ــ «وقد أتاح عقد السبعينات للاقتصاد العربي فرصة جيدة لتعزيز انجازات كبيرة في المجالات التنموية، وتحقيق قدر من الاعتماد على الذات وذلك من خلال تحسين

القدرة الانتاجية والتقنية ورفع درجة التحكم بالموارد وحسن استخدامها قومياً وقطرياً.

٢ ــ «لقد حقق الميزان التجاري الكلي للدول العربية فائضاً يقدر بحوالى ٥٦ مليار دولار عام ١٩٧٩ وحوالى ٩٠ مليار دولار عام ١٩٨٠ مقابل ٢٢ مليار دولار عام ١٩٧٨. وتعزى هذه الزيادة إلى الفائض الكبير في الميزان التجاري للأقطار العربية النفطية الذي بلغ ٦٦,٦ مليار دولار عام ١٩٧٩، والذي يقدر بحوالي ١٠٥ مليار دولار عام ١٩٨٠. وقد بلغ العجز في الميزان التجاري للأقطار العربية غير النفطية حوالي ١٠,٦ مليار دولار عام ١٩٧٩، ويقدر بحوالى ١٥ مليار دولار عام ١٩٨٠»[٦].

والمهم، من زاوية البحث الحالي، الاشارة إلى أن البترول سلاح اقتصادي جبار، وأنه حين استعمل جزئياً خلال حرب تشرين كان له مفعول كبير، وأن ذلك الجزء من العالم (الأمبريالية) الذي يغذّي اسرائيل ويحميها هو أكثر مناطق العالم اعتماداً على البترول العربي (وما يجره من الودائع المصرفية والاستثمارات العربية)، وأنه حين تتاح للطرف العربي فرصة مواتية لاستخدام هذا السلاح فإن النتائج ستكون حاسمة لصالح القضية العربية.

٣ ــ على الصعيد السياسي:

استقلت معظم الدول العربية بالتدريج بعد الحرب العالمية الثانية، وكان أعظم حدث في حركة الاستقلال العربية حصول الجزائر على استقلالها عام ١٩٦١ بعد نضال أسطوري، ولم يبق الآن تحت السيطرة الأجنبية سوى بعض أطراف الوطن العربي بالاضافة إلى قلبه فلسطين. ويبلغ عدد أعضاء الجامعة العربية اليوم اثنتين وعشرين دولة*. وتتمتع هذه الدول بعلاقات دولية واسعة وفعالة. وفي الوقت نفسه تصاعدت حركة التحرر العربي السياسي الاجتماعي، واستطاعت خلال الخمسينات أن تتصدر الواجهة السياسية للوطن العربي، وأن تمد علاقاتها إلى مختلف أرجاء العالم، وكان لحزب البعث العربي الاشتراكي، فكراً ونضالاً، فضل الريادة في هذا المجال، كما كان لنضال ثورة ٢٣ يوليو في مصر، بقيادة الرئيس الراحل جمال عبدالناصر، أثر فعال في تحويل حركة التحرر العربي إلى حركة جماهيرية واسعة فعالة. وقد كان التحالف البعثي الناصري ذروة في انتصار هذه الحركة التي نجحت في اقامة أول تجربة وحدوية (الجمهورية العربية المتحدة) عام ١٩٥٨، في التاريخ المعاصر للوطن العربي، كما نجحت في دعم الثورات العربية الداخلية ضد الأنظمة الفاسدة في عدد كبير من الأقطار العربية وكسرت طوق الاحتكار الغربي للمنطقة العربية، ونوعّت مصادر تسلحها واقتصادها وأسهمت اسهاماً فعالاً في خلق حركة عدم الانحياز. وقد سخر الاستعمار جميع امكاناته لضرب الجمهورية العربية المتحدة وتحقق له ذلك بنتيجة الحركة الانفصالية في أيلول (سبتمبر) ١٩٦١. ولكن شعلة التحرر استمرت، وحدثت في عدد من الدول العربية تغيرات سياسية اجتماعية أفسحت المجال لظهور قوى شعبية جديدة وتسلمها دفة الحكم، وبالتالي لإسهامها المباشر في معركة الصراع. وكان بروز الثورة الفلسطينية في منتصف الستينات اعلاناً عن تصحيح مسار الصراع وبروز النقيض الأساسي للدولة الصهيونية، بعد أن

(*) مع ملاحظة تعليق عضوية مصر على أثر توقيع اتفاقي كامب ديفيد.

عملت الظروف المختلفة على طمس الهوية الفلسطينية وتحويل الصراع من صراع وجود إلى صراع حدود، وبعد أن محي اسم فلسطين وصارت قضية فلسطين بلا فلسطينيين، حتى أن غولده مئير، رئيسة وزراء اسرائيل السابقة، استهجنت خلال زيارتها بريطانيا بعد عدوان ١٩٦٧ أن يسألها الصحافيون عن مصير الفلسطينيين وقالت غاضبة: الفلسطينيون. من هم؟

وفي أواخر السبعينات وفي أعقاب حرب تشرين الأول (أكتوبر) ونتيجة لها، كان الوطن العربي متجهاً إلى التكامل والتضامن، لولا أن نظام السادات أحدث خللاً كبيراً في الموقف العربي بتوقيعه معاهدة كامب ديفيد الخيانية وانتقاله إلى الطرف المعادي.

والجدير بالذكر أن **الثورة الفلسطينية**، على الرغم من الضربات المتوالية التي وجهت إليها على يد الاستعمار وعملائه، نجحت في بناء مؤسسات الكيان الفلسطيني من خلال منظمة التحرير الفلسطينية وفي اعادة تشكيل الشعب العربي الفلسطيني وتجنيده لصالح قضية التحرير سواء في الشتات أم في داخل الوطن المحتل، كما احتلت مكانة دولية فائقة، وأصبحت منذ ذلك الحين عنصراً أساسياً وفعالاً في معادلة الصراع؛ مما يعد بحد ذاته ضربة كبرى للوجود الصهيوني نفسه في أرض فلسطين. ومن هنا تستمر المحاولات الاسرائيلية، منذ سنوات، للقضاء على الوجود المادي للثورة الفلسطينية وشعبها بعد أن عجزت عن القضاء السياسي عليها؛ وهذا هو تفسير الحملات العسكرية الغاشمة على الثورة في لبنان وما أخذته عام ١٩٨١ من بعد جديد بمحاولة تدمير أحياء معينة في بيروت والمدن اللبنانية الأخرى. يضاف إلى ما سبق كله أن الوطن العربي شهد نمواً عسكرياً مرموقاً سواء من حيث الكم أم من حيث النوع، وأصبحت الجيوش العربية اليوم غيرها بالأمس، وأن أية فرصة تتاح لحشد نصف الامكانات العسكرية العربية فقط يمكن أن تؤدي إلى تقدم عربي عسكري حاسم، وأن الازدياد الواضح في اتجاه السياسة الاسرائيلية نحو التشنج والتعنت والتهور، ولا سيما في السنوات الأخيرة، يعتبر انعكاساً لما تحسّ به اسرائيل من ضعفها الداخلي وفقد تميزها، وعجزها عن مواكبة النمو العربي في جوانبه المختلفة.

رابعاً ــ احتدام الصراع وأفق المستقبل

لم يكن قيام الدولة الصهيونية خاتمة للصراع ولا انتصاراً تاريخياً نهائياً يطمس ما قبله، ولكنه كان مرحلة جديدة خطيرة من مراحل الصراع مصحوبة بوعي كامل لدى الطرفين لهذه الحقيقة البارزة؛ فالطرف الاسرائيلي اعتبر قيام الدولة مجرد بذرة لتحقيق أطماع الصهيونية التي تتناول المشرق العربي بأكمله، والطرف العربي لم يقبل بالهزيمة اطلاقاً ولم يعترف بها أصلاً، وظل شغله الشاغل منذ ذلك الحين إزالة الباطل الذي أقيم بالقوة الغاشمة واحقاق الحق العربي الفلسطيني... ومن هنا مثلاً لقي المبدأ الذي أطلقه حزب البعث العربي الاشتراكي باعتبار قضية فلسطين القضية العربية المركزية الأولى قبولاً واسعاً لدى القطاعات المختلفة للجماهير العربية... وقد سبب العجز العربي عن اتخاذ موقف عملي لرفض الهزيمة هزات كبرى سواء في الوجدان العربي أم في الهياكل السياسية والحزبية على امتداد الوطن العربي كله.

وكان واضحاً من خلال المجابهة المتواصلة أن الورقة البارزة بيد الطرف الصهيوني هي الورقة العسكرية، وحاولت اسرائيل كلما اتيحت لها الفرصة أن تستخدم هذه الورقة من أجل وقف نمو الطرف العربي، لأن مجرد اكتمال الطرف العربي سياسياً واقتصادياً وثقافياً كان يعني قطع الطريق على المخططات الصهيونية من جهة، وبدء نهاية الكيان الصهيوني من جهة أخرى.

وهكذا كان العدوان الثلاثي لعام ١٩٥٦ محاولة من قبل اسرائيل للاستعانة بدولتي الاستعمار القديم (بريطانيا وفرنسا) من أجل القضاء على حركة التحرر العربي التي وجدت متنفسها في حركة ٢٣ يوليو والتي وضعت المسمار الأخير في نعش الاستعمار القديم بتأميم قناة السويس وتقويض الاحتكار الأجنبي لها الذي دام حوالي قرن من الزمان.

وإذا كان هذا هو سبب العدوان، فإن نتائجه كانت مهمة جداً بالنسبة لمعادلة الصراع العربي الصهيوني، فمن ناحية دلت على أن تلاحم الصهيونية مع الاستعمار ازداد بعد مرحلة الدولة، ومن ناحية ثانية دلت على أنه لم يعد في مقدور اسرائيل، حتى من خلال تحالفها مع الاستعمار، أن تحقق ما تريده حرفياً كما كان الأمر في السابق، إذ انقسم الطرف الدولي انقساماً واضحاً بشأن العدوان، ومن ناحية ثالثة ثبت أن الطرف العربي بدأ يقف على قدميه عسكرياً وشعبياً ودولياً. ونتيجة لكل هذه العوامل مجتمعة اضطرت القوات الاسرائيلية إلى الجلاء عن سيناء خلال شهور معدودة، وهذا هو تفسير الضغط الأميركي الظاهري على اسرائيل من أجل الانسحاب في تلك الفترة.

وبعد احدى عشرة سنة من «العدوان الثلاثي» اضطرت اسرائيل لاعادة استخدام الورقة العسكرية (١٩٦٧) في محاولة لتعديل كفة الصراع لصالحها، وكانت الدولة الصهيونية قد نقلت مركز تحالفها نهائياً إلى الولايات المتحدة الأميركية، معقل الامبريالية الجديد، واستعدت استعداداً كاملاً للعدوان بالتنسيق المستمر مع الاستعمار الجديد وخدمة لمصالحة أيضاً. وهكذا اجتمعت عدة أسباب للعدوان منها:

١ ــ **الأزمة الداخلية للكيان الصهيوني**: إذ كان المشروع البشري مهدداً بالتدهور، في مطلع عام ١٩٦٧ بالذات تساوت أرقام الهجرة الداخلية مع الهجرة الخارجية، واختنقت اسرائيل اقتصادياً لذلك، وعجزت عن اكمال بناء ميناء أسدود مثلاً، كما عجزت عن الاحتفاظ بصناعة الطائرات، وعن توسيع أسواقها.

٢ ــ **تصاعد قوة الوطن العربي**: كان الوطن العربي ينمو سياسياً واقتصادياً وثقافياً وعسكرياً، وكانت مؤشرات نموه مضادة للامبريالية والصهيونية، ورأت الولايات المتحدة أنه من الممكن استخدام اسرائيل لضرب هذا النمو، ولضرب حركة التحرر العربي.

٣ ــ **بروز الثورة الفلسطينية**: إذا كان العمل الفدائي، وكان عمره سنتين فقط، هزَّ الأساس الذي قامت عليه اسرائيل، لأن أخشى ما كانت تخشاه اسرائيل هو عودة «النقيض» الحقيقي إلى البروز. وهكذا بدأ التوتر قبل الحرب بحشد قوات اسرائيلية على حدود سوريا بسبب مناصرة سوريا للعمل الفدائي*.

(*) لا يختلف هذا التفسير كثيراً عن جملة التحليلات الجيدة التي أوردها بريماكوف في كتابه: **تشريح الصراع في الشرق الأوسط**، بيروت ١٩٨١.

يضاف إلى ذلك أن الحرب كانت حلقة في سلسلة المطامع الصهيونية. ومن خلال هذه الأسباب مجتمعة، أتى حجم الضربة الاسرائيلية مذهلاً، ودل على أنها نتيجة استعدادات كبيرة متواصلة. وقد استطاعت اسرائيل أن تحقق أهدافاً عسكرية كبيرة واحتلت في ستة أيام ثمانين ألف كيلومتر مربع من أراضي مصر وسوريا، وأكملت احتلال ما تبقى من فلسطين (الضفة الغربية وقطاع غزة)، أي ما يعادل أربعة أضعاف مساحة الدولة المعتدية.

ولكنها لم تستطع أن تحقق هدفها المعلن وهو اصابة الوطن العربي بالكساح، أي تعديل كفة الصراع لصالحها، والقضاء على الأنظمة الثورية.

وهكذا لم يأت العرب مستسلمين، وانتظر القادة الاسرائيليون طويلاً ولكن الرد أتى بسرعة من خلال استئناف العمليات الفدائية ومن خلال اعلان ارادة الصمود العربي.

وقد حل الاحتلال، ولو مؤقتاً، مشكلات اقتصادية ونفسية وبشرية لاسرائيل ولكنه، في الوقت نفسه، أتى دليلاً على النمو المتعدد الجوانب للطرف العربي، وانكشاف حقيقة اسرائيل أمام الطرف الدولي. ففي صباح اعلان نجاح الهجوم الاسرائيلي المباغت على المطارات المصرية صدر البيان السوفياتي المعروف باستنكار العدوان وتحميل اسرائيل والامبريالية تبعاته. وتلا ذلك استنكار عالمي شامل دل على أن علاقة اسرائيل بالطرف الدولي أصبحت ذات بعد واحد محصور بالامبريالية، وأن الدول الاشتراكية ودول عدم الانحياز، بالاضافة إلى الدول الاسلامية، خرجت عن نطاق تأثير الدولة الصهيونية وكشفت حقيقتها.

ولم تمض ستة أعوام على عدوان حزيران (يونيو) حتى كان الوطن العربي قد استعاد عافيته، وكانت جوانب نموه تتكامل كما أن علاقاته الدولية سجلت انتصارات متتالية، وبالمقابل كانت اسرائيل تعيش على موائد الاحتلال وتحاول تأجيل أزمتها الداخلية. وبالنسبة للوطن العربي لم تكن المسألة مسألة نمو فقط بل مسألة استفادة من الامكانات المتاحة، لأن امكانات الوطن العربي حتى في عام ١٩٤٨ كانت كافية لردع العدوان لو أنها استعملت على الوجه الأكمل. وهكذا أمكن في ظهر يوم السادس من تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٧٣، أن يقوم الطرف العربي للمرة الأولى في تاريخ الصراع بالمبادرة بالتصدي. وتحركت قوات الجيشين السوري والمصري لتفاجىء العالم واسرائيل بحقيقة جديدة تماماً في الصراع، وهي أن الورقة العسكرية ليست احتكاراً لاسرائيل، وأمكن للقوات السورية أن تكتسح الجولان خلال ساعات، وأمكن للقوات المصرية أن تعبر قناة السويس وأن تحطم خط بارليف الشهير. وقد تصاعدت صيحات الاستغاثة من اسرائيل وهبت الولايات المتحدة لنجدتها فأقامت جسراً جوياً إلى أرض المعركة بالذات، وفتحت مستودعات الجيش الأميركي للجيش الاسرائيلي ووضعت معلوماتها ومقدرتها التكنولوجية في خدمة اسرائيل. ومع ذلك، ولولا التطور المفاجىء الذي اتخذته القيادة المصرية بوقف التقدم، ولولا ما أتيح للاسرائيليين من خرق غير طبيعي للجبهة المصرية لكانت نتائج حرب تشرين الأول (أكتوبر) مدمرة بالنسبة للكيان الصهيوني.

وتحدث الاسرائيليون فيما بعد عن «الزلزال» وعن «التقصير» وغير ذلك من

التسميات التي تدل في حقيقتها على تطور واضح هو أن الطرف العربي استوى على قدميه في حرب تشرين الأول (أكتوبر)، ودخل معادلة الصراع بقوة وأنه تمكن حتى من تهديد الورقة الوحيدة التي كانت تلعبها اسرائيل وهي الورقة العسكرية، وأنه لم يعد بامكان الدولة الصهيونية أن تقرر ما تريد على الأرض العربية. ومن هنا كان النصر، ولكن من هنا كانت الخطورة من وجهة نظر الموقف العربي كما سنرى بعد قليل.

وقد تأكد في حرب تشرين الأول (أكتوبر) توزع الطرف الدولي إلى ثلاث شعب واضحة المعالم:

الأولى: الامبريالية، وقد صعدت من دعمها لاسرائيل، لتعوض عنها خسائرها الداخلية والدولية، وقد وصل الدعم الأميركي لاسرائيل خلال الحرب أرقاماً مذهلة تصل، بنواحيها المختلفة، إلى مقدار مليار دولار لليوم الواحد خلال بضعة الأيام الأولى للحرب.

الثانية: المجموعة الاشتراكية.

الثالثة: مجموعة دول عدم الانحياز والدول الاسلامية وقد أكدت المجموعتان الثانية والثالثة (باستثناءات بسيطة) دعمهما للموقف العربي وعداءهما للمطامع الصهيونية، مما وفّر للموقف العربي أغلبية فائقة في المحافل الدولية ساعدت، فيما بعد، على اتخاذ قرارات واضحة لصالح الحق العربي الفلسطيني في هيئة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية الأخرى.

وبالنسبة للطرف العربي، أعطت حرب تشرين الأول (أكتوبر) للعرب ثقة بالنفس كبيرة وأظهرت أنهم كانوا دائماً ضحية سوء تصرف وخيانة وعجز عن حشد الامكانات.

إلا أن استواء معادلة الصراع جلب معه أخطاراً من نوع جديد، وولد قناعات واضحة لدى الطرف الامبريالي الصهيوني بأن الورقة العسكرية وحدها ليست ضمانة مستمرة وبأن المراهنة الحقيقية هي على شق الطرف العربي. ولقد كان هذا الاحتمال قائماً منذ البدء ولكن الطرف الصهيوني كان يرفض دفع أي ثمن مهما كان بسيطاً أو شكلياً مقابل عروض التسوية التي كانت تسعى بها الامبريالية وعملاؤها في المنطقة، ومما زاد في القلق الامبريالي أن منظمة التحرير الفلسطينية برزت على الساحة الدولية بعد حرب تشرين الأول (أكتوبر) بوصفها ممثلة شرعية وحيدة للشعب الفلسطيني واستقطبت اهتماماً دولياً شديداً، ونجحت في اقامة علاقات وثيقة مع المجموعات الدولية والأحزاب والثورات المناهضة للامبريالية، كما أن تصاعد النضال العربي الفلسطيني داخل الأرض المحتلة، دفع الامبريالية إلى البحث عن صفة الالتفاف على كل هذه المؤشرات، وكان من ذلك نجاحها في دفع حاكم مصر، السابق، أنور السادات، إلى زيارة القدس بعد مضي أربع سنوات تماماً على عبور الجيش المصري لقناة السويس، وتبع ذلك توقيع اتفاقات كامب ديفيد ثم المعاهدة المصرية الاسرائيلية وقد أدى ذلك إلى انسلاخ أكبر دولة عربية ــ ولو مؤقتاً ــ عن الجسم العربي، مما أخلّ اخلالاً شديداً بتطورات معادلة الصراع التي كانت جميع مؤشراتها تدل على أن التوازن يتطور لصالح الطرف العربي.

ومن خلال منطلق معادلة الصراع نفسه، يتبين أن هناك عاملاً جديداً دخل في جدلية الصراع وأثبت تشابكها الشديد، لأن العملية الخيانية لرئيس النظام المصري أخلت بموقف الطرف العربي وأثرت ايجابياً لصالح الطرف الصهيوني ومنحته فرصاً

جديدة، وأثرت كذلك تأثيراً واضحاً في المناخ الدولي فخففت عن اسرائيل وطأة الحصار الدولي الخانق وأدت إلى بعثرة المجهودات العربية في المحافل الدولية بل امتصت جزءاً من الانتصارات التي حققها العرب في سنوات ما بعد حرب تشرين الأول (أكتوبر).

وقد عملت الدول العربية على طرد النظام المصري من صفوفها، ونقلت الجامعة وعشرات المنظمات العربية من مصر، وبدا تماماً أن الطرف العربي قادر على التعامل مع النكسة في حدودها الحالية، وربما كان أهم تطور في هذا المجال اعلان سوريا العمل على اعادة التوازن الاستراتيجي مع العدو، ولو منفردة. وقد نجحت سوريا في تأكيد جدية ما أعلنته، واستطاعت أن تثبت وجوداً عسكرياً استراتيجياً في لبنان، وأن تدخل صواريخها إلى الأرض اللبنانية لمواجهة العدوان الجوي الاسرائيلي المستمر عليها، كما استمرت في تقوية التلاحم مع منظمة التحرير الفلسطينية على مختلف الأصعدة، متحدية بذلك تهديدات اسرائيلية جدية، ومثبتة أن مشكلة الطرف العربي ليست في امكاناته نفسها ولكن في جدية استخدام هذه الامكانات. وقد شهد الصراع العربي الصهيوني في شهر حزيران (يونيو) من عام ١٩٨١ تطوراً جديداً من خلال العدوان الجوي الاسرائيلي على المنشآت النووية العراقية، إذ دل على أن الامبريالية مستمرة في تسليح اسرائيل بأحدث أنواع الأسلحة التي تمكنها من كبح جماح التطور العربي في مختلف الميادين. ولكن في الوقت نفسه، دلت الغارات الاسرائيلية الوحشية خلال شهر تموز (يوليو) ١٩٨١ على بيروت والمدن اللبنانية ومراكز التجمع الفلسطينية على أن الطرف العربي موجود وقادر ومستمر في الصراع.

وهكذا تشهد جدلية الصراع العربي الصهيوني في الثمانينات تداخلاً وتشابكاً وتوتراً من نوع ليس له مثيل من قبل، وعلى الرغم من مرور هذه الجدلية في تطورات درامية من وقت لآخر فإن هناك جملة من الحقائق ثبتت من خلال تطورات الصراع نفسه، ويمكن ايجازها بما يلي:

١ ــ ان نجاح الطرف الصهيوني في تحقيق خطوته الأولى عام ١٩٤٨، وهي اقامة الدولة كان ناجماً عن غياب الطرف العربي عن ساحة الصراع بسبب ظروف المرحلة التاريخية والتآمر الاستعماري، وانحياز الطرف الدولي بالكامل للصهيونية.

٢ ــ ان صدمة عام ١٩٤٨ هزت الوطن العربي وأعادت وجوده إلى ساحة الصراع، وعلى الرغم من أن هذا الوجود لم يكتمل بسرعة وبالتالي لم تكتمل جدلية الصراع فإن الجولة الأولى للعدو الصهيوني بعد قيام الدولة لم تتمخض عن حصيلة ايجابية لعدوانه عام ١٩٥٦ بل على عكس ذلك أدت إلى تثبيت خطوات حركة التحرر العربي، ولا سيما من ناحية التقارب والعمل المشترك بين طرفيها الأساسيين في الخمسينات: حزب البعث العربي الاشتراكي وثورة ٢٣ يوليو.

٣ ــ بعد انقضاء عقدين من السنين على قيام الدولة الصهيونية أخفقت في تحقيق مشروعاتها البشرية والاقتصادية والسياسية ولم يبق أمامها سوى استخدام الورقة العسكرية من أجل التوسع وضرب النمو المتصاعد للقوة العربية، وعلى الرغم من الانجاز العسكري الواضح لعدوان عام ١٩٦٧ بسبب الدعم الامبريالي الكامل لاسرائيل فإن نمو الوطن العربي ظل مطرداً واستطاع خلال ست سنوات أن يستعيد أنفاسه وأن يوجه

لاسرائيل ضربة حرب تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٧٣ التي هزت المجتمع الاسرائيلي وكشفت هشاشته ونواحي ضعفه.

٤ ــ حاولت اسرائيل، بشتى السبل، طمس الحقيقة الفلسطينية طمساً تاماً وقد ساعدتها عوامل سياسية في الطرف العربي لحذف اسم فلسطين من الخارطة منذ عام ١٩٤٩ ولكبت الشعور الوطني الفلسطيني. ولكن حين بدأت الشخصية الفلسطينية بالعودة إلى المسرح السياسي في الستينات عمدت اسرائيل إلى اللعبة المعتادة باستخدام الورقة العسكرية ضد معاقل الثورة الفلسطينية والتجمعات السكانية الفلسطينية في الأردن ولبنان وغيرهما. ولكن الحقيقة الفلسطينية استطاعت أن تتبلور في شكل نقيض سياسي عسكري أخلاقي للوجود الصهيوني وحظيت باعتراف دولي واسع وتأييد شامل في هيئة الأمم المتحدة والمنظمات الدولية الأخرى مما يعد رداً تاريخياً على تصريح بلفور ونقضاً أساسياً للدولة الصهيونية ومطامعها.

٥ ــ لم تفلح الورقة العسكرية الاسرائيلية الامبريالية في وقف نمو الطرف العربي، ولذلك جرى تصعيد الخلافات العربية إلى درجة شق الصف العربي وسلخ النظام المصري عنه. وعلى الرغم من خطورة هذا التطور وتأثيره على معادلة الصراع فإن الطرف العربي، ولا سيما من خلال سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية، أثبت تصميمه على معالجة هذا التطور الخطير واعادة التوازن الاستراتيجي ضد العدو الصهيوني.

٦ ــ على الرغم مما تحمله الورقة العسكرية الاسرائيلية من خطورة، كما ثبت من خلال الغارة الاسرائيلية على المفاعل النووي العراقي في حزيران (يونيو) ١٩٨١، فإن كل الدلائل تشير إلى أن المشروع الصهيوني يعاني بشرياً واقتصادياً وسياسياً وأنه أصبح مكلفاً للامبريالية بشكل لا يطاق (صرح كارتر أثناء الحملة الانتخابية في نهاية عام ١٩٧٩ أن مجمل مساعدات أميركا لاسرائيل لعام ١٩٧٩/ ١٩٨٠ بلغت أكثر من ثلاثة مليارات دولار. أما ناحوم غولدمان، الرئيس السابق للمنظمة الصهيونية العالمية، فقد نعى الدولة الصهيونية وأكد على تدهورها وانحطاطها وعدم مقدرتها على التلاؤم مع وسطها والتميز عن سادتها الامبرياليين، في سلسلة من الكتابات أهمها ما نشره بعد الغارات الوحشية على بيروت[٧].

٧ ــ وبالمقابل ينمو الوطن العربي نمواً فائقاً في جميع النواحي بما في ذلك القوة العسكرية، وبالمقارنة بين امكاناته وامكانات العدو الصهيوني يتضح أن المسألة بالنسبة للوطن العربي هي مجرد حشد الامكانات والطاقات وفي أية لحظة تتوافر لديه مقدرة على ذلك فإن اسرائيل لن تقوى عن مواجهته. ولذلك يظل عامل الزمن لصالح الوطن العربي، وبإمكان الوطن العربي أن يحقق تحرير الأرض واستعادة الحقوق في أقصى مدة إذا توصل إلى استخدام أفضل لإمكاناته.

وتعكس التطورات الدولية حقيقة الرجحان العربي الكبير في معادلة الصراع. يضاف إلى ذلك كله العامل الأخلاقي الكبير، وهو عامل الحق الذي يبنى عليه الموقف العربي. ولقد حاولت هذه الدراسة ألا تدخل في المناقشات الأخلاقية المتعلقة بالحق والقوة لأنها انطلقت من عدم الاستناد إلى المقولة القائلة بأن الحق العربي كفيل بموازنة القوة الصهيونية، وانما أكدت دائماً على أن القوة العربية المتنامية كفيلة بالتعامل مع القوة

الصهيونية من منطق القوة الخالص. ولكن مع وجود الحق العربي الصريح والدافع القومي الأخلاقي والتاريخ العربي المحرّض، فإن الطرف العربي هو الذي يتمتع بالمقدرة والاستمرارية والصلابة وتعدد الاختيارات وامكانية الحركة، وبالتالي هو الذي يمتلك زمام النصر وأفق المستقبل على الرغم من جسامة التضحيات وتداخل الصعوبات التي تعترض طريقه.

وهذا ما يقوله المنطق العلمي من خلال تحليل الصراع، وهو لا يختلف، في جوهره، عن المبدأ القومي البديهي الذي تتلخص فحواه في أن الخيار الوحيد أمام الأمة العربية هو مواصلة الكفاح ــ مهما طال الصراع ــ إلى أن يتم القضاء على العدوان وانجاز الظفر والتحرير، على نحو ما أنجزته الأمة العربية في الماضي من انتصارات تحررية ضد موجات الغزو الأجنبي التي تعاقبت عليها ولا سيما في العصور المتأخرة.

إن انهيار الكيان الصهيوني مسألة حتمية، وان الجماهير الواسعة التي تمثل وجدان العالم تبدو متأكدة من ذلك، كما أن المؤرخين الكبار، مثل أرنولد توينبي، يتوقعون ذلك بقوة. ولكن المسألة هنا مسألة زمن وجهد، وان أعراض الانهيار التي أشرنا إلى بعضها لا تؤدي بذاتها إلى تقوّض الدول، والعبرة النهائية التي يستنتجها المرء من مراقبة تطورات الصراع هي أن مؤشرات النصر تتجه لصالح العرب حتماً، ولكن بمقدور العرب أن يقصروا أمد الصراع ويبلغوا بكفاحهم مرتبة الحسم إذا عملوا على تحرير طاقاتهم من الاستغلال الخارجي والداخلي، ومن ثم حشدها وتوظيفها لتوجيه ضربات منظمة ضد العدو وعلى مختلف جبهات الصراع. وان هذه المنازعات التي يشهدها الوطن العربي اليوم انما تشير إلى توسع الهوة بين اتجاهات التحرر واتجاهات المحافظة والمهادنة، وإلى سرعة الاتجاه نحو الفرز القومي الشامل الرامي إلى اعطاء معركة التحرير ما تستحقه من جهد وتضحية وما تتطلبه من ثورة شاملة ضد كل معوقات التقدم والتطور والتحرر والوحدة. وسوف يتطلب ذلك تضحيات كبرى ولكنه سوف يضمن عودة الشعب العربي الفلسطيني إلى أرضه وديارة وممارسة حقه في تقرير المصير واقامة الدولة المستقلة، كما يضمن للأمة العربية الانطلاقة المنشودة للاسهام في بناء سلام العالم المعاصر ورخائه وحضارته.

---

(١) **هآرتس**، ١٣/١٢/١٩٧٩، نقلاً عن **تشرين** (دمشق) ٤/١٢/١٩٨٠.

(٢) **نشرة المكتب المركزي للإحصاء**، تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٨١.

(٣) **تشرين**، ١/٨/١٩٨٠، نقلها عن دراسة لمؤسسة الأرض.

(٤) للتفصيل أنظر: «الوطن العربي سنة ٢٠٠٠»، **المستقبل العربي** (باريس)، العدد التاسع، أيلول (سبتمبر) ١٩٨٠.

(٥) أنظر، **شؤون عربية** (تونس)، ٢ حزيران (يونيو) ١٩٨١، ص ١٤٣. والمعلومات منقولة عن تقرير الأمين العام لمجلس الوحدة الاقتصادية، أبو ظبي، في ٢٥/١٢/١٩٨١.

(٦) مجلس الوحدة الاقتصادية العربية، **تقرير الأمين العام**، للدورة العادية السابعة والثلاثين، عمان، حزيران (يونيو) ١٩٨١.

(٧) نشرت **السفير**) (بيروت) بتاريخ ٦/٨/١٩٨١ ترجمة لدراسة غولدمان التي نشرتها مجلة **نوفيل أوبسرفاتور** (باريس) في النص الثاني من تموز (يوليو) ١٩٨١.

المسألة الفلسطينية والرأي العام الأميركي

الأب دونالد. إي. واغنر

يحتاج المواطن الأميركي العادي الى التغلب على عقبات عديدة، اذا ما أريد له أن يكتشف الفلسطيني كانسان. فصانعو الرأي العام من السياسيين وأجهزة الاعلام والقادة الدينيين والمخابرات والفئات السياسية والمشرفين على التعليم وعدد كبير آخر، قد رسِموا صورة ذات بعد واحد للفلسطيني على مدى السنوات الثلاثين الماضية. والتجربة الأميركية، حتى هذا التاريخ، مع بعض الاستثناءات، تتلخص في كونها التزاماً ايجابياً عاطفياً نحو يهود اسرائيل وصورة سلبية عن العرب، بصورة اجمالية، وعن الفلسطينيين بصورة خاصة.

الا أن الاستفتاءات الأخيرة تشير الى أن هناك وعياً تدريجياً يتأسس في الأميركيين بالنسبة للقضية الفلسطينية، وللحقوق الأساسية الإنسانية للفلسطينيين. فعلى سبيل المثال، تشير عمليات مسح للرأي العام أجرتها شبكات التلفزيون الأميركية الكبرى الثلاث، الى أن الالتفات الى الفلسطينيين قد زاد بشكل ملحوظ منذ العام ١٩٧٦. في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥، وجد يانكيلوفنش أن ٥٢ ٪ فقط من الأميركيين الذين تم استفتاؤهم قد سمعوا بمنظمة التحرير الفلسطينية. وبحلول آذار (مارس) ١٩٧٩، ارتفع هذا الرقم الى ٧٧ ٪. اضافة الى ذلك، فان ٤١ ٪ من الأميركيين الذين يتابعون أحداث الشرق الأوسط يؤيدون قيام دولة فلسطينية مستقلة، كما جاء في استفتاء لمعهد غالوب في العام نفسه[١].

ان محللين آخرين للرأي العام الأميركي تجاه العرب، مثل جاك شاهين، ادوارد سعيد وادموند غريب يستنتجون أن المجتمع الأميركي قد وضع العرب في المرتبة الأخيرة

---

* الأب دونالد. إي. واغنر، هو رئيس حملة الحقوق الانسانية الفلسطينية في الولايات المتحدة (ايفانستون—ايلينوي). وهذا البحث قدم الى المؤتمر الدولي الخامس الذي عقدته «اللجنة الخاصة بالحقوق الشرعية الثابتة للشعب الفلسطيني» في الأمم المتحدة، من ١٥ إلى ١٩ آذار (مارس) ١٩٨٢، وهو بعنوان: «المسألة الفلسطينية، مواقف حول أنسنة القضية الفلسطينية في الرأي العام الأميركي».

بالنسبة للعقلية الاعلامية. ودراسات هؤلاء تشير الى مواقف عنصرية متطرفة، تستوي في ذلك صورتهم في البرمجة التلفزيونية، أو صناعة السينما أو الكاريكاتير أو في الوسائل الأخرى التي تصنع الرأي العام في المجتمع الأميركي[٢].

في هذه الكلمة سوف أؤكد أنه بينما نبدأ في رؤية انفتاح جديد لمعالجة القضية الفلسطينية في الولايات المتحدة، لا تزال هناك عقبات ضخمة تحول دون تعرف الأميركي على القضية الفلسطينية كقضية انسانية. وان أمامنا مهمة مزدوجة، اذا ما أردنا أن نجعل النظرة الأميركية للقضية الفلسطينية أكثر ايجابية. فأولاً، علينا أن نحلل طبيعة العقبات التي تقف في وجه الفلسطيني في الولايات المتحدة؛ وثانياً، يجب أن نبحث عن عدد من الميادين والوسائل التي يمكن منها وبواسطتها أن نطرح المسألة الفلسطينية، كمسألة انسانية مشروعة. وهدفنا من هذا يجب أن يكون الضرب على وتر انساني مستجيب في الشعب الأميركي حول هذه القضية. وهذا الهدف يمكن رؤيته، كمرحلة تالية في عملية تطوير الوعي والتفهم الأميركيين للمسألة الفلسطينية.

انني لا أعالج هذه المهمة من زاوية محددة، كالعلوم السياسية، أو الاجتماع أو علم التواصل الخ... فما سأحاوله هنا هو البحث المتعدد الأبعاد في المسألة الفلسطينية: العقبات التي تقف في وجهها وحظوظها في الاطار الأميركي. وانني أتابع هذه المسألة بالاعتراف المنحاز بأن القضية الفلسطينية هي قضية مشروعة وعادلة في لب الصراع الأوسع العربي ــ الاسرائيلي. اضافة الى ذلك، فانني أؤمن بأن المطالبة بالحقوق الانسانية الأساسية للشعب الفلسطيني، لا تؤدي بالضرورة الى انكار حق اليهود أو انكار حق العرب في ممارسة حقوقهم الانسانية بالكامل*.

وقبل أن أبدأ، هناك حقيقة قاتمة يجب أن أعلنها. انه لمن السذاجة، ومن العبث لنا، أن نعمل، ولو للحظة واحدة فقط، متوهمين أنه بمجرد أن نتعرض للقضية الفلسطينية في سياقها الانساني، فان السياسة الخارجية الأميركية ستتغير، او أن العدالة ستأخذ مجراها. لقد آمن الفلسطينيون لسنوات عديدة أن العدالة الأساسية لقضيتهم سوف تكتسب تأييداً عالمياً، وأنهم سيعودون بالتالي الى أراضيهم. ان الحقبة التي نعيش فيها هي أكثر من معقدة وتسيطر عليها أكثر أشكال «سياسة الأمر الواقع» شيطانية. ولسوء الحظ فان العدالة ليست، بطبيعتها، من معالم عالمنا.

انني أستطيع، كأميركي، أن أكون أكثر بلاهة وغباء، في هذا الأمر، بالنسبة للولايات المتحدة. فنحن مجموعة من البرغماتيين (النفعيين) يحكم علاقاتنا بالشعوب الأخرى مقدار استفادتنا منهم: «ما الذي سنستفيده، وما الذي سيستفيده اقتصادنا وأمننا العسكري؟». وان الجانب الأكثر تشاؤماً في يقول: انه ما لم يكن هناك فوائد اقتصادية وعسكرية للأميركيين فانهم سيبقون الباب مغلقاً في وجه القضية الفلسطينية.

والآن، لنتحول الى بعض العقبات التي يجب علينا فهمها اذا ما أردنا «أنسنة»

---

* القواعد الأساسية لحقوق الانسان جسدها الاعلان العالمي لحقوق الانسان عام ١٩٤٨، ووثيقتان بالحقوق: المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

القضية الفلسطينية لدى الرأي العام الأميركي. ان قائمة بتلك العقبات أبعد من أن تكون محدودة. ولكنني أورد هنا ستاً من العقبات المهمة:

العقبة الأولى: ان القضية الفلسطينية تواجه العقبة التي تجمع بين المخاوف وأحاسيس التفوق الأميركي تجاه شعوب العالم الثالث. فالأميركيون، اجمالاً، ولكن مع بعض الاستثناءات المتنامية، لا يحتفظون سوى بالقليل من الاحترام للعادات الشعبية، والنضال الاقتصادي أو حتى للغات شعوب العالم النامية. فهذه الشعوب تُقيّم عادة في العلن، أو تعرض في وسائل الاعلام كشعوب متخلفة، بدائية، وكأنواع بشرية غير ناضجة فاذا كان التغيير الثوري قائماً، في هذه الشعوب، كما هو حال الشعب الفلسطيني، فان هناك خوفاً من أن الشعوب الفقيرة سوف تنجر الى فلك موسكو أو هافانا أو بكين. وبالنسبة للفلسطينيين فانك تستطيع أن ترفع الرهان مرة أخرى بسبب سياسة ريغان وهيغ التي تساوي بين الفلسطينيين وشبكات الارهاب الدولية، وتصنفهم في خانة الألوية الحمراء.

ان الرد التقليدي الذي يعطيه الأميركيون في التعاطي مع دول العالم الثالث، هو في تحييدها وكسب التأثير عليها، أو في اتخاذ موقف عسكري عدواني حيالها، يفسر عادة بأنه حماية أو اشراف. وعلى رأس هذه الأساليب التي يتبعها الأميركيون تقف المساعدات العسكرية أو الاقتصادية، التي تقود في العادة الى حالة من الاعتماد على التأييد الأميركي للأنظمة الديكتاتورية؛ والوقائع التاريخية التي خلقت مناطق عازلة للشيوعية، كما في فيتنام وايران والسلفادور، لا تحتاج الى مزيد من التعليق.

ان هذه المواقف القائمة على الخوف وعقدة التفوق يجري تكبيرها على يد الحكومة الأميركية الحاضرة، وعلى يد مؤسساتها السياسية، وعلى يد مصالحها الدولية متعددة الجنسية، وبالطبع، بواسطة الاعلام. وعندما تواجه القضية الفلسطينية هذه العقبة المزمنة، فانها تكون أمام صعوبات هائلة. ان الصورة الثورية والاعلامية الفلسطينية تساهم في خلق أسوأ المخاوف بالنسبة للأميركي العادي. ومن هنا فانه تجب مساعدة الأميركيين على فهم القضية من خلال التحليل الأعمق، ومن خلال المواجهات الانسانية للفلسطينيين.

ان التحليل المبسط للصراعات التاريخية السياسية والذي ينتهي بابراز ما هو مع الأميركيين وما هو ضد الشيوعية، يجب أن لا يعتبر قاصراً فقط، ولكن أيضاً، معادياً.

العقبة الثانية: تكمن في ميل الاعلام: الصحف والسينما، الى المسخ. فهذه تعمل على تقديم الفلسطينيين في صور أقل انسانية، وعلى تقديم الاسرائيليين في صور متعاطفة، وكموالين قديرين للأميركيين. ان التحليل الأساسي للاعلام يقودنا الى أن القوة والكفاءة، وصورة «داوود الصغير الذي يهزم جوليات»، تلقى ترحيباً لدى الأميركيين. ومنذ عام ١٩٤٨ وصانعو الرأي العام الأميركي يرسمون صورة انسانية، مقنعة لـ«داوود الصغير» ربطت الولايات المتحدة بالتجربة الاسرائيلية. انني أرفض اضفاء أية قيمة على هذه الرابطة واتحدث الى أولئك الذين صورهم الاعلام على أنهم ارهابيون بشعون أو لاجئون بلا ملامح: أي الفلسطينيون. ان الأميركيين مستمرون في تلقي صورة نصف انسانية للفلسطينيين، صورة وقحة عنصرية وغير دقيقة، كما ظهرت في برنامج ٢٠/٢٠

الذي يقدمه جيرالدو ريفيرا في شبكة تلفزيون اي.بي.سي. قبل نحو عام. ان مثل هذه الوقائع تقدم الى المشاهد، الذي ليس لديه سوى القليل من الوعي السياسي أو التاريخي للموقف. اضافة الى أن العرض يقدم تحت شعار «النقل الموضوعي».

بالطبع هناك أسباب عديدة مقبولة، لاقدام الصحافيين على تحجيم تعليقاتهم أو تقاريرهم بما يتناسب مع المكان والزمان المتيسرين. لكن ما من أحد يستطيع أن يبرر العداء للعرب، الذي هو شكل من أشكال العداء للسامية يوصله للناس هذا النوع من الصحافة، فليس هناك أي نوع من الانسانية في التقارير أمثال التي تقدّم في برنامج ريفييرا، الذي لا يشبه عالم الفلسطينيين الحقيقي ولا يتناسب مع الوقائع الأميركية. ان القليل جداً من التعاطف والعمق والجمال، أو حتى من التنوع المهني للفلسطينيين كشعب، هو الذي ظهر في ذلك البرنامج.

ان ما نحتاجه هو التحليل العميق والتنوع في العرض الاعلامي للشعب الفلسطيني. ان معظم الناس عندما يسألون عمن يعرفون من الأسماء الفلسطينية يبادرون الى ذكر ياسر عرفات، الذي يحتفظون له بمشاعر وصور عرفوها من خلال رسوم الكاريكاتير العنصرية والافتتاحيات المشوهة أو من التقارير المعادية للعرب التي تصفهم زوراً بالارهابيين. لماذا لا يستطيع الأميركيون معرفة الموسيقيين الفلسطينيين، والشعراء الفلسطينيين ورؤساء البلديات، أو العدد الكبير الآخر من الاختصاصيين الفلسطينيين الذين يساهمون بفاعلية في بناء المجتمعات الأخرى في العالم؟! ان المحللين السياسيين والاعلام، بشكل عام، قد قدموا للأميركيين صوراً مضلّلة عن القضية الفلسطينية كما لو أنها هي الحقيقة. ان المهمة التي لم تنته بعد تكمن في اعادة طرح القضية، وابراز العنصر الانساني الذي تنطوي عليه.

العقبة الثالثة: تكمن في فشل العالم العربي في عرض قضيته بطريقة انسانية، بالمقارنة مع الطريقة المتطورة أو المتفوقة جداً، التي يعرض بها الصهاينة قضيتهم. ودعوني أكون واضحاً من البداية حول هذه النقطة. فلست بأي حال، ولست أرغب أن أكون، أحد الذين يعطون أهمية لمقولة ان الصهاينة يسيطرون على الاعلام. اذ أن بعض أفضل الأبحاث عن القضية الفلسطينية، انما تمت على أيدي يهود اسرائيليين أو أوروبيين أو أميركيين. مثل بيريتز كيردون، وعدد آخر في اسرائيل، وعلى يد أريك رولو من الليموند. اضافة الى ذلك فان الاعلام الأميركي صناعة أكثر تعقيداً، من أن تسيطر عليها مجموعة مصلحية واحدة مهما كان ضغطها فعالاً، ومهما كان حجم تواجدها داخل أجهزة الاعلام.

لقد أشار جون وايزمان في مقاله المنشور في دليل التلفزيون تحت عنوان: «المشكلة في الشرق الأوسط»[٣] الى عدد من النقاط المهمة، ومنها: الامتياز الملحوظ الذي يحصل عليه مراسل تلفزيوني أو مراسل صحافي في اسرائيل، بالمقارنة لما يحصل عليه في العالم العربي: كالوصول الى الناس والتكنولوجيا المتاحة، والرقابة الأقل تشدداً، وسهولة الاتصال بشبكات الاذاعة والتلفزيون في الولايات المتحدة هي بين العقبات العملية التي تغلب عليها الاسرائيليون (الذين يعتمدون الى حد كبير على نشر قضيتهم في الغرب). لقد أدرك القادة الصهاينة الحاجة الى مواصلات ذات كفاءة في وقت مبكر جداً، وعندما نقلوا

مقر نشاطهم من لندن الى نيويورك في العام ١٩٤٢، قاموا بخطوة مهمة في اتجاه السيطرة والاشراف على عقول الأميركيين في ما يخص القضية الفلسطينية.

ناحية أخرى من هذه النقطة الخاصة بالكفاءة العربية والتطور الاسرائيلي. تظهر في كيفية استخدام أجهزة الاعلام بازدياد، في تعداد المبادرات السياسية في الشرق الأوسط. فكلا العرب والاسرائيليين يضعون، باضطراد، في حسابهم الآثار التي تتركها الدعاية بالنسبة للمبادرات العسكرية والسياسية. ان عملية كامب ديفيد دفعت مدير احدى شبكات التلفزيون الأميركية الى ملاحظة: «انه يبدو كما لو أن الاعلام كان هو الحلبة الرئيسية للمفاوضات. لا جدال. اننا كنا حلقة الوصل، ولكن من الصعب القول أين تنتهي الصحافة وأين تبدأ عملية نقل الرسالة»(٤).

ما يدعو، أكثر للشك، هو مبادرة مناحيم بيغن لضم الجولان الى اسرائيل في الوقت الذي كانت الولايات المتحدة وأوروبا الغربية مشغولتين في موضوع بولونيا. والذي يبدو هو أن تركيز أجهزة الاعلام على الوضع المتردي في بولونيا، وفر لبيغن التحول الضروري في الغرب، لتنفيذ هذا الاجراء غير الشرعي والمنتظر منذ فترة طويلة، دون أن يواجه سوى القليل من الانتقاد، فقد دل ما تسرب الى الصحافة الاسرائيلية والى تقارير المخابرات على وجود خطة شاملة لغزو جنوب لبنان مرة أخرى في أعقاب ضم الجولان مباشرة، خلف تغطية الاعلام للمسألة البولونية.

هذه التطورات الأخيرة تشير الى المستوى الشيطاني الذي بلغته الألاعيب الصحافية. وما لم تعلن أصوات المعارضة «لا» مدوية، لهذه الترتيبات، عن أية جهة صدرت، فاننا سنرى تدنيات جديدة تتحدى الحساسيات الانسانية.

عقبة رابعة في طريق اضفاء الطابع الانساني على المسألة الفلسطينية، وهي الأثر التخديري للاعلام علينا، في موضوع فهم العنف والاضطهاد الانساني. ان الدراسات تشير الى أن التلفزيون والسينما قد أثرا على قدرتنا على استيعاب وتدبر المعاناة الانسانية. وبالنسبة للعديد منا، فان هذا بدأ مع الاحصاء اليومي، والعرض التصويري للمجزرة الانسانية خلال حرب فيتنام. وبالمثل، فان العدوان الاسرائيلي على لبنان وعلى الفلسطينيين قد ترك أثراً تخديرياً وبلغ درجة التعود. وقد عبرت مقالة نشرت مؤخراً، في مجلة ميدل ايست أنترناشيونال، عن هذا بوضوح، فقد جاء فيها: «لقد أصبح العالم معتاداً على العدوان الاسرائيلي لدرجة أن المعلقين السياسيين أو حتى السياسيين يبحثون، الآن، بلا مبالاة مسألة أين ستكون الضربة الاسرائيلية التالية: أهو غزو آخر لجنوب لبنان؟ أم الحاق قطاع غزة أم الحاق الضفة الغربية أم الحاقهما معاً؟! أم هو ضربة جوية في سهل البقاع؟ انه ينظر الى كل هذه الأمور (رغم أنها تشكل جميعاً خرقاً للقانون الدولي وخرقاً لالتزامات اسرائيل تجاه الأمم المتحدة) ينظر اليها بهدوء وبرودة أعصاب، كما لو أن لاسرائيل كل الحق في أن تقرر لنفسها مكان وزمان مهاجمة جيرانها، وأن تحتل وتسيطر، وبالتالي تستولي على أراضيهم وتطرد سكان هذه الأراضي»(٥).

مرة أخرى، ليس هناك سوى صوت شعبي ضعيف في الولايات المتحدة، كما أنه ليس هناك أي صوت يمكن تصديقه، يصدر عن القيادة في واشنطن. ان الأثر الذي يتركه العدوان الاسرائيلي ليس بالحجم الذي يجعل الرأي العام يقف ضد اسرائيل، ولكن

فقط بالحجم الذي يؤدي بالناس الى تبرير هذا العدوان أو يؤدي بهم الى تجاهله بالنسبة للمستوى التالي للعنف. ان الضحايا يذهبون دون أن يراهم أحد، والأسئلة التي تثيرها تضحيتهم لا تعود مسموعة.

العقبة الخامسة، تتألف من المعارضة السياسية والاقتصادية للقضية الفلسطينية، داخل برامج الأحزاب الأميركية. ان الحركة الصهيونية تحظى بدعم كلا الحزبين الديمقراطي والجمهوري، منذ اعادة انتخاب الرئيس ترومان في العام ١٩٤٨. اضافة الى ذلك، فان المساعدة الخارجية والعسكرية الأميركية لاسرائيل تزيد الآن عن ٣,٥ مليارات دولار كثمن لرعاية مصالح أميركا في الشرق الأوسط. وفي ضوء هذين العاملين فقط، فان الدولة الفلسطينية المستقلة لا تخدم المصالح السياسية والاقتصادية الأميركية في المستقبل القريب.

ان أي سياسي يبدأ حواراً مع منظمة التحرير الفلسطينية، أو يدعو الى قيام دولة فلسطينية هو سياسي يبحث عن المشاكل. ولنعتبر رجل الكونغرس الديمقراطي عن ولاية الينوي، بول فندلي، الذي أعلن صراحة أنه يؤيد اقامة حوار مع منظمة التحرير الفلسطينية، فرغم أنه ليس في مقاطعته من اليهود سوى ما يوازي ٥٪ من أصوات الناخبين، فان المنظمات الصهيونية، عبر البلاد جميعها أنفقت مبالغ ضخمة من المال لاسقاطه في انتخابات الكونغرس عام ١٩٨٠. لقد أعيد انتخاب فندلي، ولكن حملة الانتخابات التشريعية لعام ١٩٨٢ قد بدأت الآن، باجتماعات في معابد اليهود في شيكاغو، وهناك حملة قائمة تحت عنوان «من أجل حماية تراثنا».

بوجود الصهيونية وبالأحزاب السياسية التقليدية الأميركية المتمرسة في المسألة الفلسطينية، يمكننا أن نخطو خطوة أخرى للقول ان هذه السياسات قائمة في أجهزة الاعلام. وسوف أقول ان الاعلام الأميركي، بوجه عام، يعكس سياسات الحكومة، ومع وجود مجال لتعدد وجهات النظر، فان هذا الاعلام، مستمر في أخذ صوره الأساسية ومادته الضرورية مما يدعوه ادوارد سعيد بـ«جهاز صنع السياسة»؛ وادوارد سعيد يوضح العناصر التالية: «ان الانتلجنتسيا، متحالفة مع استراتيجيي جماعة الضغط الجيوبوليتيكي. وهذه واقعة تحت ادارة مؤسسات قوة ضخمة ــ شركات الزيت، والشركات الكبرى والشركات متعددة الجنسية، وجماعات المخابرات وجماعات الدفاع والفرع التنفيذي للحكومة»[٦].

وهذا يبدو أنه ينطبق مباشرة على اهتمامنا باضفاء الصفة الانسانية على القضية الفلسطينية. وهو يفسر لماذا يستمر تجاهل الارهاب الحكومي الاسرائيلي، ضد الفلسطينيين من قبل ممثل الولايات المتحدة في الأمم المتحدة، وكذلك في أجهزة الاعلام الأميركي؟ وهو يساعدنا، أيضاً، في فهم لماذا يتجاهل التقرير السنوي عن حقوق الانسان، الذي يصدر عن وزارة الخارجية الأميركية، الوثائق التي تعدها ثماني منظمات دولية متخصصة في هذا الشأن، والتي تؤكد أن اسرائيل تعذب السجناء الفلسطينيين؟ وهو، أيضاً، يوضح لماذا يتم تجاهل تقارير هذه المنظمات من قبل أجهزة الاعلام؛ ولماذا تم اغفال البرقيات الشهيرة لالكسندرا جونسون؟

والنتيجة هي أن الاعلام يعكس سياسات الحكومة الأميركية، وتلك الصور،

والنقص في المعرفة والتأكيدات الخاصة، تتسرب بالتالي الى القواعد الشعبية بصور عن الفلسطينيين تتجاهل كرامتهم الانسانية.

ولتأكيد هذه النقطة، بواسطة مثال من مجال مغاير، لكنه ذو علاقة بذلك، فان دراسة نشرها معهد الاعلام في الأول من آذار (مارس) ١٩٨٢، ينتهي فيها الى أن شبكات التلفزيون اعتمدت بشكل مكثف على مصادر حكومية من أجل الحصول على معلومات عن أزمتي البترول في العامين ١٩٧٣ و ١٩٧٩. وقد قال مدير معهد الاعلام ليونارد. جي، تيبيرج: ان الدراسة دققت في تقارير شبكة التلفزيون أثناء الفترتين اللتين تعرضت فيهما أميركا لنقص في البترول، وارتفعت فيهما أسعاره ارتفاعاً هائلاً. وقد عالجت آلات الكومبيوتر ١٤٦٢ تقريراً مدتها ٣٩½ ساعة من البرمجة في الفترتين، وكان من نتائجها ما يلي:

١ ــ أسهمت الحكومة بـ ٥٦٪ من المعلومات. والشركات البترولية بـ ١٧٪، والرأي العام الخارجي (الأكاديميون، الاقتصاديون الذين ينتمون الى مؤسسات مالية) لم يساهم سوى بـ ٢٪ فقط.

٢ ــ ولدى البحث عن الحلول، وفر السياسيون والرسميون الحكوميون ٧٧٪ من الاجابات(٧).

فاذا ما أريد لدراسة مماثلة أن تجرى عن الفلسطينيين، فانني أعتقد أن النسبة ستكون أعلى بالنسبة لدور مصادر الحكومة.

العقبة الأخيرة من أجل أنسنة القضية الفلسطينية، هي عقبة نادراً ما بحثت صراحة، وتحتاج الى ايضاح أوسع. وهي عقبة، يداهم المرء لدى بحثها شعور بالغوغائية، ويستعد لتلقي الاتهامات بأنه مخبول اذا ما تحدث عنها في العلن. وأنا أشير هنا الى المناخ المعروف من التخويف والتكميم المباشر للمتحدثين باسم القضية الفلسطينية في الولايات المتحدة.

يكتب الصحافي البريطاني من صحيفة المانشستر غارديان، مايكل آدمز الذي يعرف هذا الوضع عن خبرة شخصية فيقول: «ان الصحافة تتعاطى مع قضية الشرق الأوسط بطريقة مختلفة تماماً عن تلك التي تتعاطى بها مع المشاكل الأخرى المثيرة للجدل. فوجهات نظر متشعبة عديدة، حول القضايا الأخرى قد تم التعبير عنها دون حاجة للاعتذار، ولم يكن هناك، حسب معرفتي، أية محاولة جماعية لاضطهاد، أو تكميم وجهات نظر هذا الطرف أو ذاك، بالنسبة لتلك المشاكل المثيرة للجدل. ولم يكن هناك على ما أعتقد، أية محاولة منظمة للتعتيم على شخصيات أو الاضرار بسمعة أولئك الذين حاولوا ايقاف التلاسن ضد هذا الطرف أو ذاك. لكن النزاع بين العرب واسرائيل يمثل صورة مختلفة جداً. ففي هذا النزاع هناك محاولة جماعية لمنع طرف من الطرفين عن التعبير بحرية. وانني في الواقع، سأذهب الى أبعد من ذلك، وأقول: ان احدى المهمات المقصودة والواعية للاستراتيجية الصهيونية، هي منع، نشر مادة تتعاطف مع العرب، أو مادة ناقدة لاسرائيل، كلما أتيح لها ذلك»(٨).

ان تجربتي العملية المحدودة في القضية الفلسطينية في الاطار الأميركي تؤكد هذه النقطة. وربما تكون أوضح الصور التي يمكن أن أعرضها هنا هي قصة زياد أبو عين:

شاب فلسطيني سلمته الحكومة الأميركية الى اسرائيل في ١٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٨١، بعد معركة طويلة ومعقدة في المحكمة. ان الذين عملوا في هذه القضية معاً، كانوا يواجهون بالاحباط، لدى كل منعطف، بواسطة تدخل وزارة الخارجية الأميركية في العملية القانونية وبسبب دورها في الاعلام. فمثلاً أعلن ناطق باسم الخارجية في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩ للاذاعة الوطنية العامة، قبل أن تبدأ المحاكمة، أن زياد مذنب بممارسة الارهاب. كذلك فان المكتب الصحافي لوزارة الخارجية هو الذي نشر قرار تسليم زياد الى اسرائيل، قبل وقت طويل من ابلاغ محامي الدفاع، أو أسرة السجين، أو مؤيديه، وهكذا فان أول كلمة تلقاها الجميع كانت وجهة نظر الحكومة، كلمة كلمة، ومن خلال محطة اذاعة الوطن.

هناك ناحية أخرى في هذه العقبة، تتمثل في رفض الصحافة الكتابة عن معاناة زياد، خاصة عندما كان لا يزال في شيكاغو. وبلا جدال، فان السبب الرئيسي لذلك، كان افتقارنا الى الأسلوب الناجح في تعاملنا مع الاعلام، وكذلك فشلنا في اقامة تنسيق بين حملات الجماعات العربية ــ الأميركية المتعددة. على أي حال، فان عدداً من المؤتمرات الصحافية والحملات الاعلامية، والاتصالات الهاتفية قد أجري خلال عام ونصف العام، ولكن نتائجه جاءت هزيلة.

وفي حزيران (يونيو) ١٩٨١، أظهر عدد من الصحف ومحطات الاذاعة اهتماماً ما بقضية زياد أبوعين. فقد قام مراسل تلفزيوني من شبكة فرعية لإحدى شبكات التلفزيون الوطنية في شيكاغو بوضع تقرير ممتاز جداً عن زياد، ضمنه مقابلة معه في السجن ثم، وفجأة، توقف العرض. وقد أبلغنا المراسل أنه ومحطة التلفزيون تلقيا ضغوطاً لا تصدق. وكان ان غادر المحرر المدينة بعد ذلك بأسابيع قليلة.

بعد ذلك ظهرت في ٢٦ شباط (فبراير) ١٩٨٢، معلومات أخرى تضيف بعداً آخر الى هذه العقبة. لقد انتشرت روايات عديدة عن أن الـ إف. بي. آي. واسرائيل سوف ترسلان جيروم راديك الى اسرائيل في نيسان (أبريل) ١٩٨٢ لكي يشهد أنه سمع زياد يعترف بجريمته. وقد قال السيد راديك، في وثيقة، بعد أن حلف اليمين أمام محام لماذا سيشهد: «لقد جاءني من يدعى جيري هاو من الـ إف. بي. آي. وطلب مني أن أعمل معهم من أجل تجريم زياد أبوعين، وقد دعي قاض اتحادي للتحقيق في وضع زياد وأسرته ومؤيديه. وقبل أن أشهد أمام القاضي، أبلغتني الـ إف. بي. آي. ما علي أن أقوله، وقد أبلغوني أيضاً أن أقول ان زياداً اعترف لي بالتفجير في طبريا. وهذا غير صحيح، اذ أن زياداً لم يعترف لي قط بمسؤوليته عن التفجير»[٩].

ان الضغط الذي مارسته الـ إف. بي. آي ووزارة الخارجية لم يعرقل، تحقيق العدالة في قضية زياد، فحسب، بل ساهم أيضاً في ترويج معلومات، وفي ارهاب أجهزة الاعلام وقمع مؤيدي زياد أبوعين، واجمالاً في التقليل من ادراك الجمهور لهذه القضية الحساسة. ان العقبة الأخيرة هذه، هي عقبة معقدة جداً، وهزيلة التوثيق، ولكنها عقبة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند تقييم الرأي العام حول القضية الفلسطينية.

والآن، لنتطرق، باختصار شديد، الى ثلاثة أو أربعة من الخطوط العريضة العديدة التي يمكن أن نذكرها لتحقيق بعد انساني للقضية الفلسطينية.

لقد أحدث تقرير تلفزيوني من بيروت، عن قصف اسرائيل للمدنيين اللبنانيين والفلسطينيين في تموز (يوليو) ١٩٨١، تعاطفاً من قبل معظم الأميركيين. ولكن المواطن الأميركي تلقى القليل فقط من المعلومات التي لا تكفي لأن يتفهم جيداً ما تلقاه. لقد تم الضرب على وتر حساس ولكن الافتقار الى الخلفية التاريخية، والمناخ الانساني المطلوب أدى إلى تفهم محدود.

أود أن أقول: ان هدفنا من «أنسنة» القضية الفلسطينية يمكن أن يعرّف تعريفاً مزدوجاً: أولاً، من أجل الضرب على ذلك الوتر الحساس بطريقة ايجابية وانسانية، وثانياً، لشرح تاريخ الحركة الفلسطينية وظروفها للجمهور الأميركي، الذي لا يملك سوى القليل من المعلومات عن خلفية السياسات الراهنة في الشرق الأوسط.

انّ رأينا في عملية التوصيل سيكون متحفظاً، في معظم الحالات. ان العديد منا مهيأ لايصال رسالته، السياسية أو التاريخية أو الدينية، بأوضح طريقة ممكنة. ان الخبير الاعلامي أنطوني شوارتز يوصي بأن الرسالة الأساسية ليست هي نقطة البداية، بل يجب أن تكون الثمرة الأخيرة. وهذا الرأي يبدو أنه ينطبق مع اهتمامنا للتغلب على الصورة السلبية للفلسطينيين. ان شوارتز يرى أننا يجب أن نبدأ بالسؤال: «كيف نستطيع أن نضرب على وتر حساس ايجابي لدى جمهورنا»[١٠]، بكلمات أخرى، كيف نستطيع أن تثير القضية والصورة بحيث يناصرها الناس حقاً. لا أن يقفوا ضدها؟

ان شوارتز يقول: ان هذه العملية تنطوي على ثلاثة ميادين للبحث لن أفصّلها هنا، ولكني سألخصها كتحديات تواجه أولئك الذين قد تهمهم القضية وهي:

١ ــ أيّ الصور السابقة السمعية والبصرية مخزونة في عقول الناس، وكيف يمكننا تحويل الناس من النفور الى الثقة؟ (لاحظ كيف أن الاعلان، غالباً ما يقوم على رسالة تمهيدية للثقة عبر ربط السلعة بشخص مشهور يثق الناس فيه أو بمناخ ايجابي).

٢ ــ أيّ أنواع التكنولوجيا يمكننا أن نستخدم في عملية التواصل، والتي هي أفضل ما يعبر عن رسالتنا على مستويات متعددة، آخذين بالاعتبار عدداً مختلفاً من الجماهير الأميركية (وهذه مسألة متى وكيف).

٣ ــ محتوى جديد سوف ينظم على ضوء هذه الوقائع. وفي هذا المستوى تتعاطى مع الرسالة الأساسية التي ترغب في ايصالها[١١].

ان صورة ممتازة لهذه العملية تمثلت مؤخراً في مقابلة أجرتها شبكة تلفزيون إن.بي.سي. مع ياسر عرفات، ومع عدد من قادة منظمة التحرير الفلسطينية. لقد كانت الصور السابقة لعرفات «ساخنة» جداً لجهاز اعلامي كالتلفزيون الأميركي. وكمعظم السياسيين العرب، فان صورة عرفات تعمم على شعبه، وهو متعود على الخطابات الطويلة أمام آلاف الناس في مؤتمرات سياسية معقودة في أماكن غير مغلقة. لقد بدأت مقابلة الـ إن.بي.سي. بعدة مشاهد يألفها عادة الأميركيون ثم تحولت الى مائدة عشاء. ان بحثاً غير رسمي مع عرفات في مناخ بيتي مريح جعل معرفة الأميركيين بعرفات أكثر حميمية وأكثر انسانية. ان المحادثات التي يعقدها الرؤساء الأميركيون بالقرب من موقد النار، والصور المجسمة لوجوههم، هدفها التخفيف من المسافة النفسية ــ الاجتماعية التي تفصل بين الرئيس والجمهور.

هناك عدد من القضايا الخاصة بالاعلام تجب مواجهتها، من استخدام الكلام والصورة الى الصحافة التحقيقية المضطردة. ولكن لأننا في مرحلة بدائية من الوعي الأميركي للقضية الفلسطينية، فان هناك حاجة للضرب على وتر حساس ايجابي من أجل أن نفوز بالاستماع الينا. ما من شيء سهل، أو فوري، أو مضمون في الوصول الى نتائج ايجابية في هذا الأسلوب. فلسوف نحتاج الى سنوات للتغلب على العقبات وعلى الضرر الذي حل بها.

هناك اعتبار آخر يتصل بالاعلام، وهو متشعب، بحيث أننا نحتاج الى التحرك الى ما يتجاوز «المرحلة العربية المقبولة» التي وصلناها مع أنور السادات. لقد كان السيد السادات، لأسباب سياسية متعددة، قادراً على التغلب على العديد من الروابط السلبية التي يحملها العرب في أميركا. بين هذه الأسباب كانت هناك حاجة حكومة الولايات المتحدة للانضمام الى الزعماء الصهاينة لبيع كامب ديفيد الى المستهلك الأميركي، والأهم من ذلك، لخلق متحدث بديل باسم الفلسطينيين: وقد ارتفعت صوره، حتى، كما يشير استفتاء أجراه معهد هارسي في نيسان (أبريل) ١٩٧٩، أن الأميركيين أصبحوا يثقون بالسادات بمقدار ثقتهم ببيغن، في حال نشوب خلاف في مفاوضات «السلام». وفي آذار (مارس) ١٩٧٩ أشار استفتاء لمعهد غالوب أن ٣٦٪ من الذين تم استفتاؤهم يشعرون أن مصر تفعل كل ما تستطيعه من أجل «السلام»، بينما كان ٢٨٪ فقط مستعدين ان يقولوا ان اسرائيل تفعل بالمثل(١٢).

الجبهة التالية في السياسات والرأي العام الأميركيين هي في «أنسنة» الفلسطينيين، بحيث يقبلون كمتحدثين جديرين بالثقة، ليس فقط باسم قضيتهم ولكن باسم السلام في كافة منطقة الشرق الأوسط. اننا لا نحتاج الى حدث اعلامي معقّد كما كان الحال مع السادات. ونحن لسنا بحاجة الى «شخصية ليست خطرة» مصنوعة في غرفة الصحافة بوزارة الخارجية. ما نحتاجه هنا، متحدثون مثقفون انسانيون، ربما نساء يستطعن أن يواجهن الجمهور على أعلى مستوياته الأساسية من الخوف والعنجهية، ويقمن بنقل عمق القضية الفلسطينية. ان هذه العملية يجب أن تتم في الاجتماعات الجامعية، وفي حفلات العشاء الكنسية، وفي برامج أحاديث التلفزيون، وفي اذاعات الأنباء والوسائل الأخرى.

ان آخر ما أود أن أقوله هو عن الحاجة المزمنة لجهد منظم زائد بالنسبة للقضية الفلسطينية، في المستويات المتعددة، بدءاً من الكنائس الى جماعات العرب ــ الأميركيين الى الجهود المنظمة التي تبدأ من القاعدة. ان التجمعات المنظمة في مجتمعنا التعددي، وببنيته السياسية التنافسية، وبعملية صنع الرأي العام المتاحة، سوف تؤثر على الوعي العام وتؤثر على صانعي القرار. وكلما كانت التجمعات أكثر كفاءة وأعرض قاعدة، فان حظها من النجاح يكون أكبر. ومهما كان الحظ، كما يمكن أن تكون عليه الحال، فان الرأي العام والسياسة الحكومية يأخذ كل منهما بيد الآخر، وكلاهما يتأثر بجماعات الضغط.

انني آمل في أن تنهض جماعات من هذا القبيل للعمل للقضية الفلسطينية، فهي سوف تتحاشى اليد الثقيلة لتكتيكات «الأغلبية الأخلاقية» واللوبي الاسرائيلي. ان المكاسب قصيرة الأمد في ظل الضغط المكثف والتسوية، تقود بشكل اجمالي الى تنفير الجمهور على المدى الطويل.

ان هذا المستوى من النشاط يجب أن يأخذ في حسابه كلتا المبادرتين، السياسية وغير السياسية. انه يمكن العمل خلال المؤسسات المسيحية وشبكات الثقافة والتعليم، بواسطة برامج دينية وثقافية. ويجب خوض التجربة في المؤسسات والمنظمات التي ينتمي اليها الأميركيون. ومادامت القضايا مختلفة فان الأساليب، بالضرورة يجب، أن تكون مرنة. هناك دروس مباشرة يمكن تعلمها من تحليل حركة السلام الأوروبية، وظهورها في الولايات المتحدة. مع اتساع الاهتمام مقارنة بحركة أعداء الحرب في فيتنام التي ظهرت في الستينات. فقد ظهرت زعامة على كل صعيد في السنتين الماضيتين. سنّت قوانين تقدم بها أعضاء في مجلس الشيوخ ومجلس العموم، وحملات العرائض الشعبية، وحفلات الموسيقى التي عقدها محترفون موسيقيون، وتكريس هائل من قبل عدد من الكنائس والكنس اليهودية. انه ما من شيء يمكن أن يترجم بأنه معقد كالقضية الفلسطينية، وان حركة مماثلة غير محتملة، لكن هناك الكثير الذي يمكن تقاسمه.

ان العرض، آنف الذكر، حاول أن يتعرف الى البعد الانساني للمسألة الفلسطينية، وأسباب استثنائها من الرأي العام الأميركي، وقدم بعض الاقتراحات لتطويرها. ان الاتجاهات الراهنة في المجتمع الأميركي وفي الشرق الأوسط قد تلغي الامكانات الباقية من القيم الانسانية من أجل التحدث الى الجمهور الأميركي. وفي هذه الحال، فلسوف لا يكون أمامنا سوى خيارات كالمفاوضات السياسية، وحظر نفطي يبدأه العرب، وحرب توقظ «الضمير الأميركي»، لقد مثلت المفاوضات والحظر النفطي امكانات وأدوات لتغيير الرأي العام، في حين أن الحرب ونغمتها النووية ستكون الملجأ الأخير.

لقد تحدى ادوارد سعيد الطبقة الأكاديمية في الشرق الأوسط أن تتحرك، الى ما يتجاوز أنظمتها الخاصة، وأن تتخطى «التحليلات الأولبية» وأن تلائم مهاراتها مع الوقائع اليومية، التي تشل ناس تلك المنطقة. وكلماته تلك يمكن توجيهها الى أنظمة أخرى بما في ذلك مراسلو التلفزيون والاذاعة، والمحررون ومنتجو الأفلام، ورؤساء الكنائس، والرسميون الحكوميون الى آخره.

«ان كل المعرفة هي تفسير، ويجب أن يكون هذا التفسير واعياً في أساليبه وأهدافه، اذا أريد له أن يكون يقظاً وانسانياً». لكن هناك ما ينطوي عليه كل تفسير للثقافات الأخرى هو خيار مواجهة الفرد المتعلم أو المثقف: خيار وضع الفكر في خدمة القوة أو وضعه في خدمة النقد والمجتمع، والحس الأخلاقي. ان هذا الخيار يجب أن يكون العمل الأول للتفسير في الوقت الراهن، ويجب أن يؤدي الى قرار لا الى مجرد تأجيل[١٣].

انني أرجو أن يشغل تحدي أنسنة القضية الفلسطينية، بصدق العقول المبدعة والمنظمات المبدعة. في كل قطاعات المجتمع الأميركي، كحل سلمي لصراع الشرق الأوسط، يتآكل مع كل يوم يمر.

ترجمة
توفيق صرداوي
(عن الانكليزية)

(١) William C. Adams (Editor), *Television Covrage of the Middle East,* Norwood, N.J.: Ablex Publishing Company, 1981, p.20.

(٢) Michael C. Hudson and Ronald White, *The American Media and the Arabs,* Washington: Center for Contemporary Arab Studies, 1980, pp. 39-66.

(٣) John Weisman, «The Blind Spot in the Middle East», *TV Guide,* October 24, 1981, p. 7ff.

(٤) Edmund Ghareeb, *Splitvision,* Washington: Institute of Middle Eastern and African Affairs, Inc., 1977, p. 13.

(٥) *Middle East International,* No. 169, February 26, 1982, p. 1.

(٦) From an unpublished paper, «The Formation of Amrican Public Opinion on the Question of Palestine», by Edward Said, from the Second United Nations Seminar on the Question of Palestine, August 25-29, 1980, p. 384.

(٧) Clark W. Bell, «Marketing (Advertising)», *Chicago Sun-Times,* March 2, 1982.

(٨) Michael Adams, «Reason for Pro-Israel Bias», in *The Arab World: From Nationalism to Revolution,* (Editors: Abdeen Jabara and Janice Terry), Wilmette, Illinois: Medina University Press, 1971, pp. 88-91. See also Mayhew and Adams, *Publish It Not,* London: Longman, Publishers, 1975.

(٩) النص الكامل للتصريح الذي أعلن على الملأ عشية ٢٦ شباط (فبراير) ١٩٨٢ كما نقلته وكالة اليونايتدبرس. وقد أعلن في مختلف الصحف ومحطات الاذاعة. النص الكامل متيسرمن خلال The Palestine Human Rights Campaign Office, 202 South Street, Chicago, Illinois, 60604.

(١٠) Anthony Schwartz, *The Responsive Chord,* Garden City, N.Y.: Anchor Press (Doubleday), 1972, pp. 26-27.

(١١) *Ibid.,* p. 27.

(١٢) Adams, *Television Coverage of the Middle East,* p. 19.

(١٣) Edward Said, *op.cit.*

(١)
المقومات الفنية في نتاجه الروائي

رفيقة بن رجب

غسّان كنفاني غني عن التعريف، ولن أضيف شيئاً إن حاولت أن أعرّف بحياته أو بنضاله، فقد كُتب عنه الكثير؛ غير أننا نلاحظ، من خلال ما كتب، أن شخصيته كمناضل طغت على شخصيته كأديب، وقد أثر ذلك في ما قدّم من دراسات عن آثاره، فكان الجانب الايديولوجي يحتل المكانة الأولى ويطغى على الجانب الفني، وكان الاهتمام بالمحتوى يذيِّل الاهتمام بالشكل الفني. ويمكن أن نقول ان ما ذكر من أحكام فنية كان، في أغلب الدراسات، من قبيل الملاحظات العابرة والانطباعات. ولا شكّ في أنّ اللوعة التي أحدثها استشهاده المبكّر، والرّغبة في أن يتعرف أكبر عدد ممكن من القرّاء على كتاباته هما اللذّان وجّها الدراسات هذه الوجهة. والآن، آن الأوان كي نعطي كتاباته حقّها من الدرس ونضاعف الاهتمام بالناحية الفنية.

لقد التزم غسّان كنفاني بأن يكتب عن الإنسان الفلسطيني، وأن يصوّر قضيته في جميع مستوياتها ويدافع عن حقوقه. التزم بتصوير واقعه برؤية مستقبلية تسعى لتغيير هذا الواقع وبأن يكون قلمه سلاحاً للمحافظة على الذات. ولا شكّ في أن هذا الالتزام جعله يطرح قضيّة الشكل الفني ودفعه لأن يبحث عن أكثر الأشكال خدمة لغاياته. وفي ما كتب نشعر أن هذا البحث قد أضناه؛ فهو ينتقل من شكل إلى آخر، وكأنه يشعر بضيق هذه الأشكال عن أن تحتوي التزامه الكبير، ولعلّه لم يشعر بالرضى عن أيّ منها.

ولقد اخترت أن أدرس الناحية الفنية في رواياته، وهي، في رأيي، تمثّل مرحلة أكثر نضجاً في انتاجه، لأنها جاءت متأخّرة نسبياً؛ إذ أنه، على سبيل المثال، كتب أغلب قصصه قبل أن يكتب روايته الأولى، وإنّ لهذا التأخر الزمني انعكاساً ايجابياً في المستوى الفني للروايات، إذ أمكنه أن يستغل التجربة الفنية التي اكتسبها خلال ممارسة

*في الثامن من تموز (يوليو) عام ١٩٨٢، تحل الذكرى العاشرة لاستشهاد الكاتب والمناضل الفلسطيني غسان كنفاني. وهذه الكتابات؛ بمناسبة ذكرى استشهاده، محاولة لتعميق النظرة النقدية لانتاجه الفني.

القصة. والثاني، لأنّ الرواية، كشكل أدبي، أقدر على تصوير الواقع الفلسطيني المعقد وتطور القضية من مرحلة إلى أخرى.

ولقد تناولت بالدرس العناوين السبعة التي نشرت في الآثار الكاملة، وقد رأيت أنّها تنقسم إلى قسمين هما:

القسم الأول ويشمل روايات: «رجال في الشمس» و«ما تبقى لكم» و«عائد الى حيفا» والجزء الذي أنجز من رواية «الأعمى والأطرش». وقد لاحظت أن هذه الروايات تنتمي إلى شكل فنّي متقارب، فرغم الاختلافات الواضحة في تقنياتها إلّا أنها تحتوي على مقوّمات أساسية تجعلها تصبّ في نفس الشكل الأدبي؛ وهو الرواية التي تعتمد الحبكة والبناء المغلق.

القسم الثاني، ويشمل «أم سعد» وما أنجز من «العاشق» و«برقوق نيسان». وروايات هذا القسم تحمل ميزات خاصة تبعدها شيئاً ما عن هذا الشكل، وإن كانت لا تقطع صلاتها به، لذلك رأيت أن أصنفها في باب الرواية ذات الصبغة الملحمية لأنّها توفر بعض مقومات الرواية، ولكن فيها من التقنيات ما لا يتماشى مع هذا النمط الأدبي ويشرف بها على نمط آخر هو الملحمة، ولا أقصد أنها تشكل ملحمة وإنما لها بعض مميزات الشكل الملحمي؛ فهي رواية ولكنها تصطبغ بصبغة ملحمية.

قد يستغرب البعض هذا التقسيم خاصة وأنّه يجمع أعمالاً تبدو متباعدة؛ لذلك سأحاول أن أبيّن المنطلقات التي اعتمدتها في الحكم على هذه الأعمال. ولن أعمد إلى تحليل كلّ رواية على حدة، لأنّ ذلك يتطلب جهداً يتجاوز هذا المقال، ولكنني سأبيّن النقاط الأساسية التي تتحد فيها أو تتباين، ثمّ بعد ذلك سأحاول تقديم السمات البارزة التي تميّز فنّ الرواية عند غسان كنفاني. وسأبدأ باقرار أن هذه الأعمال هي روايات، ولعليّ بهذا أردّ على بعض التحفظات التي جرت حول بعضها، وربّما كان أوّل ما يبين لنا ذلك هو أنّها أعمال تنطلق من الحياة العامة، وهي ترتبط بفترة تاريخية محددة وبيئة معيّنة. ونحن نقول هذا لأن من مميزات الشكل الروائي الأساسية كونه نوعاً شمولياً يتناول حياة الفرد والمجموعة في مظهرها التاريخي، وهو لا يتحدث عن الإنسان كجوهر ولا يجرده من واقعه بل يبقيه بلحمه ودمه، بكيانه الاجتماعي. وفي هذا الصدد، نلاحظ أن أعمال غسان كنفاني السبعة بعيدة كلّ البعد عن التجريدات والهموم الفكرية، فكل أبطاله ملتصقون بالواقع اليومي بل هو شغلهم الشاغل.

ولقد كانت رواياته تصوّر حياة الأبطال في فترة من حياة الشعب الفلسطيني، وأنّ لهذا التاريخ انعكاساً في سير الأحداث وتوجيهاً لها؛ وهذا ما جعل الأحداث تتغيّر كلّما تغيّر الواقع الفلسطيني وظهرت علامات جديدة فيه. كما أن غسان يهتمُّ بتوضيح صورة أبطاله ويتجنّب أن يكونوا مجرّد خطوط بيانية، إننا نعرف عنهم الكثير، ممّا يساعدنا على تأصيلهم في بيئتهم، فنحن نعرف ظروف عيشهم وكيف يرتزقون وعلاقاتهم ومع من يتعاملون، نعرف ماضيهم وحاضرهم، ونعرف الانعكاسات النفسية لذلك عليهم.

أما النقطة الثانية التي تقوم عليها روائية هذه الأعمال، فهي طريقة ترتيب الأحداث؛ إذ لا يكفي أن يصاغ الواقع بل لا بدّ من أن تشكل الأحداث المعروضة كلاً متكاملاً. يجب أن تكوّن الأحداث وحدة، وهذا شرط ضروري في الرواية؛ إذ لا يمكن أن

تقتصر على عرض مظهر جزئي من الحياة أو على القاء الضوء على لحمة بارزة منها. قد يجوز ذلك في القصة، إمّا الرواية فتسعى الى اعطاء صورة متكاملة عن الحياة والى ابراز اشكالية العالم عبر سيرورة من الأحداث. ولنأخذ، على سبيل المثال «عائد إلى حيفا»، فلو أنّ غسان كنفاني اقتصر على تصوير دخول الزوجين الى حيفا وانتظارهما لابنهما ثمّ اصطدامهما بكونه أصبح جندياً اسرائيلياً لكان لهـا من الحدّة والتوتر ما يجعلها قصة ناجحة تصوّر اشكالية الواقع بطريقة صارخة، ولكن غسّان لم يقتصر على هذه اللمحة بل عرّفنا بماضي الأبطال وبظروف الخروج وكيف عاشه العرب واليهود، وعرّفنا بـظروف الأبطال النفسية وحاسبهم على ما حملوه من أحلام زائفة خلال عشرين سنة، وصدمهم بواقعهم، ثمّ طرح الحل في حكاية «فارس اللبدة». وبذلك، لم يعد البطل مجرّد محور لحدث ما بل أصبح له ماض وظروف وأحاسيس وآراء. كـمـا أن الأحداث تشعبت واقتربت من تشعب الواقع وعكست المرحلة التاريخية المتحدث عنها، وبذلك فانّ هذه الأحداث كوّنت كلاّ تمثل في تجربة الأبطال الأربعة، بماضيها ومستقبلها.

ان روايات غسّان كنفاني ترتبط ارتباطاً عضوياً بالمرحلة، وحتى عندما لا تصوّر البيئة تصويراً مفصلاً، فاننا نستشفُّ العلامات الكبرى التي تحددها، ونعرف المرحلة التي وقعت فيها أحداث الرواية. فقد لا يحدّد الكاتب القرية التي ينتسب اليها الأبطال، ولكن المكان الذي يكيف حياتهم معروف، فهو المخيّم أو الصحراء أو البراري أو بعض المدن العربية. وقد لا يحدّد السنة التي وقعت فيها الأحداث ولكنّها كثيراً ما تحدّد بوطأة السنين. فاحداث «رجال في الشمس» وقعت بعد الخروج بعشر سنوات، و«ما تبقى لكم» بعده بست عشرة سنة و«عائد الى حيفا» بعشرين سنة...

إن عالم الرواية يستمد من الواقع، من الحياة العامة؛ ولكن احداثهـا تعرض كتجربة شخصية لفرد ما أو لأفراد فتبدو الأحداث العامة في الوقت نفسه احداثاً خاصة. وللفرد قيمة في مَحْورة الأحداث، وقد عبّر «لوكاش» عن هذا المعنى في كتاب نظرية الرواية فقال: «ان الرواية هي الشكل القائم على المغامرة، وهي التي تتناسب مع القيمة الخاصة للتبطين. انّ محتواها هو حكاية تلك النفس التي تسعى في العالم لتتعلم كيف تعرف ذاتها وتبحث عن المغامرات كامتحان لها، وبذلك الامتحان تظهر قدرتهـا وتكشف جوهـرها الخاص»(١).

من خلال هذه المقولة، نلمس ظاهرة هامة في الرواية وهي أنها تتمثل في مجموعة أحداث تعترض البطل. وهذه الأحداث هي التي تخلق شخصية البطل فهي شخصيّة نامية تتكشّف شيئاً فشيئاً وتكتمل باكتمال الرواية. ثمّ انّ المحتوى الذي يرمي الكاتب الى ابلاغه يتجلّ عبر تلك الأحداث ومن خلال سلوك البطل. أمّا الخيط الذي يوحّد الرواية، فهو سيرورة التجارب التي يخوضها البطل، أو الأبطال، للوصول الى غاية ما؛ وخلال سعيه يكشف عن سمات العالم الذي نعيشه وتنتهي الرواية بانتهاء تجربته. واذا نظرنا في روايات غسّان، نجدها تقوم على مثل هذه المغامرات فـ«رجال في الشمس» تقوم على مغامرة الأبطال الأربعة في بحثهم عن شيء يعيش في كيانهم. يخرجون في الظاهر للبحث عن المال، والمال هو الواسطة لحاجاتهم الحقيقية؛ فأبو القيس يطلب حقل الزيتون وأسعد يبحث عن الأمن ومروان يحلم بحياة سعيدة لأمّه واخوته، أما أبو الخيـزرَان فيحلم

بالرجولة. اذ هم يبحثون عن هذه الأشياء ولكنّهم ضيعوها حين ضيعوا فلسطين ولن يصلوا اليها بسعيهم الى الكويت، بل انهم بهذا يزدادون بعداً عنها. انّ هؤلاء الأبطال يخوضون تجربة البحث عن قيمة أصيلة ضيّعوها في خضّم هذا العالم المتدهور «عالم التجارة والتهريب». ان فلسطين هي القيمة الأصيلة، وهم واعون ذلك ولكنهم لا يسعون للوصول اليها، ولذلك فان مسيرتهم محكوم عليها بالفشل.

يبحث أبو الخيزران عن المال، عن المزيد من المال، ولكنّه يعلم أن أكداساً منه لا يمكن أن ترجع له رجولته المفقودة ولا حلمه بالمرأة. المرأة التي ترمز الى كل ما هو جميل الى السعادة والرضى عن النفس، الى الاكتمال، لذلك فان تجربته تكشف لنا عن تدهور هذا العالم وفقدانه لقيمه الأصيلة.

ويبحث سعيد س. عن ابنه في اسرائيل،وهو يعلم أنه لا يمكن أن يجده لأنّ الأبواب «يجب أن تفتح من جهة واحدة»، ولكنه يواصل التجربة ويصل الى النهاية الفظيعة، وهي أنّ ابنه أصبح عدوه. كما يبحث الأعمى والأطرش عن البصر والسمع عند عبد العاطي ويكتشفان الوهم المعلّق على الشجرة يزيف أحلام المقهورين. أمّا حامد فيبحث عن الصفاء والطهر عند أمّه التي يمكن أن تكون قد تزوجت هي الأخرى. ان هذه التجارب محكوم عليها بالفشل، وهي بذلك تساعد على فهم الواقع ومعرفة اشكاليته، انّها عالم مصغّر يفضح سمات العالم الكبير: وواضح أنّ غسان كنفاني اعتمد في هذه الروايات نمط التجربة التي تبني بناءاً تصاعدياً يفضح الواقع، ويؤول الى كشف القناع عن استحالة الوصول الى الغاية المقصودة وينتهي بفشل التجربة، وهذه السيرورة هي التي تكوّن الحبكة في هذه الروايات.

أمّا الروايات الباقية، والتي سميتها بالروايات الملحّمية، فهي لا تكوّن عالماً مغلقاً ولا تقوم على تجربة فردية، وانما هي روايات تجعل البطل أكثر التحاماً بالحياة الجماعية؛ وذلك أنّه، على خلاف الروايات السابقة، لا يبطن سمات الحياة ولا يتقمّصها في تجربته بل هي معطاة له يتعامل معها كعامل خارجي واضح المعالم، منفصل عنه، والبطل لا يغامر مغامرة باطنية وليست له مشاكل وعي أو تصادم مع قيم العالم، انّه يفهم العالم ويحاول السيطرة عليه وهو يعرف طريقه. أمّا العقبات التي تعترضه، فهي عقبات خارجية لا تزلزل كيانه وله الحصانة النفسية الكافية لمجابهتها والانتصار عليها؛ وهو واع بما يريد وقد انتهج السبيل الموصلة، لذلك لا تحدث المغامرات فيه تمزّقاً نفسياً و«العاشق» يمشي على النّار و«أم سعد» تبعث بابنها للموت دون أن يتألم أي منهما، لأن في ذلك تحقيقاً لذاتيهما. انّ المغامرة لا تدفع بالبطل الى النهاية الفاشلة بل ترفعه الى النصر المحتوم، لأنّ تجربته ليست تجربة فردية بل هي تجسيد لالتحام مصير الفرد بالمجموعة؛ وهذا الشكل لا يخلق من حياة البطل عالماً مغلقاً بل يجعله يعيش الحياة العامة التي يقدمّها له المجتمع المحيط به.

تعيش «أم سعد» في المخيّم وتمرّ بها مشاكل الحياة اليومية التي يمكن أن تمرّ بأي امرأة في مخيّم من المخيمات، وتواجهها المواجهة المنبثقة من الوعي العام المنتشر في المخيمات، فيبدو سلوكها وكأنّه السلوك العادي لانسان تلك الفترة والذي يستمد قوتّه من ذلك الانفتاح على الواقع. أمّا «العاشق»، فيلتحم بالحياة الجماعية عبر التاريخ وعبر

الحكايات والأخبار التي يحملها الشعب في مخيلته. وقد استعمل غسّان كنفاني طريقة مغايرة لربط الأحداث بالواقع في رواية «برقوق نيسان»، وهي استعمال الهوامش حتى يشعرنا بأنّه يتحدث عن أشخاص حقيقيين. انّ البطل، في هذه الروايات الثلاث، ليس إلّا أداة تصوير للواقع؛ إذ ليس له خصوصيات فردية انّما هو أداة تعبير عن المجموعة في ماضيها وواقعها وأحلامها المستقبلية.

انّ ما ذكرناه ما هو إلّا توضيح للاطار العام الذي تندرج فيه هذه الروايات، ولكنّ غسّان كنفاني يؤمن بضرورة البحث عن أجدى الأشكال لابلاغ أفكاره، ثمّ هو يعيش واقعاً متغيراً لا يمكن أن يدفعه للاستقرار. لذلك كانت رواياته، وان تشابه بعضها في الشكل العام، تختلف في أسلوبها بل تكاد تكوّن كلّ واحدة منها تجربة فنيّة مستقلة.

ولعلّ غسّان كنفاني كان يحدوه، في هذا البحث المتواصل، شعور فني أصيل عبّر عنه أرنست فيشر عندما قال: «انّ وسائل تعبير جديدة لضرورية من أجل وقائع جديدة (...) انّ المسألة ليست تقليد أسلوب ما، بل هي كامنة في ربط أكثر العناصر تبايناً في الشكل والتعبير من هيكل الفنّ ذاته بحيث يجد وحدته في واقع متباين الى أبعد الحدود. انّ كلّ مظاهر الامانة المتزمتة للمناهج الفنية الخاصة هي كائناً ما كانت في تناقض مع المهمة التي تقوم على خلق حصيلة نتائج آلاف السنين من التطور الإنساني ومع مهمّة وصف محتوى جديد بأشكال جديدة[٢]. لقد حاول غسّان أن يجرّب، ولعلّ السمة البارزة في رواياته هي عدم الاستقرار على شكل محدّد، ولهذا وجدنا صعوبة في حصر الأساليب التي استعملها ولعلّ جهدنا سيقتصر على تتبع السمات البارزة في رواياته، ولنبدأ بالبحث في البناء...

ان أقرب رواية عند غسّان كنفاني للبناء الكلاسيكي هي رواية «عائد الى حيفا»؛ حيث تسير الأحداث فيها سيراً خطياً متواصلاً وتتعقد الحبكة بوضوح، ثمّ تنحل في النهاية؛ ولكن غسّان يقحم فيها حكاية أخرى تبدو كأنها تستفزّ البناء الأصلي وتقلقه؛ وهي حكاية «فارس اللبدة» التي لا ارتباط لها بالرواية الأصلية الا من حيث الايحاء بالخاتمة. وفي رواية «رجال في الشمس»، اعتمد من حيث سير الأحداث على التوتر المتصاعد، ثمّ أنهى الرواية بالحلّ المتمثل في موت الأبطال إلّا أنه أقحم في هذا البناء طريقة اللوحات التي قدّم بها الأبطال الثلاثة في بداية الرواية، وهي لوحات منفصلة لا رابط بينها كما أنه استعمل طريقة مشابهة في «الأعمى والأطرش» عندما صوّر ما يدور في ذهن كلّ من البطلين أو ما يقع له على حدة. وبذلك، نجد في الرواية تتابعاً لفصول تبدو وكأنها مستقلة. على أن هذه التجاوزات في البناء لا تحطمه، وهي من باب التوسيع لا الاخلال. ولكن الرواية التي تضعنا في حرج أكبر هي «ما تبقى لكم»؛ إذ تغيم فيها الحبكة الروائية المتمثلة في بروز المشكل العائلي الذي حلّ بمريم وحامد وجعل علاقتهما تنقطع، وجعل كلًّا منهما يبحث عن خلاصه الشخصي بعد أن تهادن مع الواقع ست عشرة سنة، تغيم هذه الحبكة وراء تقنية تقاطع الشخصيات وتداعي الشعور، بحيث نشعر أنّ الكاتب يذيلها عمداً، وأنّ المقصود من الرواية هو غايات أخرى أعمق من مجرد الأحداث التي تعرضها الحبكة.

ومن خلال هذه الروايات الأربع، نلاحظ أنّ غسان يستعمل البناء الروائي

الكلاسيكي مع ادخال كثير من التغييرات عليه، كاقحام شكل الحكاية داخل الحكاية أو اللوحات المنفصلة أو تداخل الشخصيات؛ وهي تقنيات جزئية تدخل في الاطار نفسه الذي خلقته الرواية البورجوازية، إلا أنه يتحرر منه في الروايات الأخرى ويعمد إلى أسلوب يعتبره أقدر على استيعاب اختياراته الفكرية وايصالها للجماهير، وهو شكل الرواية الملحمية؛ وهذا البناء لا يعتمد الحبكة المتصاعدة بل يرتكز على تركيب لوحات منفصلة توحد بينها الأرضية الاجتماعية أو الشخصية المحورية، وقد استعمل هذا البناء في روايتي: «العاشق» و«أم سعد»، ويوحي لنا ما بقي من «برقوق نيسان» أنها كانت ستتخذ البناء نفسه.

ومن خلال هذه اللوحة القصيرة عن بناء الروايات، نستخلص أنّ غسّان كنفاني لم يترك لنا شكلاً فنياً معيناً ولا بناء محدداً، وإنما ترك مجموعة تجارب فرضها عليه المحتوى المتنوع الذي تناوله ورغبته في أن يصوغ أفكاره في أشكال فنية لا تضيق عنها ولا تزيفها، ولذلك يمكن أن نعتبر أنّ الغاية في بحثه كانت محاولة ايجاد شكل يتماشى مع أفكاره وواقعه، ولقد عبّر عن رغبته في كتابة أدب واقعي ولكن الواقع المتشعب له أكثر من بعد، لذلك لم يستطع أن يستقر على بناء روائي واحد.

وفي المقومات الفنية الأخرى لرواياته، انعكست أيضاً رغبته في أن يكتب قصة «واقعية مائة بالمائة» كما ذكر فضل النقيب في مقاله «عالم غسان كنفاني»[٣] ولقد عبّر غسّان عن ذلك منذ بداية اهتمامه بالانتاج الأدبي ونستطيع أن نعتبر أن رغبته هذه تدلّ على اختبار فني واضح التزم به طوال حياته، وقد تجلّ أيضاً في ميله الخاص للاستماع الى شهادات العديد من أبناء شعبه ليتشبع أكثر بالواقع الحيّ، ونحن الآن سنواصل البحث لنعرف كيف استغلّ هذا الواقع في كتاباته الأدبية، أي كيف وظفه لخلق تعابير فنية ولنستمع إليه يحادث أحمد دحبور عن أم سعد فيقول: «خذ أم سعد مثلاً هي شخصية واقعية اسمها أم حسين، لماذا جعلتها أم سعد مع أني كنت أميناً في احداث حياتها؟ لعلي أردت اعطاءها على الورق فرصة أوسع[٤]. ان هذه الملاحظة، على بساطتها، تدلّ على مفهوم الأدب الواقعي عند غسان كنفاني. أو هي توضح لنا نظرته للعلاقة التي تربط واقع الحياة والأدب. لقد رفض غسان كنفاني أن يكون الأدب نسخاً للواقع أو اقتطاعاً منه، فهو مستقل عنه وإن كان «أميناً» في تصوير أحداثه، وهو يأخذ منه ولكنه يثريه. فلقد أخذ غسان من حياة أم حسين، ولكنه أعطاها فرصة أوسع للحياة في شخصية أم سعد، وكذلك فعل مع كلّ أبطاله؛ فهم من الواقع ولكنهم ليسوا منه فقط، بل ان غسان قد غذاهم بحنان ورعاية وأعطاهم من فهمه وتجربته الشيء الكثير. وعندما نستعرض شخصية غسان كنفاني نجد فيها الشيخ والصبي والرجل والمرأة والعامل والعاطل والمثقف والجاهل، وهي شخصيات نراها حولنا يومياً ولكن عندما نتعمق نجد أنها تتجاوز هؤلاء الأشخاص الذين يعيشون حولنا. ففي تحديد قسماتها، وفي تطوّر نفسيتها، ما يجعلها تجمع مئات الأشخاص فهي تتمتع بثراء نفسي يتجاوز الفرد الواحد، ولها علاقة في التحرك والتعبير لا يمكن أن يتمتع بها شخص حقيقي، وهي بهذه الميزة تستطيع أن توضح ما هو غامض فيه وأن تفضح تناقضاته وتفتح امكانات لتجاوزها، وهي من هنا تكون نماذج تعكس مجموعات واسعة، ولكنها تتفاوت في أبعادها وفي اتساع المجموعة

التي تمثلها، فإن كان «أبو القيس» يمثل صغار الفلاحين الفلسطينيين و«أم سعد» عمال المخيم، وهما نموذجان مرتبطان بانتماء طبقي، محدّد، فإن «حامد» في رواية «ما تبقى لكم» يمثل كلّ فرد من الشعب الفلسطيني فك حصار الماضي وانطلق نحو الفعل والبحث عن مستقبل جديد. كما أنّ «العاشق» هو رمز لفداء وصمود الشعب الفلسطيني بأكمله، وكونه فلاحاً لا يحدد انتماء طبقياً بقدر ما هو عامل تأصيل لهذه الشخصية في التربية الفلسطينية.

إن البعد الرمزي الذي يعطيه غسان كنفاني لأبطاله يجعل من الصعب أن تحشر في اطار الشخصيات الواقعية النموذجية، ولا يتسنى لنا اطلاق صفة الواقعية عليها إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار ما عبر عنه غسان من ضرورة اعطاء أبعاد للشخصية، لاثرائها وبالتالي ضرورة تشبعها بالواقع في تشعبه وتعقده وبما في أحداثه الجزئية من ترابط يجعل عزلها صعباً ولو بغاية التصنيف والتوضيح. ان المجتمع يتكون من أفراد ولكنه ليس مجرّد عدد تراكمي لهم، فهو أيضاً علاقات وهياكل تحكمهم وتتجاوزهم أحياناً، رغم أنهم يخلقونها، وكلّ فرد هو في الواقع فرد ولكنه أكثر من ذلك لأنه يحمل في داخله ما يكون المجموعة ويعكس القوى المتصارعة فيها، ولذلك نجد شخصيات غسان كنفاني تحوي دائماً بعدين: بعداً مباشراً يتمثل في اللمسات الواقعية التي يحدد بها معالمها ونموها الداخلي كالسن والمهنة ومستوى التعليم والمظهر الخارجي وطريقة التعامل وحتى المزاج؛ وهو يتفنن في خلق نماذج متكاملة ويلتزم الصدق في التنسيق بين كلّ مقوماتها الفنية؛ وبعد ثان وهو الذي يربط هذه الشخصيات بخلفياتها الاجتماعية وينطقها بشواغل منطقة ما ويجعل حياتها تعكس سيرورة اتجاه فكري أو موقف معين. وهكذا تتحول الشخصيات الى قوى اجتماعية تتصارع أو الى اختيارات أيديولوجية تتباين، وهكذا تتحول الى تعبيرات فكرية تعكس رؤية الكاتب للمجتمع وفهمه للقوانين التي تسيره. وبهذا التوسع في رسم الشخصيات، يخرج غسان كنفاني عن مفهوم الواقعية التصويرية ليعطي الواقعية رؤية جدلية تجعلها تربط الأحداث بماضيها وتصّور الحاضر وتستشف توجهها في المستقبل. ولنأخذ، على سبيل المثال، مريم في «رواية ما تبقى لكم»؛ فهي في صورتها المباشرة فتاة تشردت كما تشرد غيرها من الفلسطينيين ففقدت بذلك الأمل في حياة زوجية مستقرة وهي تعيش مع أخيها الأصغر الذي لا يقدّر ما تعانيه من حرمان، فهو في شغل شاغل عنها، وقد دفعها اليأس الى ربط علاقة سرية مع رجل انتهازي لا تهمه إلّا لذّاته الشخصية.

وبعد أن حملت منه، اضطر أخوها الى أن يزوجها منه رغم كرهه له، والى أن يهاجر. وتكتشف هي بعد ذلك مدى نذالة زوجها فتقتله. وفي الرواية كثير من اللمسات التي تكمل هذه الرواية الشخصية وتثريها بذكريات وأحلام. وتذكرنا مريم، في هذه الرواية، بشخصية نفيسة في «بداية ونهاية» لنجيب محفوظ، فيما تعانيه من حرمان ويأس وعدم تفهم ممن يعيشون معها، وكذلك تشبهها في الحلّ الذي اختارته للخروج من وضعيتها وهو ربط علاقة خارج اطار الزواج، مما يزيد وضعيتها تعقداً، ولكن هذا التشابه الظاهر يخفي اختلافاً جوهرياً. ان هاتين الشخصيتين مختلفتان كلّ الاختلاف، ذلك أنّ نفيسة تمثل نموذجاً اجتماعياً يعكس أمراضاً وقيوداً تكبل الفرد، بل المرأة

بالذات، فهي ضحية تعكس قيماً متدهورة آن لها أن تتغير. أمّا مريم، فهي ليست فرداً، وهي لاتعكس فئة اجتماعية ضيقة حكمت عليها قيم هذا المجتمع بالانتحار بل هي الجزء الأكبر من الشعب الفلسطيني. هذا الجزء الذي، وإن لم يتواطأ مع العدو، الاّ أنه يقبل الحياة العفنة التي تقدمها له، فينساق فيها سنة بعد سنة ولا ينبهه إلا خروج حامد عبر الصحراء، أي اندلاع الثورة المسلحة؛ إذ ذاك فقط يبدأ بالتململ ويشعر بضرورة التخلص من القيود الداخلية التي تشده الى وضعه العفن وتقتل فيه القوى المتحفزة نحو المستقبل. وما قلناه عن مريم يمكن أن نقوله عن العاشق، فهو عندما داس على النار لا يشبه جان فالجان في قصة البؤساء حين كوى نفسه بالنار، ولا أي بطل روائي له من الصلابة ما يجعله يقوم بعمل غير مادي، وإنما هو الشعب الفلسطيني بأكمله في تحديه لكلّ العراقيل وفي تضحياته التي تشبه الخوارق.

لقد استطاع غسان كنفاني، في تصويره للشخصيات، أن يجعلها في الوقت نفسه شخصاً بعينه ومئات الأشخاص، ففي قسماتها وصراعاتها النفسية وتطورها الداخلي، ما يجسم تكامل الشخص الواحد ويعكس تنوع المجموعات. وقد برهن بهذا عن بحثه الدائم عن الجماعي الكامن في الفرد، وعن ايمانه بأن امكانات الفرد لا تتجلّ إلاّ في حياته الجماعية، ويكشف هذا عن نظرة عميقة للواقع ترفض السطحية والرؤية الخطية أو التجزيئية للامور وعندما نتأمل روايات غسان نجد ان هذه النظرة التي اثرت في تصويره الشخصيات قد انعكست أيضاً في تحديده للاطار المكاني والزماني في الرواية.

فنحن لا نجد طريقة قارَّة استعملها في كلّ رواياته، بل انّه ينتقل في تصوير الاطار من تحديد الدقيق المجزء الى التحديد الفضفاض الذي لا تبرز منه إلاّ المعالم الكبرى. ففي تحديد الاطار المكاني في عائد الى حيفا، مثلاً، يعمد غسان كنفاني الى وصف شوارع حيفا وصفاً دقيقاً وكذلك يصف منزل البطلين، بينما في رواية الأعمى والأطرش، لا نعرف أكثر من أن البطلين يعيشان في مخيم، وليس هنالك ما يساعدنا على معرفة اسم هذا المخيم وموقعه؛ وبقية الروايات تتفاوت أيضاً في مدى تصويرها للاطار. ودون أن نلجأ الى استعراض ذلك نستطيع القول: ان غسّان كنفاني لا يطنب في وصف المكان إلاّ إذا رأى أنه يحمل معنى من المعاني، فهو لا يستعمله كمجرّد اطار للأحداث بل يحمله معان أخرى، ويهمله عندما لا يرى فائدة في استخدامه. كما أن من أهمّ صفات الاطار المكاني أنه لا يمثل عنصر ثبات، فهو كثير التغيير ففي رواية «رجال في الشمس» ينتقل الأبطال من فلسطين الى الأردن الى بغداد الى الكويت، وفي روايته «العاشق» ينتقل البطل عبر ريف فلسطين ولا يكاد يستقر في مكان، وكذلك حامد في ما «تبقى لكم». فهو، أي الكاتب، يبدأ الرواية بالخروج من المكان الثابت الى الحركة. مكان واحد يتكرّر في روايات غسان، والمكان الذي يبدو أكثر ثباتاً هو المخيم، وهذه السمات ليست غريبة في أدب شعب ضيع الاستقرار المكاني وأصبح يوجد حيث لا يريد، ويمنع من المكان الذي يطمح الى الوصول اليه، كما أنّ مجرّد وجوده في مكان ما يمكن أن يشكل خطراً على حياته. ان الفلسطيني يطرد ويستضاف ويستقر ويعمل وينتقل دون ارادة حقيقية منه وكثيراً ما يمثل انتماؤه الى فلسطين حجة مطاردة له.

ان وضعية التشرد التي يعانيها الشعب الفلسطيني تجعل علاقته مع المكان علاقة

متوترة، وقد صور غسان كنفاني هذه العلاقات في كلّ رواياته، وكانت في أغلبها تتسم بالعدوانية ومحاصرة البطل. ففي «رجال في الشمس»، يطبق المكان على الأبطال حتى يلقي بهم جثثاً فوق القمامة؛ وفي «عائد الى حيفا»، يتحوّل الى سوط تأنيب ويصبح كلّ مشهد يشاهده البطلان وخزة ضمير؛ وفي «أم سعد» يصبح مكتب الراوي سجناً، كما يتحول منزل سعاد في «برقوق نيسان» الى مصيدة. ولكن، الى جانب المكان المعادي، يوجد المكان الذي يتعاطف مع البطل ويحميه ونراه بخاصة في رواية «ما تبقى لكم»؛ حيث تنقذ الصحراء حامد هذا العاشق الصوفي الذي تجاوز في عشقها كلّ انتماءاته السابقة، تنقذه من أدران الماضي التي أحاطت به مدة ست عشرة سنة، ومن الشعور بالذل والاستسلام. كما نرى التلال تحمي العاشق في رواية «العاشق» من براثن الكابتن بلاك رغم اصراره العنيد في البحث عليه.

ان تصوير المكان، هذا المقوم الكلاسيكي الأساسي في الروايات الواقعية، يفقد الكثير من سماته، فهو في روايات غسان كنفاني ليس مجرّد اطار للأحداث، ولا هو مجرّد عامل من عوامل ايهام القارىء بواقعيتها، وليس هو مجرد مستقر للبطل بل هو عنصر دافع للحركة، هو قوة فاعلة يمكنها أن تؤثر في سير الأحداث وأن تكيف حياة البطل أيضاً. ويمكن أن نذكر هنا بقيمة المكان في رواية «العاشق»؛ حيث أصبح هو الذي يخلق شخصية البطل ويدفعه الى مغامرات جديدة، فكلما انتقل البطل الى مكان جديد تغيرت صفاته بدءاً من عمله واسمه ونظرة الناس اليه، وصولاً الى تحديد مصيره. لكن أوضح صورة لقيمة المكان في تركيب الرواية تبقى صورته في «ما تبقى لكم»، حيث يقرر غسّان أن الصحراء بطل وأنها بتفاعلها مع حامد تجعله يلقي الساعة ويلقي معها أوهامه الزائفة ويواجه عدوه الحقيقي ويخلق من جديد. ومن هنا، يمكن أن نقول انّ غسّان كنفاني، في كتابته، لا يلتزم طريقة محددة، وخاصة لا يلتزم النمط المتعارف، وإنما يحاول أن يطوع التقنيات الفنية لما تجيش به تجربته من معان خصبة وآراء جديدة. وما ذكرناه عن الاطار المكاني يصح أيضاً عن الاطار الزماني، فالزمن عنده يفقد طابعه الفيزيائي ويصبح قوة فعالة فائقة تطارد الأبطال وهي حاسمة في تحديد مسار حياتهم، فمجرد زيادة بعض دقائق أودت بحياة الأبطال في «رجال في الشمس».

كما أن الساعة، في «ما تبقى لكم»، هي النعش الذي يطبق على البطلين بما يمثله من ذكريات الماضي. وقد تكون هذه القوة إيجابيّة فتدفع الأبطال الى التغيير.

فحامد يلقي الساعة ويتحرّر من هذا القيد ويواجه عدوه، كما أنّ أم سعد ترى في عشرين سنة دافعاً كافياً لتنتقل من خيمة الى أخرى أو على الأقل أن تبعث بابنها عوضاً عنها.

أمّا الزمن من حيث هو ترتيب لأحداث الرواية، فاننا نلاحظ فيه تداخلاً بحيث يختلط الماضي بالحاضر والمستقبل، فالرواية لا تبدأ مع بداية الأحداث بل تبدأ وقد سبقتها أحداث كثيرة كيفت حياة البطل. ويستعمل غسان كنفاني في استحضارها أسلوب التداعي والمونولوج. ولا نجد سيراً خطياً للأحداث بل تتداخل الذكريات والأحلام لتكشف الحاضر وتفسره، وغسان كنفاني لا يهتّم بالزمن المطلق في الرواية فكثيراً ما لا نعرف أية أحداث

سبقت الأخرى وبخاصة إذا كانت تهمّ شخصيات مختلفة في الرواية؛ فنحن لا نستطيع أن نقارن زمنياً الأحداث التي وقعت لأبطال «رجال في الشمس» قبل أن يلتقوا، كما أننا لا نستطيع أن نقرّ ترتيباً معيناً للأحداث التي مرّ بها العاشق. ان هذا الاهمال في الترتيب الزمني ليس قاعدة في كلّ الروايات بل انّ رواية «ما تبقى لكم» تعتمد على التقاطع بين الشخصيات والأزمان. وقد حاول غسّان فيها أن يصوّر الحركة المستقلة في الأحداث والمتوازية في الزمن، فهو ينتقل من بيت مريم الى الصحراء ليصوّر لنا أحداثاً تقع في الوقت نفسه، وهكذا يصبح الزمن هو الموحد لأحداث بعيدة في المكان كل البعد عن بعضها؛ وهو العنصر المنسق للأحداث.

ان ما رأيناه من تداخل الأزمان وعدم اتباعها سيراً خطياً متتابعاً يعكس ما نحسه في الواقع من نسبية، وما في المطلقات من بعد عن الرؤية الصحيحة للأمور، فالإنسان لا يعيش حياته حسب قوانين فيزيائية وانما حسب قوانين اجتماعية ونفسية تجعل للشيء الواحد تأويلات متعددة وتجعل احساسنا بالزمن مختلفاً. أمّا في طريقة السرد، فقد استعمل من الأساليب ما يندرج في نفس هذا الفهم للواقع نفسه، ومن هذه الأساليب، تعليقه على الحدث الواحد من وجهتي نظر مختلفتين. وقد استخدم هذا الأسلوب، على سبيل المثال، في رواية «العاشق»؛ حيث يصف لنا مشي العاشق على النار من وجهة نظر الشيخ سلمان ومن وجهة نظر العاشق نفسه، كذلك صور حادث فراره من الكابتن بلاك من وجهتي نظرهما، وربما أراد بذلك أن يبين العمق الملحمي في الواقع، فهو لا يكتب أسطورة وإنما يكتب ملحمة واقعية وإن كانت تحوي خوارق، فانها متشبعة بالواقع ومحدودة بامكاناته، وما يهمنا هنا هو أن نوضح مدى تحرر غسّان في المزج بين التقنيات للتعبير عما يريد، فهو لا يهتم بالشكل إلا بقدر ما يعبر عن المحتوى الذي يطمح الى تبليغه وهو لا يلتزم بشكل من الأشكال الفنية التزاماً قدسياً، وانما هو يستعمل أشكالاً فضفاضة يمكن أن يطوعها بحرية ويمزج بينها بحيث يولد أساليب جديدة.

بعد هذا الاستعراض السريع لبعض المقومات الفنية التي تخلق عالم الرواية عند غسان كنفاني، يتجلى لنا أنه لم يتعامل مع الشكل تعاملاً جامداً؛ لذلك لم نستطع أن نجد قوالب جاهزة يمكن أن نصب الروايات فيها، ولا اشكال قارة نقيسها عليها. ورغم ذلك، فاننا لا نشعر بغرابة بين هذه المقومات ولا بقطيعة بين تقنيات الروايات المختلفة، فلقد بين لنا التحليل أن الاختلاف الظاهر يتمثل في تعبيرات مختلفة عن نفس الاختيارات الفنية، وأن الأساليب التي استعملها تتباعد ولكنها لا تتناقض وكثيراً ما يكمن الاختلاف في تكثيف بعض التقنيات أو تمطيطها أو مزجها بتقنيات أخرى، وما تجديده في رواية «العاشق» الذي ذكرناه، إلاّ مزج لطريقتي سرد معروفتين في الأسلوب الروائي؛ اذ يمكن لأي كاتب أن يسرد الأحداث في صيغة الغائب أو في صيغة المتكلم، ولكن غسان يستعمل الصيغتين في الوقت نفسه، فأطرافه هنا قائمة على مزج تقنيتين كلاسيكيتين، وما قلناه هنا يمكن أن نقوله فيما يخص الأزمنة والأمكنة وغيرها من مقومات الرواية. ان تحرره في استعمال التقنيات الروائية هو الذي أضفى على آثاره طرافة خاصة.

على أن الدارس لروايات غسان كنفاني لا يمكن أن يهمل ميزة أساسية في أسلوبه، وهي ميزة يصعب تحديدها لأنها ترتبط بلمساته الشخصية وطريقته في الكتابة وبتفاعله

مع انتاجه. ان قراءتنا لآثار غسان تملؤنا حيوية وحماساً، فلأسلوبه سحر لا يصوره إلا تعبير سهيل ادريس عندما صاح «اجعلها [قصص غسان] يا شعب فلسطين قرآنك»(٥). انّ ما يشدنا الى آثار غسان، اضافة الى جودتها الفنية، هو هذا الحماس المبثوث في حناياها، وهذه الشحنة العاطفية التي تغمرها فتجعلها قريبة الى أنفسنا. نألفها ونحنّ اليها؛ إذ أننا عندما نقرأها لا نحسّ ببرودة التحليل الذي كثيراً ما يغمر الروايات الواقعية الاجتماعية، ولعلّ هذا راجع الى ثراء لغته وشاعرية صوره، فهي تشحن كتاباته بدفق عاطفي حماسي، أو الى النغمة الغنائية التي يغمر بها آثاره فيجعل فيها تناغماً عميقاً يؤلف بين أجزائها ويكوّن لحمة أقرب الى الصياغة الشعرية منها الى البناء الروائي. ولعلّ السبب الأعمق لذلك كله هو تعاطف غسان مع ما يقدم من أبطال وأحداث، فكأنما يكتب عن همومه الخاصة، فهو يتألم مع أبطاله ويتفهم مشاكلهم ولم نره أبداً يسخر منهم أو يستهزىء بهم، بل على العكس من ذلك كثيراً ما يدفعه تعاطفه معهم الى تعويض الواقع بالحلم وخلق عوالم خيالية تساعدهم على تجاوز الواقع، ولكن لا يجب أن نعتبر أنه يقدم هذه الأحلام رحمة بأبطاله فقط، بل هي مبنية على ايمان بالتطور التاريخي وعلى تحليل موضوعي لسيرورته. ان الحلم عند المثقف الاشتراكي ينبني دائماً على قناعات راسخة منشؤها ايمانه بالمستقبل. ومن هنا يصلح لرومنسيته بعد نضالي يثريها ويخرجها من هوس الخيالات المجانية؛ فظهور الأم مثلاً بالأرض المحتلة في رواية «أم سعد»، أو طريقة تعرّف العاشق على زينب أو علاقته بالخيل، وكذلك الرؤى التي تتراءى للأطرش في رواية «الأعمى والأطرش»، لا تبعث فينا شعوراً بالاستغراب بل على العكس من ذلك تدغدغ أعماقنا فتيقظ آمالنا وتحيي فينا الايمان بالمستقبل. ان هذه الصور هي صور رومانسية ولكنها صور هادفة وفعالة تسعى الى ايقاظ أحلامنا وتثبت ايماننا بالمستقبل، وهي لا تدفعنا الى الأحلام الخاوية بل تبث فينا الحماس والاقبال على العمل من أجل تحقيق ما توحي به.

وفي الختام، يمكننا أن نقول ان غسّان كنفاني ترك لنا آثاراً روائية استطاعت أن تخاطب وعينا الاجتماعي بمحتواها الملتزم، وأن تخاطب ذوقنا الفني بمساهمتها الجدية في الأسلوب وأن تخاطب عواطفنا وأحاسيسنا بلغتها الشعرية ونكهتها الرومانسية وهو لم يترك لنا شكلاً روائياً محدداً ولكنه ترك أساليب متنوعة ترسي معالم الفن الواقعي الاشتراكي في العالم العربي، وقد صورت لنا هذه الآثار ايمانه بضرورة البحث عن أشكال جديدة تخدم المضامين التي أتت بها الرؤية الاشتراكية وتزحزح الأشكال الجامدة وتقاوم روح المحافظة عند الكاتب العربي.

لقد ترك لنا غسّان مساهمة جدية في تطوير الشكل الفني تدل على سعة اطلاعه وقدرته الفنية وعلى ايمانه، فان الفن يجب أن يواكب الحياة في كلّ أبعادها، وأن يتحدد دائماً وأن يشمل كلّ المشاكل التي يعانيها الإنسان وأن يعلّمه كيف يتجاوزها، ولن يتم ذلك بمجرد الالحاح على المحتوى بل لابدّ من خلق اشكال تتماشى مع الرؤية الجديدة وتستوعبها.

أن الفن الاشتراكي لا يحدد تقنيات معينة، وانما هو رؤية تغمر الأثر وتسخّر كل التقنيات لتصب في مصبّ واحد، وتخدم غاية واحدة ألا وهي المحافظة على انسانية الانسان.

(١) Georges Lukacs, *La Théorie du roman* Ed. Gouthier-Bibliothèque Méditations, p. 85.

(٢) آرنست فيشر، **ضرورة الفن** (ترجمة الدكتور ميشال سليمان) بيروت: دار الحقيقة، ص ١٤٠.

(٣) فضل النقيب، «عالم غسان كنفاني»، في **غسان كنفاني إنساناً وأديباً ومناضلاً**، منشورات الاتحاد، ص ٥١.

(٤) أحمد دحبور، «أول لقاء لي مع غسان كنفاني» **المعرفة**، العدد ١٨٦، سنة ١٩٧٧.

(٥) غسان كنفاني، **الآثار الكاملة**، بيروت: دار الطليعة، المجلد الثاني في (القصص)، مقدمة د. سهيل ادريس.

(٢)
غسان كنفاني: مسار الكتابة... مسار الثورة

فخري صالح

ترسم كتابات غسان كنفاني، في مسار تطورها، جملة التغيرات المتعاقبة على الفكر العربي والكتابة العربية، ويقوم أدبه بتحويل الحدث السياسي الى معادلة في الكتابة، أي ان الأثر السياسي المعلن والمباشر، في مجال الكتابة الروائية والقصصية، يتجلبب بمفهوم الجنس الأدبي الذي يتشكل هذا الأثر في منطوى بنيته.

تتدَّرج كتابات غسان من كتابة الوجود البشري الى كتابة الوجود الفلسطيني ووعي قضاياه المصيرية، أي انها تتحول من كتابات وجودية متأثرة بالموجة الوجودية في بداية الستينات، الى كتابة الواقع الفلسطيني في تراكم أحداثه وتحولاته.

ان غسان «ينقل الكاتب والكتابة العربية من حيث كانت وكان، دائماً على الهامش، الى حيث أصبح وأصبحت الآن جزءاً لا يتجزأ من عظم الوجود العربي ولحمه ونخاعه»[١]؛ وهو بذلك لا ينفصل عن تطور الكتابة العربية، بل يلتحم عبر تعبيره الأدبي وممارساته مع التوجه النضالي الذي اختطه لنفسه طوال السنوات الست والثلاثين التي عاشها. وهو يبدأ مسار كتابته من لحظة التشرد واصلاً مراحل تطور الثورة الفلسطينية، ويجذر لهذه الثورة أساساتها نافياً انطلاقتها من حيز الفراغ... وفصل كتابات غسان عن أثرها السياسي والأيديولوجي والتركيز على جمالياتها يفقدها جوهرها وكيانها، على الرغم من أن كتابته قادرة على الوجود خارج الدائرة التاريخية الزمنية لأن الفهم الجمالي مسألة جوهرية متلبسة بكتاباته.

مسار الكتابة... مسار الثورة

تبدأ الكتابة عند غسان من حيز الفعل الثوري، ومن زمنه ومقتضياته، مكرسة أفقها ووعيها لرواية مسار الثورة وتاريخها الفعلي... وهي تبدأ من وعي البدايات وحركة الثورة في مسارها التاريخي مفردة حيزاً واسعاً لثورة عام ١٩٣٦.

هذا الوعي الذي تؤكد عليه كتابة غسان يتسم بكونه وعياً في طريقه الى النضوج،

بمعنى أنه لا يستبق هذا الوعي في مسيرة اكتماله، بل انه يوازي في تطوره الفني بين وعي الكتابة ووعي الفلسطيني في تحققه على أرض الواقع، لقضيته ومصيره.

في عمله القصصي المتشابك «عن الرجال والبنادق»، يجسد تطلعات الثورة الفلسطينية عبر محاكاة جذورها التاريخية القريبة في الكتابة القصصية؛ إذ يستعيد في مجموع لوحاته المتماسكة صورة النضال الفلسطيني قبل ثلاثين سنة من الكتابة دون أن يفقد جوهر رؤيته لتلك المرحلة التاريخية التي حظيت منه بالعديد من الكتابات في أجناس أدبية مختلفة. عبر خمس لوحات أولى، يضع غسان يده على بدايات الفعل الثوري من خلال رواية حكاية «الصغير الذي يستعير مرتينة خاله ويشرق الى صفد»[٢]،، وذلك لموازاة تطور الحركة الثورية من داخلها وتتبع مراحل هذا التطور في ديناميتها وتفاعلها مع زمنها وواقعها التاريخي... فالصغير الذي يستعير بندقية خاله ويذهب لتحرير قلعة صفد هو الهاجس الداخلي والفعل العفوي للثورة. وغسان يبرز الفطرية الثورية في الدفاع عن أرض الوطن من خلال شخص «الصغير» الذي يقطع الطريق من مجد الكروم الى صفد باحثاً عن بندقية يقاتل بها لتحرير القلعة. وهو، في لجوئه الى الشخصيات العفوية، في فهمها ورؤيتها للعمل الثوري، وتعلمه منها، كما رأينا في روايته التعليمية «أم سعد»، يخلص الى فهمه الاجتماعي ــ السياسي للقضية الفلسطينية عبر شخصيات، كانت باعترافه متقدمة عليه في الفهم والممارسة[٣]... وشخصيات رواية «رجال في الشمس» هي التعبير الفني الأمثل عن تلك الفترة التاريخية الغارقة في ذهولها؛ إذ تجسد لحظة اصطدام الوعي السياسي ــ الاجتماعي بجدار الامكانية، امكانية تحقق الثورة عبر ممارسة جماهيرها الحقيقية. وغسان كنفاني، في فهمه السياسي، كان أقل قدرة، في ذلك الوقت، على اجتراح مثل هذا الفهم... ولكن أبطال «رجال في الشمس»، بعفويتهم واصطدامهم اليومي بمسألة الوجود وعدمه، يجترحون بكلامهم وصمتهم هذا الفهم الذي كان غسان غير قادر على تجاوز سقفه الفكري والسياسي عبر الكتابة السياسية... والذات الباحثة عن نفسها، في هذه الرواية وفي مجمل أعمال غسان المكتوبة قبل ١٩٦٧، لا تستطيع الانفلات من قيودها بل تظل مكبلة الى أغلال خلاصها الفردي باحثة في ذلك عن حلها الشخصي، دون أن تعي وتتنبه الى خطأ الممارسة الاّ ضمن شرط تراجيدي هو شرط الموت طريقاً للخلاص. لقد كان على الشخصيات الثلاث أن تموت لتصل من خلال الموت الى أفق السؤال المطروح في نهاية الرواية: «لماذا لم يدقوا جدران الخزان؟».

هذا الحل متجسد في كافة أعمال غسان، وهو يُرْوى بأشكال وطرائق مختلفة، ولكنه يتركز حول معنى واحد يلخص كافة المقولات والرؤى التي تطرح في الكتابة، وهو ضريبة الوطن التي سيدفعها الفلسطيني، فـ«كل فلسطيني سيدفع ثمناً» كما يقول «سعيد س.» في رواية «عائد الى حيفا»[٤].

ان غسان يؤكد، في قصة سابقة زمنياً على «رجال في الشمس»، وهي قصة «الأخضر والأحمر» على مقولة الصراع التي تسيطر على معظم أعماله؛ إذ أنه يبعث الحياة من الموت ويجترح من خلال الرمز رؤية نابعة من جوهر التغير والتحول الذي يتطور عبر مسيرة الحياة البشرية، مرتكزاً على ثنائية وتضاد المسيرة الانسانية... وهذه القصة، على الرغم من بساطتها وعدم تآلف مبناها الرمزي، تحكي الثورة في انبعاثها من تربتها

الوطنية، ولو بعد حين، وهي توحي بالثورة دون أن تقول زمنها، بل تقول ولادتها. «ذلك أنه في المكان الذي سقط فوقه الجبين، في الحفرة المدورة التي صنعتها السقطة، ولد طفل...»[٥]. وكما يتضح من هذه الفقرة المجتزأة من القصة، فان ولادة الصغير هي وعد الثورة في حركتها السرية في ذلك الزمن، زمن النشاط السري للخروج من أزمة الانسان الفلسطيني في منفاه. ان غسان يحاول، في هذه القصة، أن يقول بالرمز ما قالته رواية «رجال في الشمس» بالأحداث، أي أن يرسم أفق البدايات الثورية عبر فهم الجماهير نفسها، من وعيها وتطلعاتها وأزماتها الشخصية... ولهذا، تتحكم الخطابة والكتابة السردية بمبنى هذه القصة الرمزي، لأنها خارجة من لحظة التشبث العياني، ومن أفق الرؤية الكنفانية في بداياتها الكتابية... لقد «صار بوسع أظافره أن تخدش الحديد اذا ما اعترض الانطلاق المصمم. ولم تعد الهواجس الرمادية قادرة على ايقاف الحماس الملتهب لحظة واحدة»[٦]. وهكذا، فان القصة تجسد بالسرد، ما لا تجسده بالرمز، وتقول بالخطابة ما لا تستطيع قوله بالايحاء ولغة الاشارة. «لا تمت قبل أن تكون نداً»[٧]. ان كتابة غسان كنفاني، في بداياته، مرهونة بتصوره وأفق رؤيته السياسية، ولهذا يكتنفها الابهام وغبش الرؤية في بعض قصصه القصيرة، وهو ما يستطيع تجاوزه في رواياته وبعض قصصه القصيرة وخصوصاً قصته المكتوبة في فترة مبكرة نسبياً، وهي قصة «السلاح المحرم» في مجموعة «أرض البرتقال الحزين»... ان غسان يعي في هذه القصة مرحلة أولى من مراحل الكفاح المسلح الفلسطيني، وهي فترة الثلاثينات؛ اذ يروي بصورة عفوية تطور الثورة في وعيها العفوي وتضادها مع نقيضها وصدامها الرئيسي مع المحتل. وضمن هذا التصور تحكي القصة كيف انتزع «أبو علي» بالقوة بندقية الجندي الانكليزي وهرب بها. ومن الواضح أن هذه القصة هي جذر قصة أخرى مكتوبة بعدها هي «العروس»، وهي أيضاً جذر المجموعة القصصية الهامة في نتاج غسان «عن الرجال والبنادق»، والتي تجسد ثورة الشعب وقيامته. ان الراوي يقول لصاحبه: «ابحث معي عنه، حيث أنت، فلدي أخبار جديدة عن العروس»[٨]، ليحل بذلك الاشكال الذي عقده غسان في قصة «السلاح المحرم»؛ حيث سرقت البندقية من أبي علي واختفى هو... لقد ظهر الرجل في البلاد العربية فيما بعد، يبحث عن «العروس» التي هي البندقية. تتضح، من خلال هذا التواصل في انتاج غسان كنفاني الكتابي، الروح الموحدة التي تربط أجزاء نتاجه... فهو يكتب تاريخ الثورة، بدايات هذا التاريخ في هاتين القصتين ليؤسس بذلك لعمله القصصي «عن الرجال والبنادق»، وليحكي في روايته «أم سعد» الرؤية ذاتها ضمن وعي جذري مروي بلغة التفاصيل العيانية، عن أم سعد في اصطدامها مع المنفى، عبر حكايات تعليمية تتنازل قدر الامكان عن البنية الفنية العالية التي تجسدت في روايته «ما تبقى لكم». هكذا، اذاً، تقول الرواية: «بدأت الحرب بالراديو وانتهت بالراديو»[٩]. ان أم سعد تعلم الراوي كيفية رؤية الأحداث في نبضها وحرارتها الواقعية... ولكن هذه الصيغة التعليمية تبالغ في رسم شخصيتها الرئيسية «أم سعد»؛ اذ تصورها في شكلها الثوري دون أن تضع في حسابها حرارة حب الأم لولدها وخوفها عليه، فهي نموذج ثوري مجرد من احساسات الخوف والرهبة. «إذا عاد سعد الى البيت الليلة، اذا عاد، فلن أستطيع تناول الطعام...»[١٠]. ورغم ذلك، فان غسان يستولد من المخيم قيم النضال

والثورة، وهذه المرأة البسيطة، التي عاشت زمن الهجرات الفلسطينية تفهم التاريخ، وتستطيع أن تفهم أن الثورة تولد من رحم الفترة التاريخية من صمود الثوار وثبات أبناء هذه الأمة، فهي تقرر قائلة: «أعمارنا حبس، والعشرون سنة الماضية حبس»[١١].. انها تسد برؤيتها هذه ثغرة النضال الفلسطيني التي رواها غسان في كتاباته السابقة، لأن ثمرة الكفاح تنضج في هذه الرواية التعليمية البسيطة، لتحكي الرواية حكاية المخيم الفلسطيني في المنفى، وتصور وحل المخيم وماءه الذي تغوص فيه أم سعد، وهو الواقع الذي عاشته الجماهير الفلسطينية ــ من قبل ــ. وفي الرواية يأتي هذا القول كمعادل فني للوضع السياسي الذي سبق هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧، فكما أمضت أم سعد ليلتها غارقة في الوحل والماء[١٢]، أمضت الأنظمة السياسية العربية عمرها في وحل التطور السياسي، وهذا ما يمكن استخلاصه من طبيعة اللغة المستخدمة في السرد الروائي، والتي تجري على لسان أم سعد. اللغة تنبثق من تاريخها، من لحظة الصراع المحتدم، ليجترح الكاتب مفرداته.. فـ«أم سعد [علمته] طويلاً كيف يجترح المنفي مفرداته وكيف ينزلها في حياته كما تنزل شفرة المحراث في الأرض»[١٣].

في هذا المنحى، لا يتعقد السرد، ولا تتعقد البنية الروائية عند غسان، بل تأخذ مساراً خطياً في السرد، يتصاعد في بنية القول والحوار، دون أن يتكثف السرد، ويتفجر الصراع في الرواية. رواية «أم سعد» رواية «خطية» اذا أمكننا استعارة الاصطلاح الرياضي، ساكنة في الحدث ومتحركة في الحوار، أي ان حركة الرواية.. منبثقة من حوارها لا من تفجر أحداثها. لتبيان ذلك، نأخذ هذه الجملة الحوارية التي ينطق بها أبو سعد. «هذه المرأة تلد الأولاد فيصيرون فدائيين، هي تخلف وفلسطين تأخذ»[١٤]. ان الجملة تخبر بالحدث في تواصله الزمني، أي في خطه السردي الاخباري... فالقارىء، هنا، أمام النتيجة، نتيجة التاريخ الشخصي لأم سعد، وليس أمام هذا التاريخ اليومي المتراكم في تتابعه الزمني. ان هذه البنية السردية المتبعة في رواية «أم سعد» هي الحالة الكتابية البسيطة، والتعليمية، التي انتهى اليها غسان قبل استشهاده، فأخذ يتنازل عن فنية الكتابة من أجل ايصال مضمونه الكتابي لأكبر قطاع من القراء، المضمون مقابل الفن، والذي لم يستطع غسان أن يواصله في مجزوءاته الهامة «العاشق، والأعمى والأطرش»، لأن الكتابة الروائية لا تتنازل عن قوانينها، وفنان مثل غسان لا يستطيع إلّا البحث عن أعلى حالة في الفن لتجسيد أعلى حالة في الموقف السياسي. ومن الملاحظ، أن هذا الصراع المحتدم في كتاباته بين هاتين الحالتين يأخذ في التصاعد في الفترات الحرجة من تاريخ المقاومة الفلسطينية، انفعالاً بحالة الكاتب السياسي، أو حالة السياسي الكاتب. ولكن غسان يحل مسألة الصراع في مجزوءات لم يتح لها الاكتمال، ولكنها جسدت روحية الكتابة الثورية وتوترها وجماليتها الفنية العالية.

هذه المسألة تثير العديد من الأسئلة حول تطور غسان ككاتب روائي، وقاص، ومسرحي، تعامل مع كافة هذه الأجناس الأدبية، بالاضافة الى كتابات نقدية ودراسات أدبية وسياسية أنجزها في عمر زمني وفني قصير... فهو يتدرج، في وعيه الأدبي، عبر مراحل عمره من تجسيد قلقه الفني[١٥] الى الوصول نحو مشارف الكتابة السياسية..

انه يعكس المعادلة الكتابية العربية* من قلق الوجود الى قلق الكتابة الملتزمة. ولعل هذه الحياة القصيرة والتي هجس غسان بقصرها في مذكراته (أنظر: يومياته) هي المحرض الفعلي على غزارة هذه الكتابات وتوجهها الى مسارها الصحيح.

ان غسان، في كتاباته التي تتناول قلق الوجود البشري، مسكون بحالة الفلسطيني في منفاه، وهو لا يبتعد عن تصوره المتبلور في رواياته وقصصه... فالسياسة هاجسه في مسرح وجودي يبحث عن حل شخصي في عالم جماعي. «انكم تخسرون دائماً لأنكم تبدأون، دائماً، من البداية»(١٦). في منطوى هذه الكلمات، يلح وعي غسان للثورات الفلسطينية المتتالية على نقد الحالة الثورية ومسارها.. وهو في تركيبه الرمزي ــ الوجودي لمسرحيته، بين التساؤل الوجودي في «الباب» وبين حلم الثورات في الاستفادة من خبرة متراكمة... وهذا النقد مبثوث في أعمال مختلفة... وهو، كما يبدو، المنطوى الأساسي لنقده المنصب على ثورة عام ١٩٣٦، بالاضافة الى مجموع تصوراته السياسية لحركة المقاومة الفلسطينية أساساً.

كتابة غسان هي نافذته على العالم، ووعيه الكتابي السياسي هو رؤيا جماعية لقضية شعبه الفلسطيني.

فلسطين هي العالم

تنزع كتابات غسان الروائية والقصصية الى الانصباب في دائرة الهم الفلسطيني في معطياته التاريخية والسياسية ــ الاجتماعية، وتتطور من الكتابة في منطوقها الوجودي والانساني الشامل، الى كتابة وعي سياسي فلسطيني خاص ينبعث من خصوصية التجربة الفلسطينية واشكاليتها القائمة على الأرض والانسان... ولكن هذه التجربة الكتابية التي تقول ان «فلسطين تمثل العالم برمته...»(١٧)، لا تنسى أن الكتابة الطالعة من حقل خصوصيتها، خصوصية التجربة، تجربة الفرد وتجربة الشعب الفلسطيني على أرضه وفي منافيه، لا تبتعد بالكاتب إلا «ليمسك بقضيته وانسانها ليلامس بها التجربة الانسانية الشاملة»(١٨). ومن هذا المنحنى يسجل غسان في أعماله تجربة الذات الفلسطينية في بحثها عن خلاصها، من خلاص الفرد الى خلاص الجماعة؛ اذ تتطور هذه الكتابة في رواياته: «رجال في الشمس»، «ما تبقى لكم»، «أم سعد» و«عائد الى حيفا»، من مرحلة الوعي الفردي لمشكلة وجود فردي ينتزع ويسحق، الى مشكلة انسحاق الذات الجماعية وانتصارها على هذا التحدي. من «رجال في الشمس» التي تختزل الذات الفلسطينية في أربع شخصيات رئيسية مهزومة من داخلها، باحثة عن خلاصها وكسبها الفردي، تنطلق أولى بذور الأثر الروائي الكنفاني لبحث الذات واستبصار الهوية الفلسطينية، وفيها يتجسد انسداد الأفق أمام حل فردي... ان الانهيار أمام حائط الهروب والموت داخل الخزان، هو التطور نحو رواية نهوض الذات الجمعية الفلسطينية في بحثها عن خلاصها، وهو ما حققه غسان في رواية «ما تبقى لكم» في وقت مبكر نسبياً عام ١٩٦٦ لمعالم تبلور

---

* نقصد بذلك مجموعة كبيرة من الكتاب والروائيين العرب بدءاً من نجيب محفوظ وانتهاءاً بيوسف ادريس.

حركة وطنية فلسطينية. وكما يقول الناقد يوسف اليوسف: «اذا كان فحوى ما تبقى لكم، من حيث مستواها الظاهري، هو تحرير الارادة المعتقلة تاريخياً، لا تحقيقها، لا انتصارها الكامل على نقيضها؛ الأمر الذي يعكس تماماً مرحلة من مراحل التاريخ الفلسطيني، فاننا ندرك لماذا أسدل غسان الستار على علاقة حامد بالجندي الصهيوني. ها قد تحررت المشيئة الوطنية، وها قد بدأ الصراع من جديد. أما حسم هذا الصراع، فهو متروك للتاريخ، وان يكن غسان قد أفصح عن كيفية اتجاه هذا الحسم، وذلك بتفوق حامد على الجندي»[١٩]. فان تحرر المشيئة الوطنية من قيودها هو ما تنبني في مساره كتابة غسان في هذه الفترة التي سبقت هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧، وسبقت تصاعد حركة المقاومة الفلسطينية بعد الهزيمة مباشرة... وهو تحرر توحي به قصص غسان القصيرة في مجموعها المكتوبة قبل الهزيمة والصادرة في مجموعته «عن الرجال والبنادق» عام ١٩٦٨.

ان هذا المسار من تحرر الذات، الى تحرر الضمير الوطني الجمعي، هو مسار تطور القضية تاريخياً، والذي ترسمه الكتابة الكنفانية في تطورها الفني والأدبي، وهو ما يشبكها مع فترتها اللاحقة وغير المكتملة بموت غسان قبل أن تصل تجربته هدفها الذي تقصده، وهي فترة تصاعد المقاومة بعد الهزيمة مباشرة، اذ أن «أم سعد» في تساؤلاتها عن الفعل الفلسطيني على أرض الواقع وعن دور المثقف في الثورة، و«عائد الى حيفا» واستعادتها للسؤال الجوهري عن النقيض ونقيضه، قد وضعتا الكتابة الكنفانية في حوار حاد مع ذاتها، وهو ما هدف غسان كنفاني الى اثارته... اثارة الأسئلة عن الوجود الفلسطيني في خصوصيته في تجادله مع نقيضه الصهيوني، واثارة السؤال الثوري الفلسطيني في انبثاقه من عالم خصوصيته وانصبابه في كونية الثورة العالمية وبحثها عن التحرر الوطني والاجتماعي... وهذا ما بدا أن غسان قد توصل الى فك تعقداته وتشابكاته في مجزوءاته الثلاث المهمة: «العاشق» و«الأعمى والأطرش» و«برقوق نيسان»، والتي تمثل «العاشق» خصوصاً اعادة صياغة للحركة الثورية الوطنية الاجتماعية الفلسطينية في تبلورها ووصولها الى مشارف ثورة عام ١٩٣٦... ولكن عدم اكتمالها لم يسمح لنا بمشارفة هذا التبلور الرؤيوي عند غسان، لأن السد الذي واجهنا باستشهاده قد قطع عقدة التطور، وهي في طريقها الى حلها.

من الملاحظ أن «العاشق» تبدأ من البدايات الثورية، تاريخياً ومنطقياً، من تاريخ ما قبل عام ١٩٣٦، ومن الفوضوية التي لازمت هذا التوجه... من البطل في تكونه الاجتماعي الأول، أي من الصعلوك الذي تشي نفسيته المتكونة عبر الرواية ووعيه المتجذر في السرد، بأنه سيتحول فيما بعد الى مناضل ثوري... ولكن الانقطاع عند هذا الحد، هو ما يوقف التحليل لهذا المشروع الروائي، وكما يوقف التحليل الذي يمكن أن نعقده لرواية «الأعمى والأطرش» التي لم تكتمل أيضاً. ولكن غسان استطاع فيها أن يحدث نوعاً من التغيير في بنائه الروائي الذي عهدناه، لأنه يلتقط شخصية «الأعمى، والأطرش» ليحل من خلالهما قانون الكون والوجود في تداخله مع قانون الصراع مع النقيض، أي أن الحالة الفلسطينية تنبثق من كونيتها، والميتافيزيقا وتعليل جذورها تؤدي الى الثورة في مستواها الفلسطيني، وتتبع الحوار في هذه الرواية الهامة وغير المكتملة يؤدي بنا الى فهم محركات الثورة وانصبابها في هذا الاطار الذي رواه غسان، من «المعجزات التي يحسبها

[الأطرش] تتدلى من السماء مثلما يتدلى خطاف، نعلق عليه أعمارنا كما تعلق القمصان[٢٠] الى اثنين من الطيرة يلتقيان بعد عشرين سنة، لكن حول حبة فقع[٢١].

ان الكتابة عند غسان، في انبعاثها من حركة الجذور، وتبلورها لا تتمرأى ظاهراً وباطنياً إلّا في حالة نقد ذاتية جمعية متواصلة، حالة نقد تتخطى ذاتها تاريخياً وابداعياً... انها كتابة الفرد المنخرط في خضم العملية الثورية، لا المنفصل عنها، بل المنصهر في بوتقتها... وهكذا يجيء أدب غسان متحداً مع عوالمه التي يرسمها.. «لا يفارق... في حركته الفنية واقع الشعب الفلسطيني في حركته النضالية، فتاريخ كتابته هو تاريخ شعبه منذ أيام النضال الأولى مروراً بتجربة المنفى، وانتهاء بأيام النضال الأخيرة، كتب غسان عن تجربة المنفى في انتظارها ويقظتها»[٢٢]. وهي تجربة تبدأ جذورها في رواية «رجال في الشمس» لتتأصل وتعود لتبدأ من جديد في «الأعمى والأطرش»، من «الصور التي تترابط فتساهم بمجموعها في تقديم رمز فني للجحيم الفلسطيني، هذا الجحيم الذي يعادل الواقع الفلسطيني في المنفى والمحاولات الفردية للهروب منه في الخمسينات وبداية الستينات»[٢٣]. الى الصور المستعادة في حركة ثورة تتنامى وتتبلور... هكذا من الثورة في مرحلة تاريخية معينة مستلبة وغير قادرة على سلوك سبيلها، الى الثورة في تسلسلها التاريخي، في صراع الميتافيزيقا معها، وانتصارها على هذه الميتافيزيقا، وعياً للواقعي واستناداً اليه. ان غسان يروي تاريخ فلسطين في خصوصية التجربة الفلسطينية التي لا تفارق خصوصيتها الا لتتاخم كونية التجربة وتثري حركة الثورة العالمية، ولا تخرج من الذاتي الّا لتدخل في عمومية الحالة وروايتها لتجربة شعب. انها تجربة تكشف التفاصيل وترويها في آن معاً، تزاوج الاختزال بتفاصيله، تفاصيل الكتابة وتفاصيل الحياة.

ذكرى الذنب*

تتمدد ذكرى الذنب على سطح النسيج الكتابي الكنفاني، الروائي والقصصي، لتغور من بعد في ثنايا العمل الكتابي، من سطح الكتابة الى غورها، ومن ذنب الفرد الى ذنب الجماعة، تتجاوز الذكرى مع تضافرها مع عقدة الذنب والخطيئة، حالة الاستدعاء من الذاكرة الى تحقق عيني وملموس في الكتابة، وخصوصاً في رواية «عائد الى حيفا».

من قصته القصيرة «شيء لا يذهب»، تبدأ في التشكل ذاكرة تستدعي خطيئة الفرد الفلسطيني في تخليه وانفكاكه عن تحقيق واجبه، ذاكرة تختلي بذاته لترصد ذنبها في تحققه في زمن مضى؛ اذ يلح غسان، في هذه القصة، على الماضي في اثارته لحالتين من التناقض، حالة الحبيبة المناضلة «ليلى»، وحالة حبيبها المتخاذل والذي يمثل وعي الشعب الفلسطيني الناقص وغير المكتمل في تلك الفترة التاريخية «أواخر الخمسينات»... وهي الوعي الذي ينفتح على ذاته في استبصاره للماضي الذي يحل في حاضر الشخصية

---

* أدين هذا العنوان ليوسف ادريس الذي أثار، في دراسته: «غسان كنفاني روائياً» مسألة عقدة الذنب في روايات غسان. وان كنت آخذ المسألة في التحليل باتجاه مغاير.

القصصية: «شعرت بأنني انسان لايعيش على أرضه، انسان كان يجب أن يبقى طفلاً»(٢٤).

ستكون هذه القصة القصيرة التي كتبها غسان عام ١٩٥٨ بذرة ذكرى الذنب المتولدة عند شخصيات «رجال في الشمس» و«ما تبقى لكم»، وسوف تتطور هذه الحالة عند غسان لتسهم في انضاج الوعي الفلسطيني في مسار اكتماله... ان هذا الحس يعود ليتفجر في كافة روايات غسان ليتبلور باتجاه احلال الفعل الثوري محل ذاكرة تستبصر ماضيها وتستحضره، لتتغلب على حالة نفسية تتكرر في عدد كبير من قصص غسان. ان غسان يُحِل مسألة الوعي بالحالة في بداياته... فهو يدرك العقدة، ولكنه لايستطيع حلها. فكما يغور [صاحبه الشهيد] في أعماق الأرض ويتفتت، يغور في الذاكرة ويتلاشى»(٢٥). ولكن الشخصية لاتريد أن تنسى «رغم كل العذاب الذي يحمله التذكر(٢٦). هنا جوهر الرؤية التي تتحمل بها أعمال غسان. الذاكرة تلح على الكتابة في سيطرتها وتواجدها في النص... وهي، لذلك، تشكل محور النص الكنفاني ومنهاجيته الكتابية، إذ يتفجر النص من ذاكرة تشعر بثقل الذنب الجاثم في محمولها. من هنا تبدأ الكتابة... من حالة الامعان عن أرض البرتقال(٢٧)، أو من حالة المنفي في ابتعاده عن البيت وابتعاده عن طفولته(٢٨)... طفولة مذنبة تستقرىء ملامحها في منفى يشعل ذاكرتها ويحرقها، وطفولة تعجز، في تقدمها نحو النضج، أن تنسى، بل تسير خطوة أخرى في ذكرى الذنب لتستحيل الى صراع بين الذنب ونقيضه، لتلعب الارادة الثورية دورها الأساسي وتستحيل مثيراً داخلياً نفسياً للمواجهة والصراع، التي تتبدى في الروح الصدامية المتواقتة مع بزوغ قمر الثورة في رواية «ما تبقى لكم»، ولكن غسان يدع الباب مفتوحاً على مصراعيه، وعقدة الذنب في الرواية لاتجد حلها، حتى تأتي رواية «أم سعد» ومجموعة «عن الرجال والبنادق». في هذين العملين، تنشط الذاكرة لتسجل حياة المقاومة الفلسطينية في حركيتها ونموها التاريخي. ان الذنب هنا يمّحي ويتضاءل، لتحل محله ذاكرة التاريخ المحملة بالبطولة التاريخية، في نموها وتصاعدها عبر السنين.

ينعكس هذا، على كتابة غسان في شكلها، اذ تتجه الكتابة من حالة الاستيطان الداخلي التي يمارسها غسان على شخصياته في «رجال في الشمس» و«ما تبقى لكم»، الى حالة معالجة الحدث في تطوره سواء عن طريق الحوار، كما في «أم سعد» أم عن طريق الوصف الخارجي وتتبع الحالة شبه الروائية في لغة السرد في «عن الرجال والبنادق»... ومن هنا، فان الذاكرة في قلقها ومحمولها من الذنب لاتظهر في هذين العملين، بل تمّحي وتتلاشى.. وأصوات الخطوات المعدنية التي تدق على الجدار بلا نهاية مثل عكاز فقد اتجاهه(٢٩)، تختفي لتحل محلها أصوات البنادق.

هذه الذاكرة تعود لتنهال في رواية «عائد الى حيفا»(٣٠)، والتي تشكل، في مسار كتابات غسان، جوهر استعادة المفاهيم والرؤى التي صاغها في كتاباته الروائية خاصة... غسان، في «عائد الى حيفا»، يسترجع ماكتبه ليعيد الصياغة ويستخلص مفاهيمه؛ وهذا مايجعل «عائد الى حيفا» أقرب الى رواية «الفكرة منها الى أي جنس أدبي آخر... مايهمنا في هذه الرواية، أن ذكرى الذنب تعود لتصوغ الحالة الروائية عند غسان... في منتصف الرواية يقول سعيد س. بطل الرواية. «كنت أشعر أنني أعرفها، وأنها

تنكرني»[٣١]. هل هي حالة المواجهة في نمط الاستعادة، وامتيال الذاكرة في تحطمها على صخرة الحقيقة؟

ان غسان، في «عائد الى حيفا»، يعالج مسألة طالما تسلطت على بنية الكتابة القصصية والروائية لديه، ولكنه يلجأ الى صياغة مفاهيمية ترتكز على «معنى الوطن»، ليداري عجز الكتابة عن التخلص من ذاكرة تحضر في تكسرها الكياني، وتعجز عن صياغة المُثُل في زمن يفتقر الى المنطق في أخفض درجاته.

فكرة الذنب، هي ما يستولي على أبطال غسان، وهو ما نراه حتى في مسرحياته، وخصوصاً مسرحية «القبعة والنبي»، التي تنبني على هذه العقدة.. والتي تحاول الشخصية الرئيسية في المسرحية أن تكرسها.. ولننظر الى الحوار التالي في هذه المسرحية:

«رقم ١: (يقف) ان المحكمة تسحب اتهامها لكم بارتكاب جريمة قتل لعدم توفر الأدلة المتعلقة بالقاتل والمقتول وأداة الجريمة المزعومة براءة (الظلام، مرة أخرى، ثانية. ثم ضوء مفاجىء على المتهم).

«المتهم: انني أرفض هذا التنصل. أرفض هذا الانسحاب القذر. (الضوء يعم المكان).

«رقم ١: (ببرود) أنت بريء. أنت حر.

«المتهم: لا! لا أيها السادة! أتوسل اليكم بكل قوانين الأرض، يجب أن تجدوا طريقة ما لمحاكمتي.

«رقم ١: (ببرود) نحن آسفون أيها الرجل البريء... لقد بذلنا جهدنا ونبشنا كل حرف كتب في كل مكان. لا فائدة. ان قضيتك استباق لما عندنا، وعليك أن تنتظر.

«المتهم: ولكن ذلك مستحيل أيها السادة. مستحيل (يقف، الضوء عليه فقط) تريدونني أن أخرج من هذا الباب مرة أخرى؟ ليس بوسعكم أن تكونوا قساة الى هذا الحد! أرجوكم.. بريء؟ أي عبء!»[٣٢]. في هذا النص، يتضح أن ذكرى الذنب التي تسيطر على جزء من كتابات غسان قبل عام ١٩٦٧ خصوصاً، وإن عاد ليحللها ويسبر غورها لدفع الكتابة لاعتناق دورها في استثارة الذات الفلسطينية لتحقيق دورها التاريخي. ان الكاتب في غسان يقوم بدور النبي في كشف المعطيات الداخلية والمحركات الوجودية للكائن البشري في مواجهة الفناء!!

أسئلة الوجود

تتحكم، في جزء كبير من أعمال غسان كنفاني القصصية والمسرحية الأولى، أسئلة وجودية مؤرقة، هي أسئلة الوجود الإنساني، التي كان يسألها في بداية حياته الأدبية؛ وهي أعمال تتكلم على الوجود الإنساني وشروطه، وتستوضح الوجود البشري مغزاه...

من هذه القصص التي تخللت مجاميعه القصصية الأولى «أرض البرتقال الحزين»، و«عالم ليس لنا»*، بالاضافة الى مجموع أعماله المسرحية التي كتبها قبل الهزيمة،

---

* أرض البرتقال الحزين نشرت في طبعتها الأولى عام ١٩٦٣. أما عالم ليس لنا فنشرت في طبعتها الأولى عام ١٩٦٥.

نستلمح تأثراً واضحاً بموجة الفكر الوجودي الطالعة قبل الهزيمة، وهو تأثر يتخلل أعمال غسان الأولى، ولا يطبعها بطابعه، بل يترك هامشاً عريضاً للوجود الفلسطيني الذي نقرأه أحياناً بين سطور العمل القصصي وبين ثناياه، وقد نراه في حالة تحققه وعيانيته، وأزمة الوجود الفلسطيني تتخلل العمل وتذوب في بنيته... يمتزج الوجود الفلسطيني المغرب عن أرضه قسراً بأسئلة الوجود البشري التي تسألها هذه الأعمال قائلة اغتراب الذات الفلسطينية في عالم يسحقها ويحاول تذويبها.

تؤكد كتابات غسان على الوحدانية المطلقة التي يعيشها الفرد في جزيرة معزولة، نازفة حركة الداخل عند الشخصية التي تحس وحدتها... فالشخصية تحكي الوجود، الذي يكبلها ويّطرحها... وهذا ما تشعر به كافة الشخصيات في قصص «ذراعه وكفه وأصابعه»[٣٣]، «علبة زجاج واحدة»[٣٤]، «الشاطىء»[٣٥]... ولكن غسان في هذه القصص يؤالف بين الطبيعة في مشهدها الخارجي والداخلية الإنسانية، اذ يتطابق الواقع الخارجي، في انكساره وتحفزه، وعالم الإنسان الداخلي؛ مما يؤكد رؤية غسان في أن تجربة الإنسان شبيهة بتجربة الموجودات، وأزمة الوجود أزمة واحدة منعكسة عن المشهد الطبيعي الذي يحضر في مجموع هذه القصص، والتي تهجس بفعل عربي فلسطيني يحطم قيوده وينطلق مجازفاً في سبيل تحقيق وجوده.

تحكي مسرحية «الباب» هذه المجازفة الخطرة في سبيل فك عرى التجربة البشرية، والمنطوية بحد ذاتها على وعي الإنسان الفلسطيني لوجوده، متخطية حاجز خوفها وقلقها... تنبني المسرحية على فهمها هذا لتسأل أسئلة الوجود، العدم، الخوف، الجبر، والاختيار. ان الصراع بين الارادة التي يحوزها عاد، والقوة الرهيبة التي يحوزها الاله «هبا»... ومن هذا الصراع تتجرد الأحداث وتتحقق جملة المفاهيم التي تطرحها المسرحية.

«في 'الباب' يتعرض غسان لموضوع تمرد الانسان الميتافيزيقي خارج السياق الاجتماعي والسياسي لهذا التمرد. ان 'الباب' عمل فلسفي من الأعمال القليلة جداً لغسان كنفاني التي لا يتناول فيها جانباً من جوانب القضية الفلسطينية. تطرح المسرحية عدداً من الأسئلة التي لا بد وأنها كانت تلح على وجدان كاتبها في تلك الفترة، أسئلة عن الله والصدفة والموت والعالم الآخر، وأسئلة عن الحياة ومعناها وضرورتها»[٣٦]. ولكن هذه الأسئلة تحمل في منطواها اجاباتها على وجود الانسان الفلسطيني في منفاه... فهو منفي ووحيد يشق طريقه وحيداً في نهاية الخمسينات وبداية الستينات دون معونة من أحد، وهو كما يقول غسان في روايته «ما تبقى لكم» «أورثني يقيني بوحدتي المطلقة مزيداً من رغبتي في الدفاع عن حياتي دفاعاً وحشياً»[٣٧]... هذه الوحدة هي المحرك الأساسي لمشاعر القلق الوجودي لدى أبطال غسان في كتاباته، لأن اكتشاف الفلسطيني بأنه يقف وحده بلا سند خارجي يؤدي به الى تمرد ميتافيزيقي قد يقوده الى الثورة أو الى موقف عدمي»[٣٨]. هذا ما تنطق به مسرحياته، وأجزاء من أعماله الروائية، اذ تشكل الأرض بوصفها كياناً بعيداً، جغرافيا لا يصل اليها أبطاله، ذكرى علاقة لا تنفصم، وهاجساً داخلياً يعكس قلق الوجود، فتصبح الأرض موجوداً حياً يتعاطف وينبض بالقربى والحنين[٣٩]. ولا تحل مأساة الوجود هذه في روايات غسان المكتوبة قبل الهزيمة الا

بالالتحام المباشر بين طرفي الصراع، وهو ما ينعكس في «ما تبقى لكم»، ليضع مسألة الصراع الفلسطيني مع العدو الصهيوني في حيز الوجود وفي دائرة التحقق العياني، فتنطق داخلية الشخصية المركزية في الرواية قائلة: «ان حياتي وموتك يلتحمان بصورة لا تستطيع أنت، ولا أستطيع أنا فكهما. ورغم ذلك، فلا أحد يعرف كيف يجري الحساب هنا»[٤٠]... ان ثمة ارتطاماً قدرياً لا يصدق يحصل في أعمال غسان بين أبطاله الفلسطينيين وأطراف الصراع الأخرى[٤١]... انهم دائماً في مواجهة معاداة الوجود: الموت مقابل الحياة، أو الحياة مقابل الموت، واصرار أبطاله على الصراع، هو ما تلتحم معه الكتابة كيانياً، فيصر بطل المسرحية «القبعة والنبي» على الاحتفاظ بالشيء، الذي يبدو ــ كما تشي الكلمات ــ كما لو كان هوية الفلسطيني، شخصيته غير القابلة للمحو، واصراره على الاحتفاظ بهذا الشيء هو بمثابة اصراره على منفاه[٤٢]، انه مدخله الحقيقي الى العالم[٤٣]، ودونه سيرتد العالم الى الغبار والصدأ[٤٤]. والمسرحية تتحمل برموز الوضع الفلسطيني وتتكلم بين سطورها على الواقع الفلسطيني، وانطلاقة الحركة الثورية منظمة ومعبأة، خصوصاً وأنها مكتوبة في أوائل عام ١٩٦٧.. ولكنها رغم ذلك تحكي شرطها الإنساني وتعممه، دون أن يؤثر ذلك على امكانية التعدد في تفسيرها، في محمولها الرمزي ومحمولها الفلسفي المجرد. ولكن ما يعزز هذا المحمول الرمزي، الذي نذهب اليه، هو تشابه أبطالها مع أبطال غسان في رواياته وقصصه التي تحكي القضية الفلسطينية وآفاق تطورها، وهم كما تقول الدكتورة خالدة سعيد: «أبطال مجازفون كيانياً يحطمون اطار الاستقرار الزائف والسلامة المؤقتة»[٤٥].

كتابة غسان، إذاً، هي كتابة الوجود في منطواه الفلسطيني، وهي برحلتها القصيرة في الزمن، تلتحم بقلق الإنسان الفلسطيني في جوهر وجوده... ذلك الوجود الذي يعكس قلق المخاطرة في تحقيق الذات على سؤال الهوية الفلسطينية مقابل مؤامرات الاقتلاع والنفي.

---

(١) غسان كنفاني، **الآثار الكاملة**، بيروت: دار الطليعة، المجلد الثاني (القصص القصيرة)، الطبعة الأولى ١٩٧٣، مقدمة الدكتور يوسف ادريس، ص ١١.

(٢) **المصدر نفسه**، مجموعة عن الرجال والبنادق، قصة الصغير يستعير مرتينة خاله ويشرق الى صفد، ص ٦٢٥.

(٣) أنظر، في هذا الخصوص، حديثاً أجراه معه كاتب سويسري قبل استشهاده، ونشر في **شؤون فلسطينية**، العدد ٣٥، تموز (يوليو) ١٩٧٤، ص ١٣٦.

(٤) غسان كنفاني، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الأول، رواية عائد الى حيفا، ص ٤١٣.

(٥) **المصدر نفسه**، المجلد الثاني، مجموعة أرض البرتقال الحزين، قصة الأخضر والأحمر، ص ٣٥٦.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٣٥٩.

(٧) **المصدر نفسه**، ص ٣٦٠.

(٨) **المصدر نفسه**، قصة العروس، ص ٦٠٦.

(٩) **المصدر نفسه**، المجلد الأول، رواية أم سعد، ص ٢٥٠.

(١٠) **المصدر نفسه**، ص ٢٥٢.

(١١) **المصدر نفسه**، ص ٢٥٥.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ٢٧٠.

(١٣) **المصدر نفسه**، ص ٢٧٨.

(١٤) **المصدر نفسه**، ص ٣٣٤.

(١٥) أنظر: جزءاً من يومياته ١٩٥٩ ــ ١٩٦٠، **الكرمل**، (بيروت)، العدد الثاني، ربيع عام ١٩٨١.

(١٦) غسان كنفاني، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الثالث (المسرحيات)، الطبعة الأولى ١٩٧٨، مسرحية الباب، ص ٨٤.
(١٧) شؤون فلسطينية، **مصدر سبق ذكره**.
(١٨) فاروق وادي، **ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية**، ص ٤٣.
(١٩) يوسف اليوسف، «غسان كنفاني روائياً» **المعرفة**، (دمشق)، العدد ١٧٣.
(٢٠) غسان كنفاني، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الأول، قصة الأعمى والأطرش، ص ٤٩٩.
(٢١) **المصدر نفسه**، ص ٥٠١.
(٢٢) د. فيصل دراج، «الوعي الفلسطيني في الرواية الفلسطينية»، **قضايا عربية**، (بيروت)، العدد الثامن، ١٩٨٠.
(٢٣) د. رضوى عاشور، **الطريق الى الخيمة الأخرى**، بيروت: دار الآداب، ١٩٧٧، ص ٦٤.
(٢٤) غسان كنفاني، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الثاني، ص ٦٧.
(٢٥) **المصدر نفسه**، قصة منتصف أيار، ص ٧١.
(٢٦) **المصدر نفسه**، ص ٧٨.
(٢٧) **المصدر نفسه**، قصة أرض البرتقال الحزين، ص ٣٧٣.
(٢٨) **المصدر نفسه**، ص ٣٧٤.
(٢٩) **المصدر نفسه**، المجلد الأول، ما تبقى لكم، ص ١٧٢.
(٣٠) **المصدر نفسه**، عائد الى حيفا، ص ٣٤١.
(٣١) **المصدر نفسه**، ص ٣٨٥.
(٣٢) **المصدر نفسه**، المجلد الثالث، ص ٢١٩.
(٣٣) غسان كنفاني، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الثاني، ص ٤٤٩.
(٣٤) **المصدر نفسه**، ص ٤٨١.
(٣٥) **المصدر نفسه**، ص ٥٣٥.
(٣٦) د. رضوى عاشور، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥١.
(٣٧) غسان كنفاني، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الأول، ما تبقى لكم، ص ٢٠٤.
(٣٨) د. رضوى عاشور، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٥٠.
(٣٩) غسان كنفاني، **مصدر سبق ذكره**، المجلد الأول، رجال في الشمس، ص ٣٧٠.
(٤٠) **المصدر نفسه**، المجلد الأول، ما تبقى لكم، ص ٣٧.
(٤١) **المصدر نفسه**، عائد الى حيفا، ص ٣٦٨.
(٤٢) **المصدر نفسه**، المجلد الثالث (المسرحيات)، ص ١٦٩.
(٤٣) **المصدر نفسه**، ص ١٦٩.
(٤٤) **المصدر نفسه**، ص ١٧٥.
(٤٥) د. خالدة سعيد، **حركية الابداع**، بيروت: دار العودة، ١٩٧٩، ص ٢٤٠.

اسرائيل وجنوب أفريقيا
تحالف بغيض

على عكس ما قد يوحي به موقف الدولتين العلني من قضية العنصرية، فان تحالفاً اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً قد نشأ بين اسرائيل وجمهورية جنوب أفريقيا كحقيقة مدعمة بالوثائق. ولقد ساهم في اخفاء الطبيعة المتمادية لهذا التحالف واقع أن تفاصيله لم تنشر سوى على نطاق ضيق خارج هاتين الدولتين المعنيتين، ونفي الحكومة الاسرائيلية الشديد في الأمم المتحدة لكل تهم التعاون؛ وسببت الجوانب العسكرية، بشكل خاص، ارباكاً على الصعيد الدولي، كونها مثلت تحدياً لقرار مجلس الأمن بحظر الأسلحة عن جنوب أفريقيا، ولأنها شملت حقل التكنولوجيا النووية شديد الحساسية.

وهدف هذه الدراسة تجميع ما نشر من وقائع حول التحالف واثبات الأهمية الحاسمة لدور اسرائيل الحالي في تمكين جنوب أفريقيا من المضي في تحديها للرأي العام العالمي، عبر سياسة التمييز العنصري، وفي احتلالها غير الشرعي لناميبيا، واعتداءاتها ضد دول أفريقية مستقلة ولا سيما أنغولا. وستكشف هذه الدراسة أيضاً أن اسرائيل، بخرقها حظر الأسلحة الذي أقره مجلس الأمن والعقوبات الاقتصادية والسياسية التي دعت الجمعية العامة الى تطبيقها ضد نظام التمييز العنصري، احتلت موقعاً مهماً في اطار دعم دولي خفي أوسع لجنوب أفريقيا.

العلاقات بين اسرائيل وجنوب أفريقيا: الخلفية من ١٩٤٨ الى ١٩٧٦

تعود جذور العلاقة السياسية بين حكومة جنوب أفريقيا ودولة اسرائيل الى العام ١٩٤٨. وهي السنة التي أعلن فيها قيام دولة اسرائيل، وتسلم «الحزب الوطني» (الأفارقة الوطنيون) السلطة في جنوب أفريقيا. وكانت حكومة الدكتور د.ف. مالان من أوائل الذين اعترفوا، قانونياً، باسرائيل. وفي العام ١٩٥٠، زار رئيس الوزراء الاسرائيلي موشي شاريت جنوب أفريقيا، في أول سلسلة تبادل زيارات على المستوى الوزاري بين الدولتين. وفي العام ١٩٥٣ كان الدكتور مالان أول رئيس وزراء يزور اسرائيل. ومنذ البداية، وعلى الرغم من تاريخ «الحزب الوطني» في التعبير الواضح عن معاداته للسامية ودعمه العلني للنازية قبل وخلال الحرب العالمية الثانية، فقد قدم هذا الحزب الدعم لاسرائيل في مجالين عمليين مهمين: إذ سمح للضباط اليهود الاحتياطيين في جيش جنوب أفريقيا بالخدمة في الجيش الاسرائيلي، وسمح بنقل الأموال والسلع الى اسرائيل[١].

وشمل أول رابط تجاري مهم بين الدولتين تجارة الماس. وأنشأت اسرائيل مصنعاً لصقل الماس في الخمسينات، واشترت معظم ماسها من جنوب أفريقيا بواسطة «منظمة التجارة المركزية»[٢].

ومع ذلك، احتفظت اسرائيل في الأمم المتحدة بموقف المعارضة المبدئية للتمييز العنصري، وصوتت في العام ١٩٦١ الى جانب أول قرار للجمعية العامة يطالب بفرض العقوبات على جنوب أفريقيا. وفي المقابل، ألفت حكومة جنوب أفريقيا، في العام ١٩٦٢، السماح بالانتقال الحر للرساميل الى اسرائيل. وخلال مناقشة الكنيست الاسرائيلي لتصويت الأمم المتحدة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦١، سجّل حزب «حيروت» الذي كان يرئسه رئيس الوزراء الاسرائيلي الحالي مناحيم بيغن انتقاداً لموقف الحكومة الاسرائيلية[٣].

حرب العام ١٩٦٧ وما بعدها

سجلت حرب ١٩٦٧ مرحلة جديدة في العلاقات بين الدولتين، بات التعاون خلالها أكثر توثيقاً بالمعنى العملي وأفضت الى جملة من المصالح تم التعبير عنها بصراحة. ومع أن جنوب أفريقيا كانت محايدة رسمياً في الحرب، فقد تطوع عدد كبير من مواطنيها للخدمة في اسرائيل، وفي المواقع غير العسكرية ظاهرياً، لتمكين الاسرائيليين من المشاركة في الحرب[٤]. وتم رفع الرقابة التي فرضت انتقال الرساميل في العام ١٩٦٢، وذكر أن ٢١,٥ مليون رند أرسلت الى اسرائيل لدواع انسانية[٥]. وقام مركز نقل الدم في جنوب أفريقيا باقراض الدم الى المراكز الطبية الاسرائيلية[٦].

وعبرت صحيفة «دي بورجر» الناطقة بلسان «الحزب الوطني» في العام ١٩٦٨، بوضوح، عن الشعور بالمصلحة المشتركة في قولها: ان كلتا الدولتين «تخوضان صراعاً من أجل الوجود، وكلتاهما في مواجهة مستمرة مع الأغلبية المقررة في الأمم المتحدة، وتشكل كل منهما بؤرة موثوقاً بها للمقاومة في منطقتها، التي قد تغرق بدونها في الفوضى المعادية للغرب. ان من مصلحة جنوب أفريقيا أن تستطيع اسرائيل النجاح في احتواء أعدائها الذين هم من بين أكثر اعدائنا تشدداً. وكذلك فان العالم كله سيجتمع ضد اسرائيل اذا ما فقدت جنوب أفريقيا سيطرتها على الطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح. لقد قادت القوى المعادية للغرب اسرائيل وجنوب أفريقيا الى جملة من المصالح المشتركة التي من الأفضل استخدامها بدل الاستمرار في نفيها»[٧].

واستند التحالف، وفق مناقشاته العلنية على الأقل، الى ثلاث ركائز شكلت قاعدته وهي: شعور مشترك بالحصار بين الجيران المباشرين، وتجربة مشتركة في تشكيل أقلية معزولة ترفض أغلبية الدول الأعضاء في الأمم المتحدة بشدة، التعاطف معها، وعنصرية مشتركة في وجه هذا العزل (وبهذا فانهما الدولتان الوحيدتان في العالم الصامدتان في وجه عدو خارجي مزعوم يهدد النظام الحضاري للأمور).

لقد تطور التعاون في البدء تحت شعار الروابط الاقتصادية. ومنذ تموز (يوليو) ١٩٦٧، دعا مهندس من جنوب أفريقيا الى اقامة «تجمع تجاري لا يهدف للربح لاقامة روابط وثيقة من التجارة والأعمال بين الدولتين»[٨]. وفي هذا السياق تشكلت في اسرائيل رابطة صداقة اسرائيلية ــ جنوب أفريقية، من رجال أعمال وسياسيين وزعماء اجتماعيين آخرين، بناء على مبادرة من اليعازر شوستاك عضو حزب الوسط الحر في الكنيست. في حين أن «مؤسسة جنوب أفريقيا» التي أنشئت في بداية الستينات، برئاسة هاري أوبنهايمر، لتحسين «صورة» جنوب أفريقيا في العالم، في مواجهة الادانة الدولية لسياسة الفصل (التمييز) العنصري، قامت بانشاء لجنة اسرائيلية ــ جنوب أفريقية مشتركة ومتساوية في المستوى والعدد. وكان من بين أعضائها الكولونيل أفراييم شورير، وهو ضابط سابق في الجيش الاسرائيلي ومدير شركة طيران «العال» في جنوب أفريقيا، والدكتور شلوموبير أحد مؤسسي حزب رافي (حزب بن ــ غوريون) الذي هاجر الى جنوب أفريقيا[٩]. وفي نيسان (أبريل) ١٩٦٨، شاركت اللجنة المشتركة في «مؤتمر أصحاب الملايين» الذي عقد في القدس لتطوير التجارة مع اسرائيل[١٠]. وأقام مندوبو جنوب أفريقيا الى المؤتمر، فيما بعد، جمعية اسرائيل ــ جنوب أفريقيا للتجارة (ISATA) التي لعبت دوراً رئيسياً في التطور اللاحق للتجارة بين الدولتين[١١].

وفي آب (أغسطس) ١٩٦٨، نظمت مؤسسة التصدير الاسرائيلية أسبوعاً للأزياء الاسرائيلية في جوهانسبورغ، تم بنتيجته توقيع عقود تجارية مباشرة، قيل ان قيمتها بلغت ٣٥٠ ألف رند[١٢]. وفي ما بين ١٩٦٧ و١٩٦٨ تضاعفت أعمال شركة

«العال» بسبب الزيادة في أجور الشحن الجوي[١٣]، وارتفعت قيمة الصادرات الاسرائيلية الى جنوب أفريقيا من ٤ ملايين دولار الى ٥,٧ مليون دولار، في حين ارتفعت قيمة الواردات من ٣,٤ مليون دولار الى ٥,٢ مليون دولار[١٤].

وخلال السنوات الخمس التي تلت، استمرت التجارة الضعيفة نسبياً بين البلدين في النمو المضطرد، وأقيمت سلسلة من الأسابيع الاسرائيلية في جنوب أفريقيا، بتشجيع من (ISATA)[١٥]، وفي العام ١٩٦٩، أعلنت شركة «تزيم» للنقل البحري المملوكة جزئياً للدولة الاسرائيلية، أنها تشارك بأربع سفن في الخط الفرعي «غولدستار» الذي يصل بين جنوب أفريقيا واليابان، وأن أعمال الشحن على خط أفريقيا ــ اسرائيل ازدادت بنسبة ٥٠٪ منذ حرب حزيران (يونيو)[١٦]. وفي العام نفسه افتتح المدير العام لوزارة السياحة الاسرائيلية، في جنوب أفريقيا، أول مكتب سياحي اسرائيلي في القارة السوداء[١٧]، واختارت مصانع الطيران الاسرائيلية (IAI) شركة بلانكو الجنوب أفريقية لتسويق طائرات كومودور ذات المقاعد العشرة التي تقوم هي بتجميعها[١٨]. وفي العام ١٩٧٠ باعت شركة الأنابيب الفولاذية في جنوب أفريقيا، وهي أحد فروع «أفريكان غيت هولد ينغز»، مصنعاً للأنابيب الحلزونية الفولاذية الى شركة أنابيب الشرق الأوسط في حيفا مقابل ٢٥٠ ألف رند وحصة في الشركة[١٩].

وقامت بعثة تجارية اسرائيلية بزيارة جنوب أفريقيا وقابلت بعض منتجي السلع التسويقية[٢٠]. ووقعت شركة التنمية الصناعية التي تمولها حكومة جنوب أفريقيا اتفاقاً مع بنك التجارة الخارجية الاسرائيلي، بمنحه قرضاً يبلغ حد الائتمان فيه ١٠,٧ ملايين رند، للمساعدة في زيادة الصادرات الأساسية الجنوب أفريقية الى اسرائيل[٢١]. وفي العام ١٩٧١ قامت أول بعثة تجارية جنوب أفريقية، نظمتها (ISATA) وضمت ممثلين عن شركات الصناعات الثقيلة والبناء وصب المعادن في جنوب أفريقيا الى جانب ممثلين عن مصرفي «باركلي» و«ستاندارد»، بزيارة اسرائيل[٢٢]؛ وقامت كذلك بعثة تجارية اسرائيلية بزيارة جنوب افريقيا بدعوة من (ISATA)[٢٣]. ولأول مرة عين مصرف اسرائيلي هو «جافيت بنك» ممثلاً دائماً له في جنوب أفريقيا، بهدف تنمية مشاريع التجارة والاستثمار ورأس المال المشترك[٢٤]. وفي أيار (مايو) ١٩٧١ خفضت الرقابة الحكومية التي تفرض على استثمارات الشركات الجنوب أفريقية في اسرائيل. وقدمت شركة التنمية الصناعية، في حزيران (يونيو)، قرضاً جديداً بالدولار لتعزيز صادرات جنوب أفريقيا الى اسرائيل[٢٥]. وشهد العام ١٩٧٢ مزيداً من البعثات التجارية الجنوب أفريقية الى اسرائيل[٢٦]، ونشرت الشركة المصرفية الأوروبية ــ الأميركية (EABC) نبأ حول مشاركة بنك «ليئومي» الاسرائيلي في «قرض سري» الى وزارة المالية في جنوب أفريقيا[٢٧]. وفتح المصرف نفسه مكتباً له في جوهانسبورغ في العام ١٩٧٣ لتشجيع التجارة والاستثمار[٢٨]. وفي العام ١٩٧٣ أيضاً أعلن عن استيراد اسرائيل ٤٠ ألف طن من الاسمنت من جنوب أفريقيا[٢٩]، وأنشئت شركة جديدة تدعى ايسكوور (ISKOOR)، امتلكت ٥١٪ منها مصانع كور الاسرائيلية المملوكة بدورها لاتحاد النقابات (الهستدروت) والاتحاد العمالي الاسرائيليين، في حين امتلكت الـ ٤٩٪ الباقية شركة الحديد والصلب الحكومية في جنوب أفريقيا «ايسكور» (ISCOR). وقيل ان الهدف من انشاء هذه الشركة هو تسويق الفولاذ في اسرائيل[٣٠].

كان للعلاقات التجارية بين جنوب أفريقيا واسرائيل بعدٌ سياسي كبير في الفترة من ١٩٦٧ الى ١٩٧٣، اتضح من خلال درجة الدعم الحكومي الذي نالته، ومشاركة مؤسسات تمولها أو ترتبط بها حكومتا الطرفين. وبرز بعد سياسي جديد في العام ١٩٧٣، حين أعلن رئيس وفد جنوب أفريقيا الى «مؤتمر أصحاب الملايين» بنجامين وينشتاين، خطة لاستغلال التعاون الاقتصادي بين جنوب أفريقيا واسرائيل، في التهرب من الحظر الذي فرضته الدول الافريقية على التجارة مع جنوب أفريقيا. وكخطوة أولى، قامت شركة جنوب أفريقية بالمساهمة بمبلغ ٤٠٠ ألف جنيه استرليني في أحد المصانع الاسرائيلية للطباعة على القطنيات الذي يصدّر حوالى ٦٠٪ من انتاجه الى الأفريقيين في جنوب أفريقيا وأراضي المحميات السابقة (بوتسوانا، سوازيلند وليسوتو)، ويصدر الباقي الى أجزاء أخرى من أفريقيا. وكان وزير التجارة والصناعة الاسرائيلي،

الجنرال حاييم بارليف، حاضراً في المؤتمر الصحافي الذي أعلن فيه نبأ هذا الاستثمار[٣١].

وكان لتطوير العلاقات الثقافية والرياضية بين الدولتين في الفترة نفسها، أبعاد سياسية أيضاً، في ضوء التأييد الدولي المهم لدعوة الأمم المتحدة بمقاطعة نظام التمييز العنصري، والذي طبق في ما بعد على المستويين الحكومي وغير الحكومي؛ وكانت النتيجة ان وجدت جنوب أفريقيا صعوبة متزايدة في استضافة أية فرقة فنية دولية، أو اقامة أية مباراة رياضية على أراضيها. وقام مغنو فرقة «كارمان» الاسرائيلية والكوميدي الاسرائيلي شمعون تزيغان بزيارة جنوب أفريقيا في العام ١٩٦٨[٣٢]. كما أدى موسيقيان رئيسيان في الفرقة السيمفونية الاسرائيلية أعمالاً موسيقية في جوهانسبورغ في العام ١٩٧٠[٣٣]. وتمت مبادلات رياضية عدة في العام ١٩٧١، شملت زيارات الى جنوب أفريقيا، قام بها فريق اسرائيل للجودو (كان أول فريق جودو دولي يزور جنوب أفريقيا)، وبطل اسرائيل لكرة السلة 'ماكابي تل ــ أبيب' (لم يلعب سوى مع فرق بيضاء) وفريقان لكرة القدم (أجريا مباريات مع فرق مختلطة من السود والبيض في كاب تاون)[٣٤]. وفي العام ١٩٧٢ شارك فريق نسائي لكرة المضرب في مباريات كأس الاتحاد[٣٥]. وفي العام ١٩٧٣ قدم ١٢٠ جنوب أفريقي الى اسرائيل لحضور مباريات «مكابياه» احتفالاً بالذكرى ٢٥ لاعلان «دولة اسرائيل»[٣٦].

ولم تكن الروابط السياسية والديبلوماسية لتتطور على المستوى الرسمي بسرعة أقل من تطور المبادلات التجارية الذي تلا حرب العام ١٩٦٧. وكان من أول أعمال اللجنة المشتركة تنظيم لقاء بين ب. و. بوتا الذي يرئس حالياً الحكومة في جنوب أفريقيا، وشمعون بيرس الذي كان حينها أميناً عاماً لحزب العمل الاسرائيلي، وصار لاحقاً ــ مثل بوتا ــ وزيراً للدفاع[٣٧]. وفي العام ١٩٦٨ تم تعيين مفوض تجاري اسرائيلي في جنوب أفريقيا[٣٨]؛ وفي العام ١٩٦٩ عين ميخائيل ميخائيل قائماً بالأعمال برتبة سفير[٣٩]؛ وفي العام ١٩٧٣ افتتحت جنوب أفريقيا أول بعثة ديبلوماسية لها في تل أبيب[٤٠].

ولم يصل مستوى البعثتين الدبلوماسيتين الى درجة سفارة سوى في العام ١٩٧٤، وعزز تبادل الزيارات الرسمية وغير الرسمية للزعماء السياسيين للدولتين، العلاقات في تلك المرحلة. وفي العام ١٩٦٨ زار جنوب أفريقيا عضو حزب الأحرار المستقل في الكنيست جدعون هوزنر، والجنرال عوزي نركيس، وهذا الأخير حل ضيفاً على «الاتحاد الصهيوني»[٤١].

وقام كل من رئيس وزراء اسرائيل ديفيد بن ــ غوريون ورئيس الاستخبارات السابق حاييم هرتزوغ بزيارة جنوب أفريقيا في العام ١٩٦٩. وقابل بن ــ غوريون يرافقه الكولونيل جوزيف غولان الذي كان قد ترك لتوه الجيش الاسرائيلي ليصبح ملحقاً عسكرياً في فرنسا، رئيس الوزراء فورستر[٤٢]. وفي العام نفسه حلّ ضيفاً على «الاتحاد الصهيوني» الجنرال دورون الذي كان حينها نائب الرئيس التنفيذي لجامعة تل ــ أبيب، بعد أن كان مديراً للدفاع المدني الاسرائيلي خلال حرب حزيران (يونيو)[٤٣]. وفي ١٩٧٠، قامت الكولونيل أوتيللا ليفي، قائدة الفرقة النسائية في الجيش الاسرائيلي بزيارة جنوب أفريقيا، برفقة تامار ايشيل مسؤولة العلاقات الخارجية في بلدية القدس[٤٤]؛ وقام البريغادير دان لاند بزيارة مماثلة[٤٥]. واستمرت هذه الزيارات حتى بعد الاحتجاج الغاضب من جنوب أفريقيا الذي أثاره تقديم مساعدة «انسانية» من اسرائيل الى لجنة التحرير في منظمة الوحدة الأفريقية. وقام نائب رئيس بلدية القدس بزيارة جنوب أفريقيا في حزيران (يونيو) ١٩٧١ وكذلك فعل مساعد وزير الخارجية الاسرائيلي وكلاهما جاء في مهمة لزيادة التبادل التجاري[٤٦]. ووصل الى جنوب أفريقيا اليعازر شوستاك، لاقامة فرع لرابطة الصداقة الاسرائيلية ــ الجنوب أفريقية التي يرئسها هو؛ وأجرى مناحيم بيغن محادثات مع رئيس الوزراء فورستر[٤٧]. وفي المقابل قام نائب رئيس مجلس الشيوخ في جنوب أفريقيا وعضوان في البرلمان أحدهما من «الحزب الوطني» (الحاكم) والآخر من «الحزب الموحد» المعارض (الأبيض)، بزيارة اسرائيل في العام ١٩٧١. وفي العام ١٩٧٢ زار ستيفانوس بوتا، وزير الري والغابات، اسرائيل لدراسة وسائل تخزين المياه[٤٨]. وقام ايستير هوليتز، السفير الاسرائيلي السابق لدى الدانمارك، بزيارة جنوب أفريقيا في العام نفسه، بدعوة من المجلس النسائي الصهيوني[٤٩]. وفي العام

١٩٧٣، وبعد زيارة قام بها نائب وزير المواصلات الاسرائيلي تلبية لدعوة من الطائفة اليهودية[٥٠]، وصل الى جنوب أفريقيا سفير اسرائيل السابق لدى الولايات المتحدة كبير الحاخامين شلومو غورين، حيث قابل مسؤولي الدفاع، بمن فيهم ب. و. بوتا الذي كان حينها وزيراً للدفاع، والقائد العام لقوات جنوب أفريقيا المسلحة الأميرال هـ. هـ. بيرمان. ورئيس الدولة ج. ج. فوش[٥١]. وانتقل وزير الداخلية الجنوب أفريقي كوني مولدر، الذي نسبت اليه في مابعد فضيحة «مولدرغيت»، الى اسرائيل في العام نفسه في «زيارة خاصة» قابل خلالها نظيره الاسرائيلي يوسف بورغ[٥٢] ووزير الخارجية ابا ــ ايبن. كما زار اسرائيل أيضاً وزير الاعلام الدكتور ايشيل رودي الذي لحقت به أيضاً فضيحة «مولدر غيت». وزارها كذلك رئيس بلدية جوهانسبورغ، وبعثة اسكان من ١٥ شخصاً، برئاسة رئيس دائرة أبحاث البناء الوطني في مجلس أفريقيا للبحوث العلمية والصناعية[٥٣].

هذه المصالح الاستراتيجية والأمنية والعسكرية الحيوية للتحالف، تأكدت بصورة متزايدة في الفترة مابعد عام ١٩٦٧. ووجه رئيس الوزراء الحالي ب. و. بوتا، الذي كان وزيراً للدفاع، تحذيراً الى زامبيا في نيسان (أبريل) ١٩٦٨، بسبب دعمها للإغارات «الارهابية» على جنوب أفريقيا، مشيراً الى الاغارات الانتقامية الاسرائيلية ضد الفدائيين الفلسطينيين[٥٤]. وكان سبق لقائد سلاح الطيران الاسرائيلي الجنرال مردخاي هود أن حاضر في الكلية العسكرية في جنوب أفريقيا حول الجوانب العسكرية للحرب[٥٥]، وصارت الأصوات المؤيدة لتحدي الحظر الدولي للأسلحة عن جنوب أفريقيا، أكثر وضوحاً في اسرائيل؛ وتساءل رئيس الأركان الاسرائيلي السابق، البريغادير حاييم هرتزوغ، عن السبب الذي يدعو اسرائيل الى الخوف من فقدان تأييد الدول الأفريقية، في حين استمرت فرنسا في تزويد بريتوريا بالدبابات والطائرات بدون أن تفقد نفوذها في أفريقيا السوداء[٥٦]. وفي هذه الأثناء عرضت مصانع الطيران الاسرائيلية (IAI) التي سبق أن باعت طائراتها المجمعة الى جنوب أفريقيا، الطائرة الجديدة ذات المدى القصير للاقلاع والهبوط (ARAVA) التي وصفتها بأنها «مثالية للعمليات العسكرية المضادة للعصيان»[٥٧].

وبالفعل، فان الدور المركزي الذي لعبه قادة الدفاع والجيش في تبادل الزيارات بين الدولتين، منذ لقاء العام ١٩٦٨ بين وزيري الدفاع، أشار الى تعاظم النظرة الى هذه المصالح الاستراتيجية لدى الحكومتين.

وفي بداية العام ١٩٧٠، وقبل صدور أي بيان مؤكد حول تجارة السلاح بين اسرائيل وجنوب أفريقيا، تردد أن جنوب أفريقيا ستصدر الى اسرائيل دبابات بوزن ٦٥ طناً، صنّعت على طراز دبابات تشيفتن البريطانية، وزودت بمدافع ثقيلة[٥٨]. ولاحقاً، في العام نفسه، ذكر أن شركة «تاديران» الاسرائيلية المملوكة جزئياً لوزارة الدفاع والتي يذهب ريع ٤٠٪ من مبيعاتها الى الجيش، تفاوض شركة «سي ـ اف ــ فوشز» الجنوب أفريقية، لمنحها امتياز انتاج معداتها الالكترونية شديدة التطور في جنوب أفريقيا[٥٩]. وأشار تقرير صحافي آخر الى أن الاسرائيليين حصلوا، بواسطة التجسس، على تصاميم طائرة ميراج الفرنسية المقاتلة (التي زودت فرنسا جنوب أفريقيا بها، لكن اسرائيل لم تستطع شراءها) وقدموها الى جنوب أفريقيا، وأن بعثة من جنوب أفريقيا طارت فعلاً الى اسرائيل خلال حرب حزيران، لدراسة أسلحة وتكتيك «الضربات الخاطفة»[٦٠]. وفي أيار (مايو) ١٩٧١، عرضت اسرائيل بيع جنوب أفريقيا طائرات، للتعويض عن تلك التي تحطمت في «تابل مونتين». وقيل ان ناقلة يونانية متوقفة في ميناء دربان كانت تنقل شحنة من المتفجرات العالية من ايلات[٦٢]. ومهدت زيارة سرية الى اسرائيل قام بها في العام ١٩٧٣ رئيس مكتب أمن الدولة في جنوب أفريقيا، الجنرال هندريك فان دربرغ، ولم تعلن الا في وقت متأخر جداً، الطريق أمام مستوى آخر من التعاون المحتمل هو الأمن الداخلي[٦٣].

حرب تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣ وما تلاها

مرة أخرى كانت جنوب أفريقيا محايدة ظاهرياً خلال حرب «يوم الغفران»، على رغم أن وزير دفاعها ب. و. بوتا، وعد بأن حكومته ستجد وسائل

للمساعدة «في اطار قدراتنا وبدون اعلان الحرب»[٦٤]. فمن جهة، ومرة أخرى انتقل المتطوعون الى اسرائيل، وعطلت وزارة المالية كل رقابة على المبادلات لتسمح بنقل الرساميل الى اسرائيل[٦٥]. وذكرت تقارير، من جهة أخرى، أن الترابط المتبادل بين الدولتين تقدم كثيراً في ذلك الوقت: اذ أرسلت جنوب أفريقيا طائرات ميراج لمساعدة اسرائيل، أسقطت احداها على الجبهة المصرية[٦٦]. وقال الرئيس الزامبي كاوندا فيما بعد: ان هذه الطائرات أرسلت لاكساب الطيارين الجنوب أفريقيين خبرة «للحروب المقبلة» ضد الأفارقة؛ وفي المقابل، أرسلت اسرائيل، لاحقاً، أحد جنرالاتها لتدريب قوات جنوب أفريقيا على مواجهة الثوار[٦٧]. ومهما كان مدى صحة هذه التقارير، فقد نسب الى رئيس الوزراء فورستر قوله علناً: انه اذا خسرت اسرائيل الحرب، فسيكون لهزيمتها انعكاسات مهمة على الجمهورية، ومن المهم لجنوب أفريقيا أن تدرس وضع الشرق الأوسط عن قرب[٦٨].

وسجلت حرب ١٩٧٣ تعززاً للتحالف الاسرائيلي ــ الجنوب أفريقي أكثر مما فعلت حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧. وخلال السنوات الثلاث التي تلت، والتي توجت بزيارة فورستر لاسرائيل في العام ١٩٧٦، وبتوقيع سلسلة من الاتفاقات طويلة الأجل، تقرر رفع مستوى التمثيل الديبلوماسي الى درجة سفارة[٦٩]؛ وتحول الموقف الاسرائيلي في الأمم المتحدة، جذرياً، من ادانة التمييز العنصري الى الامتناع عن التصويت أو التغيب عنه[٧٠]؛ واستمرت الزيارات الوزارية العالية المستوى. وزار موشي دايان جنوب أفريقيا في العام ١٩٧٤، لكن ليس بدعوة من المنظمة الصهيونية بل من الادارة الجنوب أفريقية[٧١]. وقام وزير الداخلية الجنوب أفريقي، كوني مولدر، بزيارتين لاسرائيل في حزيران (يونيو) ١٩٧٥ وآذار (مارس) ١٩٧٦، حيث قابل رئيس وزراء اسرائيل ووزير خارجيتها، تحضيراً لزيارة فورستر نفسه التي تمت لاحقاً[٧٢].

وكانت أكثر التطورات لفتاً للنظر، تلك التي تمت في حقل التعاون العسكري؛ حيث بدأت درجة المشاركة بين الدولتين تبرز عبر الصحافة. وفي العام ١٩٧٥ ذكر أن ضباطاً عسكريين اسرائيليين كباراً قاموا بزيارات منتظمة لجنوب أفريقيا، لتدريب الضباط هناك على تقنيات مواجهة الثوار؛ وأن جنوب أفريقيا كانت تستفيد من خبرة اسرائيل في مجال تصنيع الالكترونيات الحربية[٧٣]. وأشارت تقارير أخرى في الفترة نفسها الى أن ستة زوارق صواريخ كانت تبنى في جنوب أفريقيا قد يتم تزويدها بصواريخ «غابرييل» التي تنتج في اسرائيل. وقد نفت اسرائيل هذه التقارير[٧٤] التي عرف الآن أنها كانت تشير الى الزوارق الحربية السريعة «ريشيف» المزودة بصواريخ غابرييل والتي تمتلكها البحرية في جنوب أفريقيا حالياً. ولم تُكشف معظم المعلومات حول التعاون العسكري في هذه المرحلة سوى لاحقاً (أنظر مقطع التعاون العسكري بعد العام ١٩٧٦)، لكن من الواضح الآن أن هذه الفترة كانت رئيسية في تطوير التحالف، وفي دور اسرائيل، كقناة يستطيع نظام التمييز العنصري في جنوب أفريقيا الحصول عبرها على بعض الأسلحة وتقنياتها التي صوت المجتمع الدولي على حرمانه منها.

وكانت تلك هي المرحلة نفسها التي رأى فيها المصدرون الجنوب أفريقيون للمرة الأولى في اسرائيل، باباً خلفياً ممكناً الى المجموعة الاقتصادية الأوروبية[٧٥]. ومنذ ذلك الحين تم التخطيط لعدد من المشاريع الاسرائيلية ــ الجنوب أفريقية المشتركة. وشاركت مصانع «كور» الاسرائيلية وشركة «سنتراكيم» الجنوب أفريقية في خطة لتصنيع الكيماويات والأسمدة في لندن الشرقية في الكاب، تم تصديرها من اسرائيل؛ كما وضعت شركات من الجانبين خطة أخرى لإنشاء شركة نقل من أجل تخزين النفط في اسرائيل[٧٦].

وعلى أية حال، فقد تزايدت التجارة بسرعة بين الدولتين بعد تشرين الأول (أكتوبر) كما بعد حرب حزيران (يونيو). ووصلت واردات جنوب أفريقيا من اسرائيل الى أكثر من الضعف ما بين عامي ١٩٧٣ و١٩٧٤، وازدادت صادراتها الى اسرائيل من ٢٥,٢٧ مليون دولار في العام ١٩٧٣ الى ٢٧,٨ مليوناً في العام ١٩٧٤[٧٧]. وفي نيسان (أبريل) ١٩٧٦ سمّت وزارة التجارة الاسرائيلية جنوب أفريقيا رسمياً «هدفاً مفضلاً للتصدير»[٧٨].

زيارة فورستر واتفاقات عام ١٩٧٦

في نيسان (أبريل) ١٩٧٦، امضى فورستر أربعة أيام في اسرائيل برفقة وزير خارجيته، هيرالد مولر، ووزير الدولة للشؤون الخارجية، براند فوري، وعقد لقاءات مع رئيس اسرائيل ورئيس وزرائها ووزير دفاعها ومسؤولين آخرين كباراً. وذكر أنه أول رئيس وزراء أجنبي يسمح له بزيارة المواقع الاستراتيجية في جنوب سيناء[٧٩].

وفي مؤتمر صحافي عقده في القدس في ١٢ نيسان، أعلن فورستر توقيع اتفاق اسرائيلي ــ جنوب أفريقي، تشكل الدولتان بموجبه لجنة وزارية مشتركة، تلتقي مرة على الأقل في العام، لمراجعة التعاون الاقتصادي، وخصوصاً الاستثمار والتجارة والتعاون العلمي والصناعي واستخدام المواد الأولية الجنوب أفريقية واليد العاملة الاسرائيلية في مشاريع مشتركة. وواقع أن الوفد الجنوب أفريقي أصر على شمول اللجنة وزراء الدفاع والمالية والشؤون الاقتصادية مما يدعو للاستنتاج أن التعاون، كان فعلاً، أبعد بكثير من حدود «التعاون الاقتصادي»[٨٠].

وسجلت اتفاقات العام ١٩٧٦ دفعة جديدة في العلاقات بين الدولتين، أبرزت صحيفة «راند ديلي ميل» مغزاها بالقول: أنها «أعطت جنوب أفريقيا صديقاً علنياً، وحليفاً معلناً، في وقت تواجه فيه هذه الدولة أفريقيا سوداء متزايدة العداء»[٨١].

١ ــ التعاون العسكري منذ العام ١٩٧٦

على الرغم من أن كلتا الحكومتين نفتا أن تكون اتفاقات العام ١٩٧٦ قد تضمنت التعاون العسكري، الا أن عضوية وزير دفاع جنوب أفريقيا في اللجنة الوزارية المشتركة، والسماح لفورستر بزيارة المواقع الاستراتيجية في اسرائيل، بما فيها القاعدة البحرية في شرم الشيخ، حيث اعتلى زورقاً حربياً سريعاً من طراز «ريشيف» الاسرائيلي، مزوداً بصواريخ بحر ــ بحر من طراز غابرييل، وكذلك مصانع الطيران؛ حيث تبنى طائرة «كفير»، أكدتا كلتاهما الجانب العسكري والاستراتيجي الحاسم للتحالف، وأعطتا مادة للتقارير الصحافية التي أشارت مراراً ــ برغم النفي الرسمي لها ــ الى أن اسرائيل تقدم طائرات «كفير» الى جنوب أفريقيا، وأن هذه الأخيرة تقوم، بموجب امتياز، ببناء زوارق «ريشيف»، تزودها اسرائيل بصواريخ غابرييل[٨٢].

لقد قوى رفض الحكومتين التعليق على ما أشيع حول اتفاق لاستيراد اسرائيل مليون طن سنوياً من الفحم من جنوب أفريقيا (تم تأكيده لاحقاً، أنظر في ما بعد) منذ العام ١٩٧٩، بهدف التقليل من اعتماد اسرائيل على النفط[٨٣]، الدلالة الاستراتيجية للمبادلة بين «مواد جنوب أفريقيا والقوة البشرية الاسرائيلية» (التكنولوجيا؟)

وأشارت تقارير لاحقة الى أن جزءاً آخر من التعاون كان المبادلة بين أسلحة اسرائيل وخبرتها وبين يورانيوم جنوب أفريقيا، فاتحاً بذلك المجال أمام التعاون النووي[٨٤].

وبعد قليل من زيارة فورستر، أشار أول التقارير الصحافية الى مشاركة اسرائيلية في اعتداء جنوب أفريقيا على أنغولا، وقيل ان ضباطاً اسرائيليين تورطوا، الى حد بعيد، مع الجيش الجنوب أفريقي في التخطيط للحملة. ونسب الى الجنرال ر.هـ.د. روجرز من الـ (SAAF) (سلاح الطيران الجنوب أفريقي) قوله: ان أحد أسباب قلة خسائر جنوب أفريقيا هو اتباع التكتيك الاسرائيلي في اخلاء ومعالجة الاصابات على الجبهة[٨٥].

وهذا النموذج عن مبادلة الأسلحة والتقنية الاسرائيلية بالمواد الاستراتيجية الجنوب افريقية الذي أعلن في العام ١٩٧٦، وتجلى في مجالات ثلاثة رئيسية: تجارة الأسلحة التقليدية، التعاون النووي، ومشاركة الخبرة الاسرائيلية في الحرب الخاطفة على الأرض، ينطبق تماماً على نمو التعاون العسكري بين الدولتين في السنوات التي تلت. وعلى الرغم من السرية الشديدة لدى الجانبين، والنفي المتكرر لمندوبي اسرائيل في الأمم المتحدة بأن تكون حكوماتهم قد خرقت حظر الأسلحة[٨٦]، وكذلك بيانات اسرائيل في ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٧، و٣ نيسان (أبريل) ١٩٧٨، و١٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩ حول التزامها بالمقاطعة، فلقد كان واضحاً أن اسرائيل أضحت المورّد الرئيسي للأسلحة الى جنوب أفريقيا، والعامل الحاسم في تطوير استراتيجيتها المضادة للثوار. وفي العام ١٩٨٠، ووفقاً للنشرة

السنوية لمعهد الدراسات الاستراتيجية في لندن، فان بحرية جنوب أفريقيا كانت تمتلك ٦ زوارق حربية سريعة (ريشيف) مزودة بصواريخ بحر ــ بحر (غابرييل)، وكان هناك ستة أخرى قيد الانشاء، اضافة الى ستة زوارق دورية ساحلية من طراز «دبور» الاسرائيلي، مزودة أيضاً بصواريخ غابرييل. وهذه القطع البحرية وصفت بأنها «بنيت وفق تصميم أجنبي» وزودت «بمحركات وأسلحة مستوردة». وذكر أن طائرات ميراج الانقضاضية الفرنسية التي كان عددها في العام ١٩٨٠، ٧٢ طائرة من أصل ٨٨ طائرة هي القوة الجوية الضاربة لجنوب أفريقيا، انما بنيت في جنوب أفريقيا، وفق تصاميم حصل عليها الاسرائيليون بواسطة التجسس، وقامت اسرائيل بتزويدها بقطع الغيار وبصيانتها(٨٨).

ولقد تم توثيق تطورات التحالف العسكري خلال الفترة من العام ١٩٧٦ الى العام ١٩٨٠ بشكل تام ومنطقي، عبر التقارير الصحافية والبحث المادي، وتم نشر العديد من هذه المعلومات في وثائق صدرت عن لجنة الأمم المتحدة الخاصة بمكافحة التمييز العنصري.

(أ) امدادات الأسلحة ١٩٧٦ ــ ١٩٨٠

أشارت التقارير الصحافية في العام ١٩٧٧ الى أن مصانع السلاح الاسرائيلية تحضر طلبيات من جنوب أفريقيا بقيمة ١٠٠ مليون رند، تشمل صواريخ وزوارق مسلحة وطائرات مقاتلة. وبرزت في العام نفسه تفاصيل بيع زوارق «ريشيف» الستة المزودة بصواريخ غابرييل، وبناء ستة زوارق للدورية الساحلية «دبور» في دربان بموجب امتياز من اسرائيل(٨٩). كما تلقت طواقم جنوب أفريقية تدريباتها في اسرائيل(٩٠). واضافة الى ذلك، فان اسرائيل وافقت، مقابل الفولاذ الصلب الخاص الذي تحتاجه لبناء دباباتها الخاصة، على تزويد جنوب أفريقيا بفرق كاملة من دبابات سنتوريون وبانهارد ومصفحات مزودة بهيكل جديد تم تطويره لمقاومة الأسلحة المضادة للآليات(٩١). ووفقاً لـ «فورين ريبورت» الصادر عن «الأيكونوميست» «استخدم المهندسون الاسرائيليون تجربتهم في وادي الأردن وعلى الحدود اللبنانية»، لبناء «حائط» لجنوب أفريقيا يتألف من مجسات الكترونية معقدة ومراكز انذار الكترونية، مع عشرات من أجهزة المراقبة الالكترونية الدقيقة، على طول حدود جنوب أفريقيا، بهدف حماية البلاد من غارات رجال حرب العصابات(٩٢).

وفي العام ١٩٧٧ كانت ثلاث شركات اسرائيلية، «تاديران» و«الفيت» و«IAI» تبيع جنوب أفريقيا المعدات لـ «حائطها» الالكتروني: أسيجة الكترونية، أجهزة انذار مضادة لتسلل الفدائيين، أجهزة اتصالات وأخرى مؤتمنة للرؤية الليلية. وكانت اسرائيل تزود جنوب أفريقيا، في الوقت نفسه، بمدافع هاوتزر ذاتية الحركة من عيار ١٠٥ ملم، وبصواريخ جو ــ جو وأخرى مضادة للدبابات يحملها أفراد المشاة(٩٣). وقام مشروع اسرائيلي ــ جنوب أفريقي مشترك ببناء الطائرة المروحية «سكوربيون» الأميركية التصميم، عبر صنع أجزائها في جنوب أفريقيا ثم تجميعها في اسرائيل. وأشير الى أن مصنعاً لأجهزة الاتصالات العسكرية أقيم في جنوب أفريقيا بترخيص من شركة «تاديران» الاسرائيلية(٩٤).

وذكر في العام ١٩٨٠ أن جنوب أفريقيا تلقت بنادق جديدة هي نسخة عن بندقية «جليل» الهجومية الاسرائيلية(٩٥). وتسلمت في بداية العام أيضاً زورقين سريعين، بنتهما اسرائيل، مزودين بصواريخ غابرييل ويستطيع كل منهما حمل طائرة مروحية ومجهزين بمعدات الكترونية متطورة(٩٦).

(ب) مساعدات ومشورة تقنية

في حزيران ١٩٧٦ ادعى عضو المعارضة في الكنيست، مارسيا فريدمان، أن مئات من الجنود الاسرائيليين التحقوا بوحدات جيش جنوب أفريقيا، كمشرفين ومشاركين في مناورات التدريب. ومع أن التقرير نفي رسمياً في اسرائيل، فان تقارير مماثلة استمرت في الظهور دورياً خلال السنوات التي تلت. وفي العام ١٩٧٨، ذكرت «نيويورك تايمز» أن ٥ آلاف اسرائيلي هاجروا الى جنوب أفريقيا في السنوات الأخيرة، واعربت عن اعتقادها أن بعضهم على الأقل يمتلك مهارات نافعة، في ما يتعلق بالأجهزة العسكرية الاسرائيلية(٩٨). وفي حزيران (يونيو) ١٩٨٠ قالت «صنداي تلغراف» البريطانية: أن متطوعين من اسرائيل وبريطانيا وشيلي يخدمون في قوات جنوب

أفريقيا في مجابهة الثوار الناميبيين[٩٩].

وفي بداية العام ١٩٧٩، قام الميجور جنرال نيل ويبستر، مدير عام المشتريات في قوات دفاع جنوب أفريقيا، بزيارة اسرائيل[١٠٠]، وزار جنوب أفريقيا في العام نفسه خبير عسكري اسرائيلي، يعمل مستشاراً لسلاح الطيران الاسرائيلي ووزارة الدفاع ومؤسسة أبحاث الجيش الأميركي[١٠١]. وفي العام التالي زار الجنرال حاييم بارليف جنوب أفريقيا والتقى وزير الخارجية ر.ف. بوتا[١٠٢]، ثم وصل العقيد سموليك مويال «متعاقداً» لسنتين مع «الاتحاد الصهيوني» في جنوب أفريقيا، يعود بعدها الى عمله في قوة الدفاع الاسرائيلية[١٠٣]. وقام الجنرال اهارون ياريف مدير مؤسسة الدراسات الاستراتيجية في جامعة تل ــ أبيب، والجنرال مردخاي غور رئيس الأركان الاسرائيلي السابق والدماغ المخطط لعملية عنتيبي «بجولة على الجامعات» في جنوب أفريقيا[١٠٤]. وكذلك فعل الجنرال حاييم هرتزوغ ممثل اسرائيل السابق لدى الأمم المتحدة[١٠٥]. وقام وزير الدفاع الاسرائيلي عازر وايزمان، بزيارة «سرية» الى جنوب أفريقيا في آذار ١٩٨٠، بناء على تعليمات شخصية من رئيس الوزراء مناحيم بيغن «لمناقشة مسائل أمنية»[١٠٦].

(ج) التعاون النووي

كان التعاون في الحقل النووي أكثر مظاهر التعاون بين اسرائيل وجنوب أفريقيا التي ظهرت خلال السنوات الخمس منذ العام ١٩٧٦ اثارة للشؤم. وفي البدء أشارت اللجنة الخاصة لمكافحة التمييز العنصري، في العام ١٩٧٧، الى زيادة عدد التقارير الصحافية التي تتحدث عن مبادلة التقنية الاسرائيلية باليورانيوم المخصب من جنوب أفريقيا، وكانت التقارير تزعم أن اسرائيل تساعد جنوب أفريقيا في تطوير قدرتها على انتاج القنبلة النووية، وان الروابط التي عززت حديثاً بين المجلس الجنوب أفريقي للبحوث العلمية والصناعية وبين المجلس «الوطني» الاسرائيلي للبحوث العلمية والصناعية، تشمل على الأرجح نقل التكنولوجيا النووية[١٠٧].

وفي العام ١٩٧٧ استمع المؤتمر الدولي حول التعاون النووي مع جنوب أفريقيا الذي رعته اللجنة الخاصة، الى شهادات حول الدور الرئيسي الذي تلعبه اسرائيل في تطوير مقدرة جنوب أفريقيا النووية، بما في ذلك شهادة حول أن فرعاً لمعهد وايزمان الاسرائيلي للعلوم قد أقيم في جنوب أفريقيا وأشرف على مؤتمر نووي، وأخرى حول عمل سبعة من العلماء النوويين الاسرائيليين في جامعة ويتواترسراند، وثالثة ــ وفقاً للاستخبارات السويسرية ــ حول مساعدة اسرائيل لجنوب أفريقيا في انتاج أسلحة نووية[١٠٨].

وأشار المؤتمر الى الدراسة التي أعدها زدينيك سرفنكا وبربارا روجرز، والتي تضمنت تقارير لمحللي الاستخبارات الأميركية، تفيد بأن قنبلة نووية كانت جنوب أفريقيا تستعد لتفجيرها ــ لكنها لم تفعل ــ في آب (أغسطس) ١٩٧٧، تم انتاجها بمساعدة اسرائيل[١٠٩].

وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩ حدث انفجار في جنوب المحيط الأطلسي، تم رصده بواسطة القمر الصناعي الأميركي «فيلا» المخصص لكشف الانفجارات النووية، واستنتجت وزارة الدفاع الأميركية ووكالة الاستخبارات بأنه تجربة نووية. واعتبر أن ذلك كان مشروعاً اسرائيلياً ــ جنوب أفريقي، وشوهدت قوة ضاربة من السفن الحربية الجنوب أفريقية تجري مناورات بحرية سرية في المنطقة. وفشل تحقيق لاحق أجراه البيت الأبيض في تأكيد أن الانفجار كان نووياً، لكن ادعاءات حول «تغطية» حكومية أميركية ظهرت في الصحافة حينذاك[١١٠].

وكشف برنامج «وورلد ان أكشن» في التلفزيون البريطاني، فيما بعد، أن الجسم المنفجر كان عبارة عن قذيفة نووية مطورة اسرائيلية ــ جنوب أفريقية يجري اطلاقها بواسطة مدفع هاوتزر من صنع جنوب أفريقي وأجزاء أميركية وبلجيكية. ويستطيع هذا السلاح الذي يفوق مداه ٣٠ كيلومتراً أن يقتل الكائنات البشرية غير المحمية الموجودة على بعد ٤٠٠ متر من سقوط القذيفة. ولمصانع الأسلحة الجنوب أفريقية حق تسويق هذا السلاح عالمياً[١١١]. وفي نهاية العام ١٩٨٠، أوردت التقارير الصحافية مزيداً من التفاصيل عن القنبلة. وصنفت جنوب أفريقيا على أنها «تمتلك واحداً من أهم الأسرار العسكرية في العصر النووي: عملية زهيدة وفعالة للحصول على «أو ٢٣٥»، النوع الاشعاعي من اليورانيوم

المستخدم في الأسلحة»؛ وذكر أن جنوب أفريقيا أخفت السر عن الولايات المتحدة، لكنها شكلت حلفاً نووياً «غير رسمي» مع اسرائيل وتايوان[١١٢]. وقيل: ان وكالة المخابرات المركزية الأميركية تجري تحقيقاً مع ضباط كبار في سلاح الجو الأميركي، ربما قاموا بتسريب التكنولوجيا النووية الى اسرائيل، التي نقلتها بدورها الى جنوب أفريقيا وتايوان في برنامج مشترك لتطوير الصواريخ العابرة[١١٣].

وفي حزيران (يونيو) ١٩٧١، زار و. ل. روتنباخ، أستاذ الفيزياء النووية والتطبيقية في جامعة ستيلنبوش اسرائيل[١١٤]. وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩ وصل الى جنوب أفريقيا الجنرال آموس هوريف كبير علماء وزارة الدفاع الاسرائيلية السابق والرئيس الأسبق لمعهد التكنولوجيا الاسرائيلي «تكنيون»، الذي زار المركز الوطني للأبحاث الذرية في بليندبا، والمنشأة النووية في فاليندبا ــ حيث يعتقد أن عدداً من الخبراء النوويين الاسرائيليين يعملون[١١٥] ــ والمجمع النووي في كويبرغ والقاعدة البحرية في سيمونزتاون[١١٦].

(هـ) خلفية ارتباط الاسرائيلي ــ الجنوب أفريقي

ان المنطق يفترض أن التسريع الاسرائيلي للتعاون العسكري مع جنوب أفريقيا منذ العام ١٩٧٦، يعكس توجهاً أوسع نحو جنوب أفريقيا بين القوى الغربية الأخرى. وقال تقرير لـ «ايكونوميست» في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧ ان وزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر طلب من حكومة اسرائيل في أوائل العام ١٩٧٥ أن ترسل قوات الى أنغولا لمساعدة جيش جنوب أفريقيا ضد «الحركة الشعبية لتحرير أنغولا» (مبلا). وكان اعلان كلارك بمنع الولايات المتحدة في تلك الفترة من متابعة دعمها السابق المباشر للقوى المضادة للحركة الشعبية في أنغولا. وذكر أيضاً أن كيسنجر طلب من اسرائيل تزويد جنوب أفريقيا بقطع بحرية وبآليات وبأجهزة الكترونية مضادة للتسلل؛ وربطت «الأيكونوميست» بين التزويد اللاحق لجنوب أفريقيا بزوارق «ريشيف» السريعة وصواريخ غابرييل وأسلحة أخرى، وبين الطلب الأميركي[١١٧]. وفي حزيران (يونيو) ١٩٧٦، التقى فورستر الذي كان حينها رئيس وزراء جنوب أفريقيا بالدكتور كيسنجر في ألمانيا الغربية، بعد قليل من زيارته لاسرائيل.

هذه الارتباطات العسكرية الاسرائيلية مع جنوب أفريقيا لا يمكن اعتبارها مستقلة تماماً عن سياسة الولايات المتحدة ازاء حظر الأسلحة عن نظام التمييز العنصري، وهو ما تم تأكيده عبر تقرير حول: ان مسؤولين في ادارة كارتر فتحوا تحقيقاً بشأن اتفاق صواريخ غابرييل على أساس أن هذه الصواريخ ربما صنعت وفق تصميمات أميركية، ولهذا فان بيعها ربما يشكل خرقاً للسياسة الأميركية التي تمنع اعادة تصدير الأسلحة الأميركية. وقد نفت السفارة الاسرائيلية في واشنطن أن تكون اسرائيل قد باعت أية أسلحة مصنوعة من أجزاء أميركية «بدون موافقة من الأطراف المعنية»[١١٨].

وقدمت «الحركة المضادة للتمييز العنصري» في ألمانيا الاتحادية دليلاً آخر على أن اسرائيل ربما تقوم عملياً بدور الوسيط في تصدير الأسلحة من دول غربية أخرى، حين ذكرت أن اسرائيل تقني (من قناة) المعدات العسكرية الألمانية الغربية الى جنوب أفريقيا[١١٩]. وكذلك فعل «المنتدى الكندي» في تورنتو، حين قال: ان شركة أبحاث الفضاء الأميركية تصدر منتجاتها الى جنوب أفريقيا عبر اسرائيل[١٢٠]. وتشمل هذه المنتجات، وفقاً للبرنامج التلفزيوني «وورلد أن أكشن»، التكنولوجيا الأساسية لـ «القذيفة النووية» التي فجرت في العام ١٩٧٩. ومع أن الشركة لوحقت فيما بعد وسجن اثنان من مدرائها التنفيذيين، فان الصفقة المذكورة لم تكن لتتم بدون تعاون الأجهزة الحكومية الأميركية[١٢١].

وذكر أن ١١ طائرة هليكوبتر أميركية الصنع حطت في العام ١٩٧٩ في روديسيا وشحنت على ما يبدو من حيفا، عبر جنوب أفريقيا[١٢٢].

وفي العام ١٩٧٩، ذكر أن اسرائيل تفاوض دولاً لم تحدد لشراء طائراتها المقاتلة «كفير»، لكنها امتنعت عن بيعها الى جنوب أفريقيا بضغط من الولايات المتحدة، كون هذه الطائرات مزودة بمحرك أميركي. ووفقاً لتقارير حديثة، فان ادارة ريغان الجديدة تنظر في السماح لاسرائيل ببيع

طائراتها وأسلحة أخرى مصنعة من أجزاء أميركية الى جنوب أفريقيا ودول أخرى، مقابل التعاون مع سياسة الولايات المتحدة الشرق أوسطية، وخصوصاً بيع مقاتلات «أف ــ ١٥» وطائرات الانذار المبكر «أواكس» الى السعودية(١٢٣).

٢ ــ التعاون الاقتصادي ١٩٧٦ ــ ١٩٨٠

ان التعاون الاقتصادي بين البلدين هو الهدف الظاهري لاتفاقات العام ١٩٧٦. ولقد شهدت الفترة منذ العام ١٩٧٦، بالفعل، تصاعداً دراماتيكياً في التبادل التجاري وتوظيف الأموال. لكن فحصاً دقيقاً لنمط التبادل التجاري والتوظيف يبين أن غايته تذهب الى أبعد من الاقتصاد، وبأنه، أساساً، استراتيجي. ويتضح هذا من العناصر الثلاثة التالية:

أولاً: ان المواد الخام الاستراتيجية لدى جنوب أفريقيا (وبخاصة الفولاذ، الفحم، واليورانيوم المشبع) تسود صادرات هذه الدولة الى اسرائيل، فيما تهيمن الخبرة التقنية والتجهيزات العسكرية والأسلحة بالمقابل على صادرات اسرائيل الى جنوب أفريقيا(١٢٤)، وهو، باختصار تبادل لسلع لا يستطيع أي من البلدين الحصول عليها بسهولة من مكان آخر، وذو مغزى عسكري جوهري.

ثانياً: ان اسرائيل، وعبر مشاريع التوظيف المشتركة، تؤمن لقطاع الصناعة في جنوب أفريقيا سبيلاً لتجنب المقاطعة الدولية، وبخاصة الأفريقية لمنتوجاته، ولاختراق سوق المجموعة الاقتصادية الأوروبية المربح، من بابه الخلفي(١٢٥).

ثالثاً: ان التدخل الحكومي من كلا الجانبين كان حاسماً في تطوير العلاقة، التي لم تقتصر فقط على عدد من الشركات مثل «كور» الاسرائيلية و«ايسكور» الجنوب أفريقية، بل تعدت ذلك الى توفير الاعتمادات التجارية الخاصة، وتخفيف القيود على تصدير رأس المال، واتفاقيات حول ضريبة الدخل، بالاضافة الى عقود حكومية عسكرية بشكل خاص.

التجارة:

من الصعب الوصول الى تحديد دقيق للحجم الحقيقي للتبادل التجاري بين اسرائيل وجنوب أفريقيا. وذلك عائد جزئياً الى أن البلدين يعتمدان في أرقامهما المعلنة معايير مختلفة (أرقام جنوب أفريقيا مثلاً لا تشمل اعادة التصدير)، لكن الأهم من ذلك هو أنهما يغفلان ذكر بعض المواد.

فهما لا يذكران، مثلاً، الماس المستورد من قبل اسرائيل، منذ أن أصبح يباع بواسطة الـ «سي. أس. أ» (التي كان يملكها دي بيرز) ومركزها لندن. وسجلت أرقام هذا النوع من التجارة في العام ١٩٧٢، وفقاً لصحيفة «راند ديلي ميل» أكثر من ١٠٠ مليون دولار(١٢٦)، ثم انطلق صعوداً خلال السبعينات ليسجل في العام ١٩٧٨ مليار دولار للكميات الكبيرة من الماس المنتج في جنوب أفريقيا(١٢٧).

وتغفل جداول التبادل التجاري أيضاً ذكر «السلع التجارية غير المعلنة، التي ليس هناك أحد مستعد لمجرد المغامرة في تخمين قيمتها المجهولة»(١٢٨) (فايننشال ميل، جوهانسبرغ (أيلول ــ سبتمبر ١٩٧٩)، والتي تشمل ما يمكن ان يشكل، وحده، أكبر بند في التبادل وهو، حسب «نيويورك تايمز»، الأسلحة(١٢٩).

وقد نقل عن رئيس غرفة تجارة اسرائيل ــ جنوب أفريقيا الدكتور جاك بارانس، الذي يشغل أيضاً منصب مدير رئيسي في «بنك الحسم» الاسرائيلي في تل ــ أبيب، قوله في العام ١٩٧٩: «لسنوات خلت كان حجم التبادل التجاري بيننا يتراوح بين ١٥ و٢٠ مليون دولار، وهو جزء بسيط من حجم تجارة كل من البلدين مع العالم التي تتراوح أرقامها بين ١٠ و١٢ بليون دولار. لكننا الآن نتعامل بمئات الملايين من الدولارات، وبيننا مشاركة تجارية حقيقية ومهمة».

وقد ضمّن الدكتور بارانس الماس، دون الأسلحة، الأرقام التي أعطاها(١٣٠).

ان وجود مواد تجارية «غير معلنة»؛ نسبة كبيرة منها من انتاج مصانع الالكترونيات في اسرائيل، قد يفسر، وفقاً لصحيفة «فايننشال ميل» القلق الشديد لدى كل شخص في اسرائيل من اختلال الميزان التجاري لصالح جنوب أفريقيا اختلالاً ما زال يتجه نحو التصاعد (٣٧,٧ مليون دولار مقابل ٧٩,٩ مليون دولار في العام ١٩٧٨)(١٣١).

ان الأرقام التالية المستقاة من صندوق النقد الدولي ومصادر الحكومة الاسرائيلية، تعكس فقط،

الأوجه المعلنة رسمياً للتبادل التجاري بين اسرائيل وجنوب أفريقيا. وهي لا تعكس الأهمية الاستراتيجية لتجارة كل من البلدين ولا حجمها وقيمتها الحقيقيتين، اللذين هما في الواقع يفوقان ما هو معلن بأضعاف.

أرقام التجارة السنوية ١٩٦٧ ــ ١٩٧٩
(بملايين الدولارات الأميركية)

	صادرات اسرائيل الى جنوب أفريقيا	واردات اسرائيل من جنوب أفريقيا
١٩٦٧	٤	٣,٤
١٩٦٨	٥,٧	٥,٢
١٩٦٩	٨,٢	٥,٨
١٩٧٠	١٠,٧	١٠,٢
١٩٧١	٩,٤	٨,١
١٩٧٢	٨,٨	١١,٦
١٩٧٣	١٢	٣٤,٣
١٩٧٤	٢٨,٧	٤٣,١
١٩٧٥	٣٤,٧	٤٠,٢
١٩٧٦	٢٦,٣	٤٤,٩
١٩٧٧	٢٣,٩	٥١
١٩٧٨	٣٧,٧	٧٩,٩
١٩٧٩	٤٨	٥٣

ما يظهره هذا الجدول هو التصاعد غير العادي في حجم التبادل بين اسرائيل وجنوب أفريقيا في الفترة منذ العام ١٩٦٧، والقفزات التي تحققت في هذا التبادل، لاسيما في التواريخ الرئيسية: ١٩٦٧، ١٩٧٣ و١٩٧٦ (خاصة بالنسبة لصادرات جنوب أفريقيا، في الحالة الأخيرة).

ان الأهمية الحقيقية لهذا التبادل بالنسبة لجنوب أفريقيا، ثم التأكيد عليها في الصحيفة الحكومية الاقتصادية الفصلية واسعة النفوذ «الفايننشال ميل»، التي أشارت في العام ١٩٧٩ الى:

(أ) ان اسرائيل، بالاضافة الى سويسرا، هي صاحبة أسرع ميزان تجاري تصاعداً مع جنوب أفريقيا.

(ب) إذا ما أخذت بالاعتبار مشتريات الماس الخام ومشتريات الجيش غير المعلنة، فان اسرائيل هي واحدة من أكبر شركاء جنوب أفريقيا التجاريين.

(ج) بعد العام ١٩٨١، يتوقع أن تصل مبيعات جنوب أفريقيا الى اسرائيل الى بليون راند.

(د) ان اسرائيل دولة نموذجية بالنسبة لمشاريع التصنيع المشتركة وللاستثمار الصناعي الانتقائي، وذلك لكونها عضواً في المجموعة الاقتصادية الأوروبية التي تصدر تشكيلة كبيرة من البضائع الى السوق الحرة في الولايات المتحدة(١٣٢).

وأشارت «الفايننشال ميل» أيضاً، الى أن طبيعة التبادل التجاري تحولت في السنوات الأخيرة من تبادل في الاتجاهين للأغذية والأقمشة والمنتجات المشابهة، الى تبادل للمواد المصنعة والمواد الأولية اللازمة للصناعة في أغلبه. فجنوب أفريقيا تستورد البلاستيك، الكيماويات، الالكترونيات والآليات، وتصدر الحديد، الفولاذ، الخلائط الحديدية، السكر، التبغ، الاسبستوس (الحرير الصخري)، الأخشاب، الآلات، معدات الري، والمواد الكيماوية اللازمة لصناعة البلاستيك والأدوية(١٣٣).

توظيف الأموال و «المشاريع المشتركة»

ان المشاريع المالية المشتركة هي أحد أهم أشكال التعاون بين الدولتين، وأهميتها تكمن في أنها تفتح أسواق التصدير أمام بضائع جنوب أفريقيا، ولولاها لكانت هذه الأسواق مغلقة أو مفتوحة ولكن بشروط أقل ملاءمة.

ومن الواضح أن هذه الترتيبات تكتسب أهمية، خاصة بالنسبة لجنوب أفريقيا، في حال فرضت الأمم المتحدة بالقوة تطبيق العقوبات الاقتصادية ضدها بسبب التمييز العنصري. وقد وصفتها «الفايننشال ميل» بأنها ربما كانت أهم تطور في الصلات بين اسرائيل وجنوب أفريقيا خلال السنوات الأخيرة(١٣٤).

وبما أن أي سلعة يضاف اليها ٤٠٪ من قيمتها في اسرائيل تصنف على أنها من المنتجات الاسرائيلية، فان البضائع نصف المكتملة يمكن أن تصدر من جنوب أفريقيا الى اسرائيل، لتكتمل هناك ثم يعاد تصديرها الى بلد آخر، بالاضافة الى ذلك، فان اسرائيل تقدم للمستثمرين الأجانب حوافز هي، وفقاً لـ «الفايننشال ميل»، بين أكثر

الحوافز جاذبية في أي مكان آخر.

وتتضمن هذه الحوافز هبات وقروضاً بفوائد منخفضة (أكثر من ٧٥٪ من التوظيفات بالودائع الثابتة)، بنى تحتية مجانية في بعض مناطق التنمية، مشاركة حكومية في تكاليف بحث وتطوير السلع المعدة للتصدير، تسهيلات ضريبية من بينها اعفاء تام من ضريبة الدخل للسنوات الخمس الأولى، حقوق مضمونة باخراج الأرباح ورأس المال بالعملة الأجنبية، ومساعدات حكومية في مجال التدريب العمالي.

لقد وقعت اسرائيل وجنوب أفريقيا اتفاقاً ضريبياً مزدوجاً في العام ١٩٧٨. ومع ذلك، بقي على المستثمر الجنوب أفريقي أن يحصل على موافقة حكومته حتى يستطيع توظيف أمواله خارج البلاد: وعموماً، يجب أن يكون هذا المستثمر شركة مملوكة في جنوب أفريقيا، مسجلة في جنوب أفريقيا، ويجب أن تعاد ايرادات توظيفاتها في الخارج الى الوطن. ولقد خصص لهذا الغرض ١٢ مليون راند سنوياً منذ العام ١٩٧٧، منها ٨,٥ ملايين راند تمت الموافقة على توظيفها في اسرائيل في العام ١٩٧٨ ــ ١٩٧٩[١٣٥].

ولقيت خطط المشاريع المشتركة تشجيعاً على المستويات العملية، الحكومية وحتى الأكاديمية. فقد عقد في جنوب أفريقيا مؤتمر نظمته غرفة تجارة جنوب أفريقيا ــ اسرائيل، بالاشتراك مع جامعتي تل ــ أبيب وستيلينبوخ، لوضع تفاصيل خطط ارسال منتجات جنوب أفريقيا نصف المكتملة الى اسرائيل لاتمامها هناك، وتصديرها الى المجموعة الاقتصادية الأوروبية كمنتجات اسرائيلية. وتتضمن هذه البضائع مصنوعات بلاستيكية منتجة برأسمال اسرائيل في «الوطن» الأسود الجنوب أفريقي[١٣٦].

وذكر في العام ١٩٧٧ أن مجموعة شركات «كور» الاسرائيلية التي تتولى مع «ايسكور» صقل وتوزيع فولاذ جنوب أفريقيا، هي وكيلة لهذا الفولاذ داخل المجموعة الاقتصادية، على الرغم من أن هذا النبأ نفي لاحقاً[١٣٧].

وتبقى مؤسسة «ايسكور» واحدة من أهم شركات المشاريع المشتركة، وهي تدير مصنعاً للفولاذ في كريات ــ غات وتستورد حوالى ٥٠٪ من مستوردات اسرائيل غير المعلنة من جنوب أفريقيا، التي تمثل بدورها ٤٠٪ من صادرات جنوب أفريقيا المعلنة الى اسرائيل[١٣٨].

وذكر في العام ١٩٧٦ أن مجموعة «كور» التي تتعاون مع «سراكم» الجنوب أفريقية في صناعة الكيماويات والأسمدة بغرض اعادة تصديرها، أنها تخطط لتوسيع مشاريعها الكيماوية[١٣٩].

وتمتلك «كور» بالاشتراك مع وزارة الدفاع الاسرائيلية شركة «تاديران»، وهي شركة الكترونيات تنتج تجهيزات عسكرية متطورة جداً، وتقيم اتصالات متقدمة مع جنوب أفريقيا منذ العام ١٩٧٠. وتشكل «تاديران» وشركة «كالان» الجنوب أفريقية معاً قوة مندمجة، وهما تعملان في جنوب أفريقيا وتستخدمان معدات جنوب أفريقية بنسبة ٦٠ ــ ٦٥٪.

وهناك شركة تابعة أخرى لـ«كور» هي «افيترا» التي تبيع بضائع اسرائيلية الى جنوب أفريقيا، وتسوّق بضائع هذه الأخيرة في الخارج[١٤٠]. وقال متحدث باسم «كور» في اسرائيل في العام ١٩٧٩: «ان الشركات الجنوب أفريقية المعنية متحمسة لتصدير المعدات نصف الجاهزة»[١٤١].

و«كالان» بدورها تمتلك شركة تابعة في هرتزليا تنتج قفازات للعمليات الجراحية[١٤٢]. وأقامت شركة «هندلر أند هندلر»، من جنوب أفريقيا، مصنعاً في اسرائيل لانتاج أدوات المطبخ بلغت تكاليفه ٦ ملايين راند، وهي تتوقع أن تستورد مواداً أولية بقيمة ٣ ــ ٤ ملايين راند سنوياً من جنوب أفريقيا. «ان السبب الرئيسي للذهاب الى اسرائيل هو كسب معبر الى السوق المشتركة»..

وأعطت «كيمترا» تبريرات مماثلة لخططها الخاصة بالانضمام الى شركة «بوليكروم» الاسرائيلية في انتاج الكيماويات اللازمة لصناعة البلاستيك والدهانات. كذلك فان شبكة «ترانسفال» و«غرينشتاين» و«روزن» تضع منتجاتها، أو جزءاً منها على الأقل، في اسرائيل والدافع لها هو الفكرة نفسها. وشركات «هوني كرانتش»، «أبول» و«فيتال» تصدر بدورها المواد الأولية الى شركة «موينستر» للمواد الغذائية في تل ــ أبيب[١٤٣].

وربما كان أكبر عقود المشاريع المشتركة ذلك العقد الخاص ببناء مطار عسكري اسرائيلي في صحراء النقب. ولقد سمحت وزارة الدفاع الاسرائيلية لثماني شركات من جنوب أفريقيا

بالاشتراك في المناقصة، في العام ١٩٧٩، شرط أن تشارك شركات اسرائيلية.

في العام ١٩٨٠، أشارت التوقعات الى أن تدفق التوظيفات الى اسرائيل سيشهد دفعاً جديداً، واقامت شركة «اس. أر. أي» العقارية الجنوب أفريقية صلة مع «كوركس» في تل ــ أبيب، للقيام بمزيد من التوظيفات في ضوء خطة اسرائيل توجيه اقتصادها نحو التصدير(١٤٤).

وانسجاماً مع التشجيع الاسرائيلي الرسمي والفعال للصلات التجارية والمشاريع المشتركة، قرر مكتب المبيعات الزراعية في اسرائيل «أغركسكو» في العام ١٩٨٠، تسويق انتاج جنوب أفريقيا في الولايات المتحدة(١٤٥).

الصلات مع «الوطن»

في الفترة منذ العام ١٩٧٦، أبدت اسرائيل اهتماماً متصاعداً بـ«الوطن» الأسود في جنوب أفريقيا. وعلى الرغم من أن قليلاً من التفاصيل حول التعاون الاقتصادي تم نشرها، فإن هناك دلائل تدفع على تصور حصول توظيفات اسرائيلية في الوطن، ومشاريع مشتركة، من تلك التي تعنى بتصنيع جزئي للسلع هناك لاتمامها في اسرائيل.

وفي وقت مبكر من بداية العام ١٩٧٦ قال عضو الكنيست موردخاي بن بورات، خلال زيارة لجنوب أفريقيا، ان اسرائيل مهتمة بمساعدة جنوب أفريقيا على «تنمية» قطاعها الزراعي. وفي الأشهر التي تلت زيارة رئيس وزراء جنوب أفريقيا الى اسرائيل، ذكر أن وفداً من وزارة الزراعة في جنوب أفريقيا ذهب الى اسرائيل(١٤٦).

في شباط (فبراير) ١٩٧٧ زار ممثلان لشركة «بانتو» للاستثمار اسرائيل، في اطار جولة في أوروبا الغربية تهدف الى جذب توظيفات الى «الوطن». وأشارت أنباء صحافية الى أن شركات اسرائيلية عدة، وبخاصة تلك المعنية بصناعة المواد البلاستيكية، أبدت اهتماماً بفكرة «استخدام الأيدي العاملة الرخيصة والمتوسطة الكفاءة الموجودة في جنوب أفريقيا، ثم اعادة البضائع مجدداً الى اسرائيل سواء كانت جاهزة أم بحاجة الى وضع اللمسات النهائية الضرورية عليها، ومن ثم تصديرها الى أماكن أخرى، قد تكون أسواق المجموعة الاقتصادية الأوروبية»(١٤٧).

في عام ١٩٧٨، قامت مجموعة من «رجال الدين والمربين» من «ترانسكاي، جنوب أفريقيا، وبوغوتاتسوانا» بزيارة اسرائيل(١٤٨).

وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٠، أعلنت «بوخوتا تسوانا» في اسرائيل عن حاجتها لثمانية من كل من الحرف التالية «ميكانيكيي محركات، فنيي هاتف، أطباء ومهندسين»، وتلقت ٢٠٠٠ طلب وذلك عشية زيارة «خاصة» قام بها الرئيس لوكاس مانغوب جاءت في وقت كان لبوغوتاتسوانا «تمثيل تجاري خاص» في اسرائيل برئاسة شاباتاي كالمانوفيتش وهو مستشار سابق لرئيسة الوزراء غولدا مائير.

وكان كالمانوفيتش مسؤولاً عن عملية مسح لثروات بابوتا تسوانا الزراعية لصالح حكومة «الرئيس» مانغوب(١٤٩).

في شباط (فبراير) ١٩٨١، زار «وزير» الصحة البانتووي (نسبة لقبائل البانتو) اسرائيل أيضاً. حيث تعاقد مع ١٦ طبيباً وطبيب أسنان للعمل في بوغوتاتسوانا(١٥٠).

في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٠ أعلن «رئيس» فيندا باتريك مفيفو، اثر عودته من زيارة لاسرائيل، ان اسرائيل وعدت فيندا «باعتراف في المستقبل القريب»، وهو ما نفته وزارة الخارجية الاسرائيلية على الفور.

وقال مفيفو أيضاً: انه يأمل في أن يصدر الأخشاب، والمفروشات واللحوم الحمراء الى اسرائيل(١٥١)، وانه دعا البروفيسور مارميلي من جامعة حيفا لزيارة فيندا في شباط (فبراير) ١٩٨١ لابداء رأيه في عملية تصدير منتجاتها(١٥٢).

الشحن والسياحة

ان النقل البحري بين اسرائيل وجنوب أفريقيا تسيطر عليه شركة الشحن المشتركة «زينكورن» التي تملكها شركة الملاحة الاسرائيلية «زيم» ــ وهي الشركة الاسرائيلية الوطنية ــ و«يونيكورن» وهي شركة من جنوب أفريقيا تملكها «سافكورشيب».

ولقد أدى ادخال خدمات الحاويات (كونتينرز) في الشحن البحري، عام ١٩٧٦ الى زيادة صادرات جنوب أفريقيا من الفولاذ والأخشاب(١٥٣).

أما النقل الجوي فتتولاه شركتا «العال» والخطوط الجوية لجنوب أفريقيا، اللتان نقلتا معاً ٣٢ ألف مسافر بين البلدين في العام ١٩٧٨، هم ٢٥ ألف جنوب أفريقي و٧ آلاف اسرائيلي[١٥٤]، وأن عدد الجنوب أفارقة الذين زاروا اسرائيل كان دائماً مرتفعاً، وهو يمثل ٥٠ ٪ أكثر من عدد العام الذي قبله[١٥٥].

كذلك تصاعدت حركة السياحة من اسرائيل الى جنوب أفريقيا مؤخراً، مسجلة ارتفاعاً بنسبة ٣٠ ٪ بين عامي ١٩٧٨ و ١٩٧٩[١٥٦]. وقد قررت حكومة جنوب أفريقيا فتح مكتب سياحي في اسرائيل في العام ١٩٧٩ لتصبح بذلك أول دولة تفتح مثل هذا المكتب[١٥٧].

تبادل الزيارات

منذ الاتفاق التجاري في العام ١٩٧٦، تبودلت سلسلة من الزيارات بين البلدين قامت بها وفود على مستوى عال. ومن بين هذه الزيارات واحدة قام بها لجنوب أفريقيا في العام ١٩٧٨ وزير المالية الاسرائيلي، أول وزير اسرائيلي يقوم بمثل هذه الزيارة، وقد ردّها وزير مالية جنوب أفريقيا في العام ١٩٨٠.

١ ــ في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٦ التقى وفد تجاري جنوب أفريقي ذو مستوى رفيع المنتجين الصناعيين والسياسيين في اسرائيل. وضم الوفد رئيس غرفة تجارة جوهانسبرغ، ومدير شركة التنمية الصناعية. وقد نظمت الزيارة غرفة العلاقات الاقتصادية بين جنوب أفريقيا واسرائيل، غرفة تجارة اسرائيل ــ جنوب أفريقيا، جمعية الصناعيين الاسرائيليين ووزارة التجارة والصناعة الاسرائيلية.

وذكر أن المحادثات تناولت تجارة الالكترونيات، الكيماويات، الصناعات المعدنية، والبلاستيك[١٥٨].

٢ ــ في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٦ زار جنوب أفريقيا ثلاثة مسؤولين اسرائيليين كبار هم: مراقب القطع الأجنبي، مدير هيئة الاستثمار ومدير مركز الاستثمار[١٥٩].

٣ ــ في أيلول ١٩٧٧ قام حاكم مصرف الاحتياط الاسرائيلي أرون غافني بزيارة جنوب أفريقيا. ودعا بشكل خاص الى تعاون اقتصادي بين البلدين في شكل مشاريع مشتركة[١٦٠].

٤ ــ في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٧، كان مقرراً أن يقوم فريق من الخبراء الاسرائيليين بزيارة جنوب أفريقيا، لتشجيع رجال الأعمال فيها على الاستفادة من اتفاقات التجارة الحرة بين اسرائيل والمجموعة الاقتصادية الأوروبية، وذلك عبر انشاء شركات تابعة في اسرائيل، أو الدخول في مشاريع مشتركة مع الشركات الاسرائيلية[١٦١].

٥ ــ في شباط (فبراير) ١٩٧٨ قام وزير مالية اسرائيل سيمحا ايرليخ بأول زيارة رسمية لوزير اسرائيلي الى جنوب أفريقيا. والتقى هناك نظيره السناتور أوين هوروود، في اطار اللجنة الاقتصادية المشتركة المنشأة بموجب اتفاقات العام ١٩٧٦.

ووقع الوزيران اتفاق تعاون يغطي حد ائتمان صناعي لاسرائيل لتمكينها من شراء ما قيمته حوالى ٤٠ مليون راند من البضائع الجنوب أفريقية، بينها منتجات فولاذية من النوعية الممتازة. كما وقعا اتفاقاً جديداً حول الضريبة المتبادلة.

وأكد ايرليخ أنه يستطيع أن يقدم للمستثمرين في جنوب أفريقيا عرضاً جذاباً لتصدير البضائع الى السوق الأوروبية المشتركة والولايات المتحدة، في ضوء العقوبات التجارية المحتملة ضد جنوب أفريقيا[١٦٢].

٦ ــ زارت بعثة من مؤسسة الصناعيين في اسرائيل جنوب أفريقيا في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٨.

٧ ــ أوفدت غرفة التجارة في جنوب أفريقيا بعثة الى اسرائيل في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨[١٦٣].

٨ ــ في العام ١٩٧٩، جرت مفاوضات بين ممثلين عن «انترغولد» (جنوب أفريقيا) والمصارف الاسرائيلية[١٦٤].

٩ ــ دعي مائة وخمسون من الاسرائيليين المتعاملين بالماس الى تعاون دولي في جنوب أفريقيا في أيار (مايو) ١٩٨٠[١٦٥].

١٠ ــ في أيار (مايو) ١٩٨٠ دعي ١٥٠ من الاسرائيليين المتعاملين بالماس لحضور مؤتمر دولي في جنوب أفريقيا[١٦٦].

١١ ــ في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٠، قام وزير مالية جنوب أفريقيا اوين هوروود بزيارة اسرائيل، والتقى رئيس الوزراء بيغن، وكذلك

وزير المال يغئال هورفيتش.

وذكر أنه تم الاتفاق على رفع حدود الائتمان الى ١٦٥ مليون دولار بالنسبة للمستوردين الاسرائيليين للبضائع الجنوب أفريقية، وعلى رفع سقف الاستثمار الجنوب أفريقي في اسرائيل من ٥٠ الى ٦٠ مليون دولار خلال ٣ سنوات، وعلى تشكيل لجنة على مستوى مدراء عامين، مهمتها تحسين التجارة بين البلدين، وعلى زيادة صادرات الفحم من مصنع «هاويرا» للطاقة بدءاً من العام ١٩٨٦ (وقد طلب الاسرائيليون رفع هذه الصادرات من ٥ مليون طن كان اتفق عليها في العام ١٩٧٩ الى ٣ ملايين طن)، وعلى تمديد اجازات الصيد للاسرائيليين على شواطىء جنوب أفريقيا التي منحت لهم في العام ١٩٧٨.

واتفق على أن تتم مناقشة النقطتين الأخيرتين في وقت لاحق. ووافق السناتور هوروود أيضاً على بيع ما تفوق قيمته ٢٥ مليون دولار من سندات الخزينة الاسرائيلية داخل جنوب أفريقيا، وهي المرة الأولى التي يسمح فيها لبلد أجنبي بأن يستدين من سوق رؤوس الأموال من جنوب أفريقيا(١٦٧).

التعاون السياسي والديبلوماسي ١٩٧٦ ــ ١٩٨٠

شهدت العلاقات السياسية والديبلوماسية، وكذلك العسكرية والاقتصادية بين البلدين خلال السنوات الخمس الماضية ازدهاراً لم تشهده في أي وقت مضى منذ العام ١٩٤٨. وعلى الرغم من أن ممثلي اسرائيل في الأمم المتحدة استمروا في اعلان مناهضة بلدهم للتمييز العنصري، فان حكومة بيغن قررت من جهتها الزام نفسها بالتحالف.

في العام ١٩٧٦، عينت جنوب أفريقيا أول سفير كامل الصلاحية لها في اسرائيل، وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٧٧ قام ر.ف. بوتا وزير خارجية جنوب أفريقيا بزيارة «خاصة» استغرقت ٤٨ ساعة الى اسرائيل، لمناقشة «مشاكل حركة الطيران»، وقام «بزيارة مجاملة» لبيغن(١٦٨).

وقام كوني ملدر وزير الداخلية والاعلام في جنوب أفريقيا «بزيارات سرية» عدة الى اسرائيل خلال العام ١٩٧٧(١٦٩).

وزار وزير مالية اسرائيل سيمحا ايرليخ جنوب أفريقيا في شباط (فبراير) ١٩٧٨، كأول عضو في حكومة اسرائيلية يقوم بزيارة لهذه الدولة.

في العام ١٩٧٩ تقاعد اسحق أونا أول سفير لاسرائيل في جنوب أفريقيا، وكان قد عيّن قنصلاً عاماً في العام ١٩٦٨ ورافق فورستر الى اسرائيل في العام ١٩٧٦. وفي مجال التعليق على هذا التقاعد عزت التقارير الصحافية الى أونا جزءاً كبيراً من مسؤولية «التحسن الدراماتيكي» للعلاقات بين البلدين خلال فترة توليه منصبه(١٧٠).

في آذار (مارس) ١٩٨٠ زار وزير الدفاع الاسرائيلي جنوب أفريقيا سراً لمدة ثلاثة أيام، أعلنت اذاعة اسرائيل بعدها أنها كانت واحدة من سلسلة زيارات يقوم بها وزراء من البلدين دون أن يتم الاعلان عنها جميعها(١٧١).

وفي العام ١٩٧٩ قررت جنوب أفريقيا نقل سفارتها من تل أبيب الى القدس بالرغم من احتجاجات الحكومات العربية(١٧٢).

وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٠ ردّ أوين هوروود وزير مالية جنوب أفريقيا الزيارة لايرليخ.

روزالين اينسلس

ترجمة حسان حيدر
(عن الانكليزية)

---

(١) Peter Hellyer, *Israel and South Africa, Development of Relations 1967-74,* United Nations document, A/AC.115/L.396.
(٢) Hellyer, *Ibid.*
(٣) *Ibid.*
(٤) *Rand Daily Mail,* 31 May 1967.
(٥) *Ibid,* 6 August 1967.
(٦) *Ibid.,* 20 June 1967.
(٧) *Die Burger,* 29 May 1968.
(٨) *Rand Daily Mail,* 1 August 1967.

London, 1972.

(٣٥) *Jewish Chronicle,* London, 24 March 1972.

(٣٦) *United Nations document,* A/9022.

(٣٧) *Sechaba,* April 1970.

(٣٨) Hellyer, *op.cit.*

(٣٩) *The Star,* Johannesburg, 3 January 1969.

(٤٠) *Rand Daily Mail,* 8 March 1972.

(٤١) *Ibid.,* 9 September 1968, 28 October 1968.

(٤٢) *Ibid.,* 10 May 1969.

(٤٣) *Ibid.,* 8 August 1969.

(٤٤) *Ibid.,* 19 February 1970.

(٤٥) *Sunday Express,* Johannesburg, 5 April 1970.

(٤٦) *Jewish Chronicle,* 18 June 1971; *The Star,* 5 June 1971.

(٤٧) *Rand Daily Mail,* 15 September 1971; Jewish Chronicle, 5 November 1971.

(٤٨) *Ibid.,* 11 October 1971; *Kuwait Times,* 13 June 1971.

(٤٩) *Cape Argus,* 6 March 1972.

(٥٠) Hellyer, *op.cit.*.

(٥١) *Rand Daily Mail,* 10 May 1973, 14 May 1973; *The Star,* 18 August 1973.

(٥٢) *The Star,* 22 September 1973; *Third World Reports,* London, October 1973.

(٥٣) *Rand Daily Mail,* 1 June 1973; *To the Point,* 6 October 1973; *Rand Daily Mail,* 12 May 1975.

(٥٤) *Rand Daily Mail,* 4 April 1968.

(٥٥) *Ibid.,* 10 October 1967.

(٥٦) *Ha'aretz,* 1 December 1967.

(٥٧) *Sunday Times,* 10 October 1967.

(٥٨) *Jewish Telegraphic Agency,* 20 January 1970.

(٥٩) *S.A. News and Press Review, op.cit.,* December 1970.

(٦٠) *New York Times,* 30 April 1971.

(٦١) *Israel Radio,* 30 June 1971.

(٦٢) *Rand Daily Mail,* 11 September 1971.

(٦٣) *Yediot Aharanot,* 16 August 1973.

(٦٤) *Rand Daily Mail,* 15 October 1973.

(٦٥) *Cape Times,* 12 and 17 October 1973.

(٩) *Ibid.,* 14 March 1968; *Sechaba,* published by the African National Congress of South Africa, April 1970.

(١٠) *Ibid.,* 5 April 1968.

(١١) Hellyer, *op.cit.,* quoting from the *American Jewish Yearbook* 1969.

(١٢) *Rand Daily Mail,* 16 July 1968, 13 August 1968.

(١٣) *Ibid.,* 1 August 1968.

(١٤) Hellyer, *op.cit.,* quoting *Directions of Trade,* International Monetary Fund, 1968.

(١٥) Hellyer, *op.cit.*

(١٦) *Rand Daily Mail,* 12 August 1969.

(١٧) *Ibid.,* 28 October 1969.

(١٨) *Ibid.,* 27 November 1969.

(١٩) *South African Financial Gazette,* 22 January 1971.

(٢٠) *South African News and Press Review,* South Africa Foundation, London, Oct.-Nov. 1970.

(٢١) *South African Financial Gazette,* 17 July 1970.

(٢٢) *Ibid.,* 22 January 1971.

(٢٣) *Baghdad Observer,* 10 March 1971, quoted by Hellyer, *op.cit.*

(٢٤) *South African Digest,* 7 May 1971.

(٢٥) *Christian Science Monitor,* 5 June 1971.

(٢٦) *South African Broadcasting Corporation,* Johannesburg, 19 April 1972.

(٢٧) *Frankfurt Documents,* Corporate Information Centre of the National Council of Churches NewYork, CIC Brief, July 1973.

(٢٨) *South African Financial Gazette,* 5 January 1973.

(٢٩) *Reuters,* 20 February 1973.

(٣٠) *Sunday Times,* Johannesburg, 16 September 1973.

(٣١) *Guardian,* 2 June 1973.

(٣٢) *Rand Daily Mail,* 19 July 1968, 16 April 1968.

(٣٣) *Ibid.,* 11 August 1970.

(٣٤) *Ibid.,* 1 September 1971; *Today's News,* South African Embassy, London, 3 August 1971; *Report from South Afric,*

Foreign Report, 2 November 1977. (٩٢)
Economist, 5 November 1977. (٩٣)
A/33/22 Add. 2, paras. 17,19. (٩٤)
A/35/22 Add. 2, para. 10. (٩٥)
Economist Foreign Report, 26 March 1980. (٩٦)
A/31/22 Add. 2, para. 51. (٩٧)
A/33/22 Add. 2, para. 16. (٩٨)
A/35/22 Add. 2, para. 13. (٩٩)
Rand Daily Mail, 13 February 1979. (١٠٠)
S/AC.20/SR, 17. (١٠١)
South African Digest, Pretoria, 30 May 1980. (١٠٢)
Citizen, Johannesburg, 24 July 1980. (١٠٣)
To the Point, 8 August 1980; *South African Digest,* 22 August 1980. (١٠٤)
South African Digest, 19 September 1980. (١٠٥)
Financial Times, 20 March 1980; *Economist Foreign Report,* 26 March 1980. (١٠٦)
A/32/22 Add. 3, paras. 11,13. (١٠٧)
A/34/22 Add. 1, paras. 12,14. (١٠٨)
The Nuclear Axis, op.cit. (١٠٩)
A/35/22 Add. 2, paras. 11, 12; *Wall Street Journal,* 16 July 1980; *Rand Daily Mail,* 20 August 1980; *Times,* 14 August 1980; *Guardian,* 21 October 1980. (١١٠)
Economist Foreign Report, 2 October 1980. (١١١)
The Washington Post, 13 September 1980. (١١٢)
Ibid., 9 December 1980. (١١٣)
Cape Times, 14 June 1979. (١١٤)
The Nuclear Axis, op.cit., p.160. (١١٥)
A/35/22 Add. 2, paras. 6,7. (١١٦)
A/33/22 Add. 2, para. 12. (١١٧)
A/32/22 Add. 3, para. 7 (١١٨)
Ibid., para. 9. (١١٩)
A/34/32 Add. 1, para. 19. (١٢٠)
Economist Foreign Report, 2 October 1980. (١٢١)
Ibid., para. 22. (١٢٢)
To The Point, 2 March 1979; *New York Times,* 23 February 1981; *Guardian,* 23 April 1981. (١٢٣)

Daily Telegraph, 31 October 1973; Hellyer, *op.cit.* (٦٦)
Guardian, 8 March 1974. (٦٧)
United Nations document A/AC.115/L.383, para. 3. (٦٨)
Rand Daily Mail, 12 and 24 March 1974. (٦٩)
Hellyer, *op.cit.* (٧٠)
Jewish Chronicle, 28 June and 2 August 1974. (٧١)
United Nations document A/Ac.115/L.411, para.30. (٧٢)
United Nations document A/AC.115/L.411, para.2. (٧٣)
Ibid, para.3. (٧٤)
Hellyer, *op. cit.* (٧٥)
United Nations document A/AC.115/L.411, paras.10,11. (٧٦)
Ibid., para. 7. (٧٧)
Ibid., para. 8. (٧٨)
Ibid., para. 30. (٧٩)
United Nations document A/AC.115/L.411, para. 2. (٨٠)
Rand Daily Mail, 14 April 1976. (٨١)
Financial Times, 20 February 1976; *Jerusalem Post,* 9 March 1976. (٨٢)
Daily Telegraph; Guardian, 12 April 1976. (٨٣)
United Nations document A/31/22/Add.2, para 52. (٨٤)
Ibid., para. 50. (٨٥)
See, for example, *statement by Ambassador Chaim Herzog,* 1 November 1976 and 1 June 1978, and by *Ambassador Yehuda Z. Blum,* 24 November 1978 and 8 November 1979. (٨٦)
The Military Balance, Institute of Strategic Studies, London, 1981. (٨٧)
The Nuclear Axis, Barbara Rogers and Zdenek Cervenka, Julian Friedman, London, 1978. (٨٨)
A/32/22 Add.3, paras.7,8. (٨٩)
A/32/22 Add.2, para. 12. (٩٠)
Ibid., para. 13; *Economist Foreign Report,* 2 November 1977. (٩١)

October 1980.

(١٥٠) *BBC,* 19 February 1981.

(١٥١) *BBC,* 1 January 1981.

(١٥٢) *Rand Daily Mail,* Johannesburg, 31 December 1981.

(١٥٣) *Sunday Times,* Johannesburg, 14 May 1978.

(١٥٤) *Financial Mail,* Johannesburg, 14 September 1979.

(١٥٥) Johannesburg, 14 May *Sundy Times* 1978.

(١٥٦) *Rand Daily Mail,* Johannesburg, 17 September 1979.

(١٥٧) *ITIM broadcast from Tel Aviv,* 14 May 1979.

(١٥٨) *A/32/22 Add.3,* para. 16.

(١٥٩) *Ibid.,* para. 17. 17.

(١٦٠) *Ibid.,* para. 19.

(١٦١) *A/32/22 Add. 3,* para. 20.

(١٦٢) *Ibid.,* paras. 4,5,6,9.

(١٦٣) *A/34/22 Add. 1,* para. 28.

(١٦٤) *A/35/22 Add. 2,* para. 16.

(١٦٥) *Ibid.,* para. 19.

(١٦٦) *Ibid.,* para. 21.

(١٦٧) *Financial Mail,* Johannesburg, 19 December 1980; *Star,* Johannesburg, 25 February 1978; *South African Digest,* 20 April 1979; *Rand Daily Mail,* Johannesburg, 13 December 1980.

(١٦٨) *Sunday Times,* Johannesburg, 5 September 1977; *Financial Times,* London, 5 September 1977; *Rand Daily Mail,* Johannesburg, 5 September 1977.

(١٦٩) *Sunday Times,* Johannesburg, 27 November 1977.

(١٧٠) *Rand Daily Mail,* Johannesburg, 26 July 1979.

(١٧١) *Financial Times,* London, 20 March 1980.

(١٧٢) *Radio Tel Aviv,* 18 June 1979.

(١٧٤) *Africa Confidential,* 4 August 1978; *New York Times,* 20 May 1977.

(١٢٥) *A/AC.115/L83,* paras. 15, 16; *Africa Confidential,* 4 August 1978; *Financial Mail,* Johennesburg, 14 September 1979; *Guardian,* London, 15 February 1978.

(١٢٦) *A/31/22 Add. 2,* para. 57.

(١٢٧) *Financial Mail,* Johannesburg, 14 September 1979.

(١٢٨) *Financial Mail,* Johannesburg, 14 September 1979.

(١٢٩) *New York Times,* 17 June 1977.

(١٣٠) *Financial Mail,* Johannesburg, 14 September 1979.

(١٣١) *Ibid.*

(١٣٢) *Financial Mail,* Johannesburg, 14 September 1979.

(١٣٣) *Ibid*

(١٣٤) *Ibid.,* 4 May 1979.

(١٣٥) *Ibid.,* 14 September 1979.

(١٣٦) *Tribune,* 6 March 1981.

(١٣٧) *A/32/22 Add. 3,* para. 24.

(١٣٨) *Financial Mail,* Johannesburg, 14 September 1979; *Financial Times,* 6 February 1978.

(١٣٩) *A/32/22 Add.3,* para. 23.

(١٤٠) *Ibid.,* para. 26; AFP 8 Decmeber 1976; *Sunday Times,* Johannesburg, 14 May 1978; *Financial Mail,* 14 September 1979.

(١٤١) *Financial Mail,* 14 September 1979.

(١٤٢) *Ibid.*

(١٤٣) *Financial Mail,* 4 May 1979.

(١٤٤) *The Star,* Johannesburg, 19 April 1980.

(١٤٥) *Ibid.,* 13 October 1980.

(١٤٦) *A/32/22Add.3,* para.29.

(١٤٧) *A/32/22Add.3,* para. 30.

(١٤٨) *Daily Disptach,* East London, 25 August 1978.

(١٤٩) *Sunday Times,* .Johannesburg, 19

رحيل «الاستاذ»

في السادس عشر من اكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٨١، وبينما كان العالم الفلسطيني المشهور، عبد اللطيف طيباوي، يعبر أحد شوارع لندن؛ وهو في طريقه لإيداع رسالة في البريد، صدمته شاحنة بريطانية فتوفي في المستشفى، في اليوم نفسه، عن واحد وسبعين عاماً. وبعد الصلاة عليه، ووري الثرى في أرض المنفى والغربة. وبوفاته، فقدت فلسطين والعالمان: العربي والاسلامي واحداً من صفوة العلماء الأجلاء ومؤرخا ضليعا شكلت وفاته خسارة فادحة لعالم الثقافة والمعرفة.

الدكتور طيباوي (١٩١٠ــ١٩٨١) الذي كان معروفا، ببساطة، بلقب «الاستاذ»، رأى النور في قريته: الطيبة، في قضاء طولكرم في فلسطين، في التاسع والعشرين من نيسان (ابريل) عام ١٩١٠. وتمثل قصة حياته خلاصة رائعة لتاريخ فلسطين الحديث. أبوه محمد طيباوي وأمه طرفة الهدهد من آل جابر، أحد أفخاذ عشيرة بني صعب. وكانت أسرته شديدة التعلق بأرضها وتعاطت الزراعة في مروج فلسطين جيلا بعد جيل. وعلى الرغم من سياسة القمع والتجهيل ومحاربة العلم التي انتهجها الأتراك، فإن آل طيباوي، كسواهم من العائلات والعشائر والحمائل الفلسطينية، كانوا حريصين على اغتراف مناهل العلم والمعرفة، وبالأخص اكتساب القدرة على تلاوة القرآن واستيعاب آياته كأساس لتلك المعرفة.

وفي مدرسة القرية، درس الصبي قدراً كبيرا من القرآن، وحفظه عن ظهر قلب. وغرس هذا في نفسه ولعا دائما بجميع العلوم المتصلة بالقرآن. ومن مدرسة الطيبة، انتقل الى مدرسة في طولكرم انجز دروسها في عامين بدلا من أربعة، وحاز على اعجاب هيئة المدرسة إقرارا بنبوغه ونضجه المبكرين. ثم التحق بكلية التدريب (التي اصبح اسمها، في ما بعد، الكلية العربية في القدس)؛ حيث تتلمذ وأترابه على أيدي اثنين من اعلام فلسطين وفطاحلها المجلين في دنيا العلم والوطنية، وهما: درويش المقدادي وأحمد سامح الخالدي. ولقد أتيح لهذين المربيين الجليلين أن يصقلا في نفس الفتى عبد اللطيف ذلك النزوع الدؤوب والانجذاب العميق الى ميادين التربية والتعليم والدراسات العربية والاسلامية. وتخرج من الكلية العربية بامتياز، مع اعتراف بتفوقه وتنويه بسبقه. وتقديرا للآمال التي عُقدت عليه، قدمت له منحة دراسية لاستكمال تعليمه في الجامعة الاميركية في بيروت، التي طرق أبوابها عام ١٩٢٦، وغادرها بإجازة في التاريخ والعربية والتربية عام ١٩٢٩

وعاد عبد اللطيف طيباوي الى فلسطين ليلقي دروس التاريخ على طلبته في مدرسة الرملة. لكنه ما ان قضى عاما وبعض العام، في عمله هذا، حتى وقع عليه الاختيار ليتولى منصبا اداريا كمساعد لمفتش التربية. ثم أصبح مسؤول التعليم

الأول في اكبر قضاء في فلسطين: قضاء اللد ولدى انشاء الاذاعة الفلسطينية، شرع بالقاء أحاديث اذاعية كرّسها للموضوعات العربية والاسلامية، وأنشأ نظاما اذاعيا تعليميا غايته الارتقاء بمستوى المدرسين، مرسيا بذلك أسس نظام تربوي أولي لتعليم الكبار. وفي العام ١٩٤٧، نال من المجلس البريطاني ــ الذي كان يتولى تدريس الانكليزية في فلسطين للعموم ــ زمالة دراسة لمدة ستة أشهر ليسافر الى انكلترا لدراسة ادارة التعليم في بريطانيا. لكن كارثة فلسطين وقعت بينما كان لا يزال في لندن، فتحولت اقامة الأشهر الستة الى قضاء بقية عمره كلها في بلاد الضباب.

وخلال عامين من وجوده في المنفى الانكليزي، حدث تحوّل مهم في مجرى حياته؛ ذلك أنه التحق بمعهد التعليم في جامعة لندن وحصل على الدكتوراه، عام ١٩٥٢، على «**تعليم العرب في فلسطين تحت الانتداب**» (لندن، ١٩٥٦). وفي وقت لاحق، حصل على زمالة جامعية وعلى وظيفة في هيئة التدريس في المعهد نفسه، وهذا ما منحه فرصته الثمينة ليزاول التدريس، وليقوم بالأبحاث، وليكتب في التاريخ العربي والاسلامي. وظل، طوال سنوات طويلة، القوة الدافعة وراء **المركز الثقافي الاسلامي** في لندن والدورية الصادرة عنه: **الثقافة الاسلامية** وكان هناك اعتراف واسع بمساهماته وابداعه في العالمين: العربي والاسلامي بحيث غدا مستشارا للعديد من وزراء التعليم في جامعة الدول العربية. ومتابعة لاهتمامه بدور الارساليات الاميركية في العالم العربي، حصل على زمالة دراسة لثلاثة أعوام في مركز هارفرد لدراسات الشرق الأوسط؛ حيث قام بالبحث والتنقيب في محفوظات العديد من الارساليات، وكذلك في سجلات المركز الوطني للوثائق في واشنطن. وعام١٩٦٨، كان الخطيب الرئيسي في مؤتمر اتحاد الطلبة المسلمين في كولومبوس، أوهايو، كما كان المحاضر الرئيسي في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٩، في المؤتمر السنوي الثاني لرابطة الجامعيين العرب ــ الأميركيين الذي انعقد في ديترويت، ميتشيغان.

بدأ الدكتور طيباوي عطاءه الفكري الثري والأصيل في سن مبكرة للغاية، إذ انه كان بعد في الخامسة عشرة من عمره حين نال جائزة على مقالة له نشرت في «الهلال» الشهرية المصرية، عام ١٩٢٥، في مباراة علنية مفتوحة اشترك فيها مائتا متسابق بينهم عدد من كبار الكتاب المصريين. وانكبّ، بعد هذا، على سلسلة موثوقة من الدراسات العامة والمتخصصة نشرها في كتب، وفي دوريات دولية، وكراسات، باللغتين: العربية والانكليزية. ولعل اهتمامه بتاريخ فلسطين وأبعاده الثلاثية، أثناء فترة الانتداب، تجسّد اولا في دراسته المبكرة «مراسلات حسين ــ مكماهون واتفاق فيصل ــ وايزمان» التي رفعها إلى اللجنة الملكية البريطانية (لجنة بيل) في عام ١٩٣٦ــ١٩٣٧، كما تجلى، في ما بعد، في دراسته المرجعية عن «العلاقات الانكليزية ــ العربية وقضية فلسطين» (لندن، ١٩٧٧). وإذا كان المجال لا يسمح، في هذه العجالة، لنقدم كشفا مفصلا بشتى الروافد الثقافية الدفاقة التي صبّها الراحل الجليل في عدة مؤلفات فذة، الا انه لا بد من الاشارة، ولو باقتضاب، الى ثلاثة ميادين عريضة نالت جلّ كدّه العلمي على امتداد حياته الغنية السخية بثمار الفكر: أولها اهتمامه بميدان التعليم الذي أفرد له ثلاثة من مؤلفاته العظيمة، كان اولها بالعربية، وهو لا يزال في القدس، أعني كتابه: «التربية والتعليم». اما الآخران فبالانكليزية وهما: الأول وهو: «التعليم العربي في فلسطين الانتداب» الذي يبقى أهم مرجع معتمد عن نظام التعليم في فلسطين أثناء فترة الانتداب، والذي رجعت إليه جميع المؤلفات اللاحقة للمفكرين الفلسطينيين في هذا الموضوع. والثاني وهو: «التعليم الاسلامي» (لندن، ١٩٧٢)؛ وهو ليس تحليلا لنظام التعليم الكلاسيكي الذي ساد بلدان العالم الاسلامي فحسب، بل يمثل أيضا دراسة لما شهده ذلك النظام من تحولات وتطورات في أنظمة التعليم العربية.

اما الدائرة الثانية التي استقطبت جهود الدكتور طيباوي الفكرية، فتتمثل في عنايته الفائقة برصد التسلل الغربي الى العالم العربي على الصعيد التعليمي ــ الثقافي. وكان ثمرة جهوده المضنية وغوصه الشاق في هذا المضمار كتابه الشامل عن «المصالح البريطانية في فلسطين» (اكسفورد، ١٩٦١)، و«المصالح الاميركية في

سوريا» (اكسفورد، ١٩٦٦)، و«التسلل الثقافي الروسي الى سوريا ــ فلسطين في القرن التاسع عشر» (لندن، ١٩٦٦).

أما الميدان الثالث لمتابعاته، فهو نشوء العالم العربي وتحوله، وبخاصة ما يتعلق بسوريا التاريخية. وهنا ينتصب امام اعيننا عملان بارزان: كتابه المدقق بحرص عظيم عن «تاريخ سوريا الحديثة المشتملة على لبنان وفلسطين» (لندن، ١٩٦٩) والذي يبقى أهم مرجع منفرد عن التاريخ الحديث لسوريا على المستويات: الثقافية والسياسية والاجتماعية. وكتابه الآخر الأقل شهرة ، والمعادل في القيمة . حول «الدين في الشرق الأوسط» (كامبردج، ١٩٦٩) المعنوَن «الجانب الثقافي» [للدين].

وحدهم المطلعون على مكانة الدكتور طيباوي العلمية هم الجديرون بادراك آفاقه الرحبة، وفرادته الشامخة وشموليته الواسعة. فجميع مصنفاته الفكرية تمتاز بأحكامها النقدية واحاطتها بالمعلومات الوافية ورجاحة العقل وبعد النظر. وعلى الدوام، كان متنبهاً الى المناطق العمياء وروح التحامل والاحكام المغلوطة والمزالق التي وقع فيها العديد من العلماء الذي كتبوا عن الشرق الأوسط، سواء من اليهود ام من المسيحيين أم من المسلمين، وبغض النظر عن خلفياتهم القومية.

الكنوز الفكرية التي خلّفها الدكتور عبد اللطيف طيباوي لا تعد ولا تحصى، وهي منائر تمثل تراثاً ثقافياً أصيلاً ومآثر نظرية مضيئة. ومن الطبيعي، امام رجل من هذا الطراز وبهذا الوزن، أن يميل كل من دراسيه الى اسباغ قيم متعددة على الموضوعات التي تصدى الراحل الجليل للتأليف فيها. اما فيما أرى، ودون ان أقلل من شأن آثاره الأخرى، فأميل الى اعتبار المساهمات الثلاث التالية قمما متميزة: الاولى مأثرته ذات الآفاق السبّاقة حول الرؤيا الفلسطينية في العودة مجسدة في مقالته الرائدة وذائعة الصيت التي كثر الاستشهاد والاشادة بها، وهي: «رؤى العودة: اللاجئون الفلسطينيون العرب في الشعر والفن العربيين» (**ميدل ايست جورنال**، عام ١٩٦٣، ص ٢٦٢ ــ ٢٧٢)، التي اطلقت صرخة يقظة نبّهت كل من يعنيهم الأمر الى الاصرار الفلسطيني الذي اكتسى بكل خطورته المدوية في ما بعد. والثانية عمله النقدي حول الاستشراق «المستشرقون الناطقون بالانكليزية» (لندن، ١٩٦٤)؛ فهذا الكتاب شكل الانقضاض الأول والأشد على الثقافة الاستشراقية، وهو الكتاب الذي تعرض في سبيله الى حملة عارمة من المستشرقين الغربيين. وهذا الكتاب مهّد الارض للأعمال النقدية اللاحقة، بما فيها ما كتبه أنور عبد الملك، وادوار سعيد. وأما الثالثة فكونه اول عالم كبير تصدى لدحض خرافة الدور الذي ينسب الى الارساليات الاميركية في نهضة القومية العربية، وهي المقولة التي لا تزال تجد من يرددها حتى يومنا هذا. وفي أعماله التاريخية الرئيسية حول العرب والاسلام الحديث، يبقى واحدا من العلماء القلة الذين لاحظوا بحق ان النزعة العلمانية للمجتمع العربي نجمت عن ضغط المجتمع الاسلامي الذي كان يحاول التكيف مع الأقليات غير المسلمة اكثر مما كانت نتيجة للضغط الذي مارسته الأقليات او القوى الخارجية. وكمؤرخ للدور البريطاني السلبي في العالم العربي ومساهمته المشؤومة في الكارثة التي احاقت بوطنه فلسطين، كان الدكتور طيباوي دقيقا بصورة ثاقبة ومترفقا في الأحكام.

واعترافاً بمآثره العظيمة في دنيا التعليم والتربية، منحته جامعة لندن، عام ١٩٦٢، درجة دكتوراة في الاداب، ونال بعض ما يستحق من تكريم من جانب العديد من الهيئات العلمية والجمعيات المهنية. وقدم له المركز الثقافي الاسلامي في لندن كتابا تذكاريا بعنوان موفق: «باقة من المختارات العربية والاسلامية: مهداة الى عبد اللطيف طيباوي» من زملائه وأصدقائه وطلابه. وفي العام ١٩٧٨، قامت رابطة الجامعيين العرب ــ الاميركيين بتكريم الدكتور طيباوي والاشادة بعطائه الفكري الغني.

وفيما تضطرم في كياننا مشاعر الأسى والفجيعة، ذهولا بهذه الخسارة الهائلة، فاننا على يقين من ان عالم الفكر والعلم والثقافة سوف يفتقد، بأسف شديد، هذه الشخصية الخصبة ذات الثقافة الراسخة والعميقة. بيد أن العالم هو افضل حالا اليوم بالتأكيد بسبب ما خلفه له الدكتور طيباوي من تراث غني وخالد.

د. ابراهيم أبو لغد

رسالة لندن:

حملة بريطانية لإقصاء مراسل «بي. بي. سي.» في اسرائيل

تتعرض الإذاعة البريطانية «بي. بي. سي.» مجدداً لحملة نقد مكثفة تقوم بها جماعة ضاغطة مؤيدة للعرب، في محاولة للضغط عليها لتنحية مراسلها الدائم في اسرائيل، مايكل ايلكنز، عن منصبه الذي يشغله منذ أربعة عشر عاماً. ويتوافق إحياء الحملة التي بدأت قبل نحو ١٠ سنوات مع قرب تنحي المدير العام للإذاعة إيان تريثوان في آب (اغسطس) عن منصبه؛ إذ تأمل الجماعة الضاغطة أن يكون موقف المدير العام الجديد أكثر ليونة وتجاوباً من سلفه الذي أظهر تعنتاً واضحاً في دفاعه عن ايلكنز، خلال السنوات الماضية.

وتعود جذور الحملة إلى العام ١٩٧٢، عندما قامت مجموعة من أعضاء «مجلس تعزيز التفاهم العربي ــ البريطاني» (كابو) بالاحتجاج، لدى «بي. بي. سي.»، على تقارير ايلكنز الإخبارية المتحيزة لاسرائيل. وبينت المجموعة، في مذكرات عدة، أن ايلكنز لا يتفادى ذكر ممارسات اسرائيل القمعية في المناطق المحتلة فحسب، بل ينطق بلسان الدعاوة الاسرائيلية الرسمية أيضاً. وأضافت هذه المذكرات أن تقارير ايلكنز، في أسلوبها الدعاوي، تضلل الرأي العام البريطاني وتنقل صورة مشوهة عن الواقع، لتخلص إلى أنه لا يليق بالاذاعة البريطانية أن تعين مراسلاً متحيزاً لسياسة اسرائيل في منطقة النزاع العربي ــ الاسرائيلي. غير أن الاذاعة عمدت، بشكل أثار دهشة واستنكار الجماعة الضاغطة، إلى الدفاع عن توظيفها لإيلكنز بحماسة، ورفضت نقل ايلكنز من منصبه أو الضغط عليه للتخلي عن أسلوبه الدعاوي وموقفه المتحيز لاسرائيل. ففي نيسان (ابريل) من العام ١٩٧٢، رد إيان تريثوان، المدير العام الحالي للإذاعة والذي كان حينذاك مديراً إدارياً لها، على جون ريداوي، أحد أعضاء «كابو»، بقوله: «فيما يتعلق بمايكل ايلكنز، فإنني ببساطة لا أقبل اعتراضك عليه؛ إذ لا يوجد هناك أي إثبات على انه 'رجل الحكومة الاسرائيلية' بل على العكس من ذلك، فهو يتخذ، بين الحين والآخر، موقفاً مستقلاً. لقد عمل معنا منذ سنوات عدّة، وثقوا اننا كنا سنلاحظ تحيزه لو كان حقاً كما تدعون 'مراقباً متحيزاً'. وليس لدينا مصلحة في تجاهل مثل هذا الوضع». وفي رسالة أخرى، في العام ذاته، رد على ريداوي قائلاً: «إن مجمل رسالتك في الحقيقة هجوم على موضوعية إيلكنز، وهذا ببساطة أمر يتوجب عليّ رفضه». ورد والتر واليش، كبير المنتجين في قسم الشؤون العامة الراهنة في الاذاعة، في حزيران (يونيو) عام ١٩٧٢: «لا أعتقد أنني مؤهل للتعليق على مسائل تعيين المراسلين في الخارج. لكنني من خبرتي الطويلة، أعرف أن ايلكنز، أثبت أنه أكثر المعلقين على الأحداث في اسرائيل والشرق الأوسط دقة ووثوقية». وردت رئيسة البرامج في قسم المراسلين في تموز (يوليو) ١٩٧٢: «من المؤكد أن ايلكنز لا ينطق باسم الحكومة الاسرائيلية، وهو ليس أحد موظفي البي. بي. سي.، بل صحافي

مستقل له موقع رفيع في المهنة، والبي.بي.سي. تثق بتقاريره من اسرائيل».

ولم تثبط ردود البي.بي.سي. السلبية عزيمة القائمين بحملة الاحتجاج، فاستمروا في مراقبة تقارير ايلكنز وإرسال مذكرات احتجاجية إلى الاذاعة مرفقة بمقتطفات من تقاريره. ونشرت «كابو» بعضاً من هذه المقتطفات في نشرتها للعام ١٩٧٢، ومنها تقرير أذيع في ١٠ حزيران (يونيو) عام ١٩٧٢ ضمن برنامج «من مراسلينا» يقوم فيه ايلكنز بتمجيد الاحتلال الاسرائيلي في الضفة الغربية وغزة؛ إذ يقول: «قبل حوالى خمس سنوات، ومباشرة بعد انتصارات اسرائيل الساحقة في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، أصبح مليون عربي و٢٦ ألف ميل من المناطق العربية تحت السيطرة الاسرائيلية. وأوضح وزير الدفاع الاسرائيلي حينذاك، السيد موشي دايان، المفهوم الأساسي لسياسة الاحتلال بقوله: 'نحن نرى في هذا الاحتلال فرصة تتيح للعرب واليهود التعرف بعضهم على البعض الآخر، وتثبت أن الشعبين يستطيعان التعايش'. والآن، في حزيران (يونيو) عام ١٩٧٢، يتعين على أي مراقب موضوعي، ملم بشؤون المنطقة، أن ينقل للعالم أن الاسرائيليين نفذوا ما قاله دايان وتوصلوا إلى خلق مستوى رفيع من التعايش السلمي العملي عاد على الطرفين بفوائد عملية متبادلة». وأضاف ايلكنز: «هناك احتمال كبير في أن تثير حملتي هذه بعض من قد يرى فيها تبريراً لسياسة الاحتلال، إلا أنني لا أتعاطى مع اخلاقيات بل مع حقائق موجودة». وينهي تقريره بعد تعداد حسنات الإحتلال قائلاً: «مهما قال المرء عن الاحتلال الاسرائيلي، فانه بالمقارنة مع غيره ليبرالي وناجح». وبهذا يستخدم ايلكنز الاسلوب الاسرائيلي المألوف في تضليل الرأي العام الغربي باقناعه أن ما وقع قد وقع وما تملكه اسرائيل الآن حق لها وأنها باحتلالها «الليبرالي» تخدم المنطقة.

وفي عام ١٩٧٦، جددت الجماعة الضاغطة حملتها التي لم تقتصر، هذه المرة، على مراسلات شخصية بين اعضاء «مجلس التفاهم العربي» (كابو) ومسؤولي الاذاعة. فقد انتقل الحوار إلى عمود رسائل القراء في مجلة البي.بي.سي. (The listener)، واتخذ المدير العام للإذاعة حينذاك، شارلز كوران، موقفاً عدائياً حاداً، فهاجم واحدة من القائمين بالحملة ونعتها بالمكارثية، وأصر على أن تقارير ايلكنز دقيقة وموضوعية، وقد لفتت «كابو» انظار البي.بي.سي. في ذلك الوقت إلى رواية ألفها ايلكنز تدعى (Forged Turn) نشرت في نيويورك عام ١٩٧١ يمجد فيها «الارهاب الصهيوني» المتطرف، ولم يستطع رئيس مجلس ادارة الاذاعة حينذاك، مايكل سوان، تجاهل مذكرة الاحتجاج التي تقدمت بها الجماعة الضاغطة، فرد عليها رداً طويلاً ديبلوماسياً، ملخصه أن الاذاعة لم تكن لتوظف ايلكنز سنوات عدّة لو اعتقدت يوماً ما أنه يسمح لآرائه الشخصية بالتدخل في عمله وقال: «شخصياً أعتقد أن الأفكار الصهيونية التي عبر عنها ايلكنز، خلال السنوات الماضية، ليست غير تلك الأفكار ذاتها التي لم يكن باستطاعة أي مراسل في تل ــ أبيب والقدس إلا أن يعبر عنها. وإني أؤكد أن من واجب مراسل الاذاعة أن لا يجعل أفكاره ومعتقداته الشخصية تؤثر على عمله، ولكن هناك مناسبات يمكن أن يحدث فيها توافق بين ما ينقله المراسل وبين ما يشعره».

وفي ما يتعلق برواية ايلكنز قال: «نشر الكتاب في الولايات المتحدة وفي اسرائيل، ولم ينشر على حد علمي في هذا البلد (بريطانيا)، ولا أرى ما يثبت أن الآراء التي عبر عنها الكتاب أثرت على أعمال ايلكنز». وأضاف: «إذا قام أحد موظفي البي.بي.سي. بكتابة مثل هذا الكتاب ونشر في بريطانيا، عندئذ يجب علينا أن ننظر ملياً في استمرار توظيف كاتبه ليقوم بمهام صحافية». وتدور رواية ايلكنز حول مجموعة من اليهود المتطرفين الذين وضعوا هدفاً أمامهم، وهو ملاحقة من كانوا مسؤولين عن آلام اليهود في الماضي ومعاقبتهم وقتلهم. وتتوغل الرواية في تطرفها لتعتبر الشعب الألماني كله مذنباً بحق اليهود بسبب النازية، ويورد ايلكنز في روايته وصفاً لخطة نظمتها المجموعة لإبادة ثلاثة ملايين ألماني؛ وذلك بوضع السم في صهاريج الماء التي تزود عدداً من المدن الألمانية. ورغم أن ايلكنز يذكر أن الخطة فشلت، إلا أنه يظهر تعاطفاً مع المجموعة التي وضعتها معطياً انطباعاً مفاده أن الرواية «حقيقيّة»؛ فهو يقول في المقدمة أنه غير بعض الأسماء والتواريخ وأسماء الاماكن كي «أحمي من شاركوا في

الأعمال التي قامت بها المجموعة، حتى يستطيعوا الاستمرار في عملهم الذي اوافق شخصياً عليه».

وأشار كلود موريس الذي اثار الحملة مجدداً بمقال نشره في جريدته «Voice of the Arab World» التي تصدر في لندن أن الكتاب قد نشر فعلاً في بريطانيا، وروج كذلك في عدد من الصحف البريطانية، وكان هناك إجماع على تطرفه وعنفه. ويتساءل موريس عما إذا كانت البي.بي.سي. ستراجع موقفها من توظيف ايلكنز اعتماداً على ما ورد في رسالة مايكل سوان إلى «كابو» في اذار(مارس) عام ١٩٧٦.

ويضيف موريس إلى قائمة الأدلة السابقة على صهيونية ايلكنز ما ورد في مجلة البي.بي.سي. (The Listener)، في ٢٣ نيسان (ابريل) ١٩٨١، من وصف لايلكنز بأنه «يهودي في ميلاده وتربيته وصهيوني في معتقداته»، ويبدي كذلك شكوكه في أن تنجح الحملة التي يقوم بها أعضاء «كابو» حالياً في الضغط على الاذاعة لتغيير وجهة نظرها؛ وذلك لوجود عضوين يهوديين في مجلس حكام الاذاعة ضليعين في الدفاع عن الموقف الاسرائيلي، وهما البارونة سيدوتا وستيوارت يونغ الذي عين عضواً في المجلس أخيراً. وكان يونغ قد شغل منصب رئيس الخدمات الاجتماعية واليهودية في النداء اليهودي الموحد وأمين صندوق مجلس النواب اليهودي، كما كان رئيساً مشاركاً للنداء الاسرائيلي المشترك، وعين مؤخراً مديراً لجريدة «جويش كرونيكل»، منبر الدعاوة الاسرائيلية في بريطانيا.

ويبدو أن موريس كان محقاً في شكوكه؛ إذ رد السير إيان تريثوان، مدير عام الاذاعة، على مقالة موريس برسالة قال فيها: «لم استطع أن اكتشف من مقالتك أية اشارة إلى أن هناك أي بند محدد في تقارير البي.بي.سي. من اسرائيل يقتضي مني القيام بتحقيق». وتجاهل تريثوان، مستمراً في موقفه المتعنت الذي وقفه قبل عشر سنوات، مناقشة الحجج التي أوردها موريس في مقالته. وأثارت رسالة تريثوان ردود فعل متعددة؛ إذ قال مايكل ادامز، وهو عضو نشيط في مجلس تعزيز التفاهم العربي البريطاني (كابو)، «يبدو أن أسلوب البي.بي.سي. المعتاد في الدفاع عن نفسها عندما تهاجم، لافتقارها إلى الكفاءة أو لاتخاذها موقفاً أحادي الجانب في تغطيتها لأي موضوع، هو تجاهل الاتهام الرئيسي وتقديم أجوبة جزئية على نقطة هامشية أو اثنتين. فالإتهام الرئيسي في الحالة التي نحن بصددها هو توظيف مراسل لها في القدس متحيز تعريفاً بشكل لا شفاء منه ضمن النطاق السياسي الذي عمل فيه لأكثر من ١٥ سنة». وأضاف: «ان الاعتراضات المحددة التي قدمت للإذاعة موثقة توثيقاً كاملاً وخاصة في المذكرة التي قدمها جون ريداوي في السابق باسم مجلس 'كابو'. والاعتراض الاساسي على ايلكنز لم يكن في الماضي ولا هو الآن مقتصراً فقط على ما يكتبه (دعمه للصهيونية وأهدافها وتبرير الاحتلال الاسرائيلي للأراضي العربية)، بل أيضاً على ما يتجاهله. فقد تجاهل ايلكنز نقل أحداث انتفاضة الضفة الغربية في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي وما رافقها من اجراءات قمعية كهدم بيوت وفرض إقامات جبرية ومنع تجول الخ...». ويورد ادامز مقارنة ما بين تقارير ايلكنز وبين تقرير أرسله توم ليويلين الذي زار المنطقة في ٢ حزيران (يونيو) عام ١٩٨٠ عن قمع سلطات الاحتلال لأهالي الضفة الغربية يخلص منها إلى أن «توم ليويلين قال لمستمعي الاذاعة بعد أسبوع من زيارته للمنطقة أكثر مما قاله ايلكنز في ١٤ سنة من العمل فيها». وقال دافيد واتكنز، النائب البريطاني العمالي المؤيد للعرب في رسالة أخرى: «موقف السير إيان تريثوان مزعج جداً لأنه صورة عن موقف شارلز كوران في العام ١٩٧٦. ومن الواضح ان الاذاعة ما زالت تدافع عن أسلوب ايلكنز الدعاوي في نقل تقاريره، وما زالت تنتقد بكلمات بعيدة عن اللياقة نزاهة من يسعون إلى جعل توجه البي.بي.سي. أكثر توازناً». ويضيف، في نهاية رسالته، أنه يأمل أن تغير الاذاعة موقفها بقدوم مدير عام جديد، عرف عنه أنه أقل التزاماً بمواقف المؤسسة المهيمنة.

ولا تزال الحملة مستمرة، رغم غياب السفارات وأجهزة الاعلام العربية في لندن عن ساحتها غياباً كاملاً. وقد نشرت جريدة «Voice of the Arab World»، في عددها الأخير، أن مايكل ايلكنز لم يستجب إلى دعوة وجهتها له للرد على الاتهامات التي يتعرض لها. كما أن يهودا ميللو، المستشار الاعلامي في السفارة الاسرائيلية، أعاد للجريدة رسالة دعته فيها إلى التعليق على الموضوع.

فلورا لحام

السينما الاسرائيلية
(تقرير من مهرجان «كان» السينمائي ١٩٨٢)

نتوخى من المعلومات وبعض التحليل الوارد أدناه عدم الاغراق في التفاصيل والمواقف الشخصية، انما الالمام الموجز والكافي بمظاهر السينما الاسرائيلية، وكذلك الصهيونية، من موقع همومهما وأهدافهما الراهنة.

يجدر التنويه، أيضاً، بأن هذه المعلومات حصلنا عليها أثناء حضورنا مهرجان «كان» السينمائي الخامس والثلاثين الذي أقيم في الفترة الواقعة بين الرابع عشر والسادس والعشرين من شهر أيار (مايو) المنصرم. ولذا، فان نقطة انطلاقنا من المعالجة سوف تتركز حول كيفية اشتراك «اسرائيل» في هذا المهرجان، وصولاً إلى الأهمية التي يمثلها المهرجان، وربما اي مهرجان، في نظر القيمين على قطاع السينما في اسرائيل، إلى أن نتمكن، في سياق هذا البحث، من محاولة الفصل بين نواعين وهويتين سينمائيتين: السينما الاسرائيلية والسينما الصهيونية، وما قد يستتبعها من ملاحق.

في عملية المقابلة الشكلية مع السينمات العربية، اتسم اشتراك السينما الاسرائيلية في مهرجان «كان»، بطابع أكثر تواضعاً، من حيث الكمية، وأقل جودة، من حيث نوعية الأفلام التي تم عرضها جميعاً في اطار برنامج «السوق العالمي للفيلم»، أي خارج نطاق المباراة الرسمية وغيرها من البرامج الرسمية التي تؤهل المشتركين فيها للترشيح لنيل احدى جوائز المهرجان، إما جائزة «السعفة الذهبية»، أو «الكاميرا الذهبية»؛ هذا إذا لم ننس الجوائز الرمزية وتحيات التقدير الموجهة إلى أكثر من مخرج وسينمائي عالمي.

اذن، السينما الاسرائيلية كانت خارج هذا النطاق الرسمي، واكتفت بمحاولة تسويق الأفلام التالية: «ألف قبلة صغيرة» للمخرجة ميرا ريكاناتي، «أعد الغطس» لشيمون دونتان، «الرجل الذي أتى ليأخذ» لبروسبير باريانتيه، «الحب القاسي خال من الشفقة» و«الحب الأول مصيره الإحباط»، وكلاهما للمخرج اوزبيل بيريس، و«عائلتي المثيرة جنسياً» لإيلي صاغي.

هذه العناوين تعطي فكرة عن أنماط الانتاج السائدة اليوم في السينما الاسرائيلية، أفلام كوميدية، غير محتشمة في بعض الاحيان، تنحرف بمعالجاتها صوب الاهتمامات الجنسية وحتى البورنوغرافية منها («عائلتي المثيرة جنسياً»، للمثال) وافلام ميلودرامية لمشاكل عاطفية، أو نفسية، ذات تطلعات سياسية، داخل نوع من المعمعة العسكرية ــ الحربية، كما رأينا ذلك في فيلم «أعد الغطس»؛ حيث يصور المخرج شيمون دوتان قصة أحد رجال وحدة الضفادع في الجيش الاسرائيلي، وفي نفس الوقت، حياة فئة معينة من الجند، هي فئة الشباب المنخرط في المؤسسة العسكرية والتي لم يتخط افرادها، بعد، مرحلة عمر المراهقة، الشيء الذي يتضح عبر قصة الحب بين بطل الدور (الممثل دورون نيشر) وأرملة صديقه (الممثلة ليرون نيرغاد)، في وقت استعداده لتنفيذ احدى المهام العسكرية، من دون ان تفارقه الهواجس ومعاناته المتأتية من آثار

موت زميله. وهذا ما يعبر عنه الكلام الوارد في الكراس الصحفي للفيلم، اذ نقرأ في وصف الوجه الآخر لحياة شباب فرق الضفادع البشرية، أنهم رجال «يتصفون بالمهارة والتصميم والشجاعة، إلا أنهم يفاجئوننا في حياتهم الخاصة بضعفهم وحتى جبنهم».

في مجال الملاحظة، وجدنا في مهرجان «كان» الأخير أنه يصادف احياناً ان ينقل الفيلم الاسرائيلي المجرد جزءاً من واقعه السياسي، كأن نقع فيه على سرابية انتماء كائنه إلى مكانه. فاذا اخذنا مثالاً على ذلك «ألف قبلة صغيرة» للمخرجة ميرا ريكاناتي، والذي يعتبر العمل الأجود فنياً، من حيث التنفيذ، نسبة إلى باقي الأعمال، يتميز هذا الفيلم بفقدانه التناغم والتجانس في علاقة السيناريو بعنصر المكان، ويتجلى ذلك في مشاهد عدة بالانتقال «غير الطبيعي» من احياء القدس العتيقة إلى الديكورات الداخلية التي تشكل في ذاتها إطار أزمات غربية، بل اوروبية الأجواء تحديداً. داخل نفوس نسائية، ركيزتها الأولى شخصية فتاة شابة، تعوض عن وفاة أبيها باقامة علاقة عاطفية مترددة مع ابن عشيقته. والثانية شخصية والدة الفتاة وهي تعيش في فراغ عاطفي يدعوها إلى محاولة قتل ابنتها والانتحار.

فيلم ميرا ريكاناتي يعكس حديثنا في البدء عن اوجه الحشمة والجنس في السينما الاسرائيلية، فالمخرجة هنا تلتزم حدود الحشمة المخيفة، باقترابها وتراجها عن الهواجس الجنسية التي تدخل في تركيبة العلاقات بين الشخصيات، غير اننا نلاحظ انهيار دعائم هذه الحشمة في فيلم آخر، هو «عائلتي المثيرة جنسياً»؛ حيث التصوير لا يتعدى فقط حدود الحشمة انما حدود الصراحة.

من ناحية الأرصدة الفنية، أو الأخرى المعنوية الدعاوية، يتمتع كل من «ألف قبلة صغيرة» أو «أعد الغطس» برصيده الخاص المكتسب من المهرجانات المحلية الوطنية، أو العالمية. فقد قدم «ألف قبلة صغيرة» في نطاق برنامج «نظرة ما» ضمن مهرجان «كان» سنة ١٩٨١، كما أنه حصل بتاريخ ٥ نيسان (أبريل) ١٩٨٢، على ثلاث جوائز أوسكار إسرائيلية هي: الجائزة الثانية لأفضل فيلم، جائزة أفضل تصوير لديفيد غارفينكل وأفضل موسيقى لشرومو غرونيش. ومن جهة أخرى، اشترك «أعد الغطس» في المسابقة الرسمية لمهرجان برلين السينمائي الذي انعقد مؤخراً في منتصف شهر شباط (فبراير) الماضي، إلى جانب فوز الفيلم، كذلك في نيسان (ابريل) ١٩٨٢ بثلاث أوسكارات اسرائيلية، وهي: الجائزة الأولى، أوسكار أفضل اخراج لشيمون دوتان وأفضل مونتاج لداني شيك.

اسرائيل والمهرجانات والأسواق

في الحقيقة، ان الغرض من ذكر الكلام الوارد اعلاه يتلخص في المحاولة للكشف عن:

١ ــ النوعية السائدة في الانتاج والتي تحدد موضوع السيناريو شكلاً ومضموناً،

٢ ــ السعي الحثيث الرامي إلى النهوض بكيان سينمائي اسرائيلي، بغية ممارسة الفن السابع بجميع مظاهره، بدءاً من امساك الكاميرات وادارتها للتصوير وانتهاء بالمناسبات والأعياد الخاصة التي يحاول الاسرائيليون تقليد العادات الهوليودية، من الاحتفال بتوزيع جوائز الأوسكار المعادل، إسماً، للأوسكار الأميركي، علماً بأن موعد اقامته يتم في نفس حدود الفترة الزمنية أو حتى في نفس التاريخ التقليدي المقرر لاحياء الحفل الأميركي، كما حصل في العام ١٩٨١، عندما جرى توزيع الأوسكارات الاسرائيلية في ذات يوم الحادي والثلاثين من شهر آذار (مارس)، تحت رعاية وزير الصناعة والتجارة.

٣ ــ وهي النقطة الأهم، السعي لايجاد سوق عالمية للفيلم الاسرائيلي، تسمح ببيعه وتوزيعه وعرضه على مختلف شاشات العالم، على الرغم من الحواجز العديدة التي تعيق ذلك وأبرزها اللغة العبرية واعتماد شركات الانتاج الاسرائيلية على المواضيع الشعبية التي تجمع، حسبما اشرنا في البداية، بين الكوميديا وحبكة السيناريو ذي الايقاع الخفيف، أو هو ذي النزعة التجارية الخالصة، أو بين الميلودراما والحبكة العاطفية ــ السياسية، وهذه الأفلام ان تمكنت من استرداد ميزانيتها وجني الأرباح، فذلك يتحقق ضمن حدود السوق الداخلية، خاصة اذا ما توفر حضور الفئات الشابة، أو المراهقة التي تشكل النسبة العظمى من الجمهور المهتم بقصص الأفلام المعنية. وهذا تستثنى منه، بالطبع، حالة الأفلام التجريبية والفنية التي تظهر بين الحين والآخر، ويقتصر عرضها على صالات الفن والتجربة.

من هنا، بدأت تلوح في الأفق، في الآونة الأخيرة، الأهداف المعلنة للسينما الاسرائيلية، التي تتركز حول الآتي:

ــ البحث عن اسواق خارجية.

ـ تشجيع الانتاج المشترك لتسهيل عملية تجاوز السوق الداخلي.

ـ تأمين الخدمات الفنية والتقنية المتطورة للسينمائيين الأجانب، في سبيل جذبهم لمشاريع الانتاج المشترك، وتحويل «اسرائيل» إلى أرض وديكورات وأماكن طبيعية صالحة لتصوير الأفلام، وكذلك من أجل تحقيق غايات تساعد الدولة على تخطي أزماتها الاقتصادية. «يقولون ان المهرجان مهم هنا، وأنا أقول ان المهم هو سوق المهرجان».

إنه تصريح أدلى به مواطن فرنسي عادي من مدينة «كان» لمندوبة إحدى محطات التلفزة في فرنسا، رداً على سؤال منها حول ردة فعله تجاه التظاهرة السينمائية السنوية التي تقام في بلدته.

ونحن، بدورنا، نستطيع اعتبار هذا التصريح صادراً، بطريقة غير مباشرة، عن المسؤولين عن السينما في اسرائيل. فالمهرجان هو الفرصة «العالمية» التي توفر المناخ الملائم للبحث في ابرام عقود بيع وشراء احدث الأفلام الاسرائيلية، وهكذا يكون مهرجان «كان»، نقطة الانطلاق نحو الغاية المنشودة في التسويق.

وقد لا نذيع سراً هنا في معرض اشارتنا إلى أن الصناعة السينمائية الاسرائيلية تخضع لسلطة وزارة الصناعة والتجارة، لاعتقاد المصادر الحكومية أن ازدهار هذا الحقل الفني، في حال التوفق بالعثور على الأسواق الأجنبية، يعين الدولة في التخفيف من وطأة الأعباء الاقتصادية، الناجمة بشكل أساسي عن مشاكل التضخم، اذ يكفي القارىء دلالة، تصريح أدلى به في العام الماضي، **شلموو باز**، أحد المسؤولين عن شركة «استوديوهات اسرائيل المتحدة»، لمجلة «هوليوود ريبورتر» الأميركية، جاء فيه، أنه بوسع الدولار الأميركي (في اتفاقيات البيع والشراء السينمائية طبعاً) تسهيل مشكلة التضخم، كلما ارتفع ثمنه، بالنسبة إلى الاسرائيليين.

على هذا الأساس اهتمت وزارة الصناعة والتجارة، بانشاء مركز للسينما، في العام ١٩٦٩، يكون موجهاً لغرض تأمين توزيع الانتاج الوطني إلى خارج الأرض المحتلة. وعلى هذا النحو أيضاً، نلحظ اتساع حلقة النشاط الاسرائيلي في اتجاه مكاتب التوزيع والاستوديوهات الكبرى العاملة في دول الغرب، وذلك خلال السنتين الاخيرتين، أي، على الأخص، منذ مطلع الثمانينات، وهو أمر مرتبط بظواهر اخرى بدأت معالمها تتضح وتقوى اليوم في مجال السينما الصهيونية، التي يرسم اصحابها سياستها بطريقة تمكنها من ان تصب بخططها المادية، في قناة تطوير السينما الاسرائيلية قلباً وقالباً، وهذا ما سنتطرق إليه لاحقاً.

بالاستناد إلى كلام شلموو باز، لا بد وأن نستشف بوادر محاولة اقامة جسر من العلاقات مع الولايات المتحدة، لكونها الشريان الحيوي الذي يصل إسرائيل بالجماهير العريضة، ولأنها المفتاح الذي سوف يشرع أبواب مكاتب التوزيع على وسعها، والتي، أي هذه المكاتب، تمتد سلطتها وتنتشر من أميركا، إلى كندا، فالدول الأوروبية الغربية بشكل رئيسي، مروراً ببعض الأجزاء الأخرى للكرة الأرضية. وفي الواقع، أنه يوجد أكثر من سبب يدعو اسرائيل وغيرها للتفكير في التعاون السينمائي مع أميركا، وبخوض تجارب الانتاج المشترك معها، نظراً لأن السينما الهوليوودية هي الأوسع انتشاراً في العالم، أو على الأقل في الدول التي تعتبر أسواقها أكبر مصدر لايرادات الأفلام، وهي السينما شبه الوحيدة التي استطاعت، حتى الآن، المحافظة على معادلات نجومها؛ اذ غالباً ما يضمن اسم الممثل فتح الباب التجاري أمام أي فيلم، من دون ان ننسى ان نطقه بالانكليزية كفيل لتذليل مصاعب التسويق. واذا كنا قد أشرنا قبلاً إلى التسهيلات والخدمات التي تؤمنها اسرائيل لأصحاب مشاريع الانتاج المشترك، فتلك النظرية اكدتها في الأشهر الأخيرة سلسلة وقائع على الصعيدين السينمائي والتلفزيوني، ومنها، مثلا، اتفاق اسرائيل في السنة الفائتة مع شركات «يونيفرسال» الأميركية على الأنجاز التقني في استوديوهات تل ابيب، لانتاجهما المشترك للمسلسل التاريخي «ماسادا» الذي يشمل حلقات تبلغ مدة عرضها ٨ ساعات، وتحكي السيرة اليهودية لقصة تمرد القبائل ضد الأمبراطورية الرومانية في العام ٩٦ من القرن الأول من الميلاد، وقد لعب دوري البطولة كل من الممثل الانكليزي بيتر اوتول في شخصية قائد الجيوش الرومانية، والممثل الأميركي بيتر ستروس في الشخصية القبلية المضادة، وكلنا على علم، بلا ريب، بخبر موافقة الممثلة السويدية الأصل انغريد برغمان، في العام الماضي، على الاضطلاع بدور البطولة في المسلسل التلفزيوني «امرأة تدعى غولدا». هذا الفيلم ـ المسلسل اصبح اليوم في طور الانجاز التقني، وهو انتاج مشترك بين شركتي «بارامونت» الأميركية و«اسرافيلم»، ويروي حياة رئيسة الوزراء

الصهيونية الراحلة غولدا مئير، وقصة طفولتها وانشغالها بالسياسة على مدى سبعين سنة، منذ ان كانت طفلة صغيرة في روسيا، إلى حين ذهابها إلى فلسطين وبداية احتكاكها واجتماعها بالشخصيات السياسية، كالملك عبد الله، جد العاهل الأردني حسين، وطبعاً حتى اللحظات الأخيرة من حياتها.

جرى تصوير الفيلم في مدة زمنية بلغت ٥٢ يوماً، اعيد خلالها بناء بعض ديكورات فلسطين القديمة في العشرينات والأربعينات، كما شارك في التمثيل طاقم اسرائيلي يضم ٧٥ ممثلاً و ٧٠ تقنياً، أي ما يعادل نسبة ٩٥٪ من مجموع المساهمة البشرية العامة، علماً بأن المخرج كان اسرائيلياً، ويدعى زفي سبيلمان، وأن المنتج الأميركي المعروف جين كورمان كان على رأس المشروع منذ بدايته، وهو صاحب فكرة ان يتم تصوير المسلسل على اربع حلقات تؤخذ جميع مشاهدها داخل «اسرائيل». فقد صرح كورمان اثر الانتهاء من عمليات التصوير: «اعتقد ان سلم الأسعار الاسرائيلية في مجال الخدمات والمعدات السينمائية التقنية) يصل على الأرجح إلى نصف معدل الأسعار في العالم الغربي». وهذا ما أكده في وقت لاحق نبأ اجتماع رئيس شركة «بارامونت» بوزير الصناعة والتجارة الاسرائيلي جدعون بات، اذ قيل: ان الممول الأميركي لمسلسل «امرأة تدعى غولدا» أعلن أمام الوزير ان «تلك كانت المرة الأولى التي ينجز فيها انتاج خارجي بدون سماع أية شكاوى». وتقول المعلومات الصحفية: ان المساهمة الاسرائيلية في انتاج هذا المشروع وفرت نسبة ٥ ــ ٦٪ من قيمة الموازنة الأصلية. وللمناسبة، تجدر الاشارة أخيراً، إلى أنها لم تكن المرة الأولى، البتة، التي يأتي فيها المنتج جين كورمان إلى الأرض المحتلة لتصوير عمل سينمائي، فمع «امرأة تدعى غولدا»، يكون كورمان قد حقق عمله الرابع، بالاضافة إلى الأفلام الثلاثة الآتية: «الأحمر الكبير»، «ماري وجوزيف» و«الفردوس».

ان منطق التجرد من الحساسيات يؤدي بنا، للوهلة الأولى، إلى النظر إلى هم الاسرائيليين لتنظيم بيع وشراء وتوزيع افلامهم، من زاوية أنه حق مشروع لأية سينما طموحة في أي ركن من العالم. وفي مهرجان «كان» الخامس والثلاثين، مدار بحثنا، لم تنفرد السينما الاسرائيلية بنشاط غريب عادي، عن باقي السينمات الصديقة، او المناوئة لها، أو التي تعتبر نفسها المنافس التجاري لها هناك، انما اللافت للنظر في الجناح التجاري الصغير المخصص لمعروضات الأعمال السينمائية الاسرائيلية، كان التأكيد على طابع اسرائيل، كدولة يتولى جهازها الاشراف على عملية تسويق الأفلام، ويولي كذلك كبير اهتمام لبناء جسر مع الصحافة، في سبيل التغطية والتعريف عن اشخاص سينماه القومية بواسطة المقابلات المباشرة. طبعاً، لا يخرج كل هذا عن دائرة النشاط العادي، لكن القيام بهذا النشاط ومتابعته يصبحان مع الوقت، بالنسبة للدولة الاسرائيلية ممارسة لدور حكومي طبيعي، من خلال الأدوات والطاقات الموظفة من قبل وزارة الصناعة والتجارة.

ومتى تعلق ذلك بمهرجان يحمل ثقل ووزن مهرجان كان، فانه يكتسب أهمية حيوية، نظراً لما يعنيه مبدأ الاشتراك في سوق «كان» العالمي للفيلم، بالمقارنة مع التظاهرات السينمائية المماثلة في مختلف الأنحاء، بدليل أن المساهمة الاسرائيلية في مهرجان «سوق الفيلم الأميركي» الثاني الذي اقيم في منتصف آذار (مارس) ١٩٨٢ اقتصر على حضور موزعين اثنين فقط، بينما بلغ عدد الوافدين إلى «كان»، هذه السنة، تسعة موزعين*، «اتحاد الموزعين المستقلين في اسرائيل» الذي يضم ٣٢ عضواً من أصحاب شركات التوزيع الخاصة المستقلة. ويعود سبب ذلك أساساً إلى اعتقاد هؤلاء الموزعين ان «فرنسا هي الأقرب جغرافياً إلى تل أبيب» على الصعيد السينمائي، وإلى كون «كان» محطة سنوية يستفيد الاسرائيليون فيها من عقد الصفقات مع أصحاب الأفلام الأوروبية التي يرغب في رؤيتها جمهورهم في الداخل.

السينما الاسرائيلية واقعاً

تلك الوقائع لا تنفي حقيقة أن السينما الأميركية هي الأقرب مادياً لجهة تطوير انتشار السينما الاسرائيلية ومساعدتها على النهوض معنوياً بنفسها، حتى تؤسس كياناً خاصاً بها، يستوعب كافة الميول والايديولوجيات، في اطار مؤسسة رسمية متحررة من شعارات السينما الصهيونية التي باتت تشكل الرديف الأساسي لها. ذلك ان هوليوود كانت من

---

* الموزعونالتسعة هم: اسحق شويس وايلان شويس عن شركة «افلام النجوم السبعة»؛ افرايم جيليد عن شركة «جيليد وشركاه»؛ ن. جيليد عن «افلام ناهشون»؛ ايلي غليفاند عن «غليفاند»؛ موكي غرايدينجر وسامي بيراشا عن «افلام فوروم»؛ جاي كولر عن «افلام الماراتون»؛ بيني وينزلبرغ عن «موزعي افلام آنكاي».

العوامل الرئيسية التي دفعت صناعة السينما الاسرائيلية إلى الوجود، فاذا رجعنا إلى تاريخ ولادة الفن السابع في الأرض المحتلة، تطالعنا المعلومات بما يأتي:

(أ) في المرحلة الصامتة: وبعد ان ساهم توماس اديسون في اختراع آلات التصوير السينمائية الرائدة، أتى العالم باختراعه إلى القدس، في اوائل القرن العشرين، لالتقاط مناظر من وحي معالم البلد. وفي العام ١٩١٣ حضر إلى فلسطين المخرج سيدني اولكوت وحقق شريطه «من المذود إلى الصليب»، لكن أياً من محاولتي اديسون واولكوت لم تترك أثراً يذكر، لأن الجهد كان منصباً آنذاك على توثيق الأشرطة المؤرخة للفكر الصهيوني.

لذلك، يعتقد البعض أن الأب الروحي للسينما الاسرائيلية هو اليهودي ناتان اكسلورد الذي اخرج فيلم «المتسكع» سنة ١٩١٣، وسعى إلى تنمية خبرته المهنية بالذهاب بعدئذ إلى الاتحاد السوفياتي عام ١٩٢٦، ليعود من ثم إلى فلسطين، حيث أسس أول شركة انتاج سينمائي تحت اسم «المواليدا».

(ب) في مرحلة السينما الناطقة: سنة ١٩٣٥، اخرج ناتان اكسلورد، بالاشتراك مع باروك اغاداتي، أول فيلم ناطق بالعبرية، تحت عنوان «هذه هي الأرض» وهو دراما روائية منفذة باسلوب وثائقي، لم يتمكن من الاقلاع بالصناعة السينمائية المحلية لأسباب سياسية، اشتدت وطأتها مع اقتراب البلاد من خطر الحرب العالمية الثانية. وبالفعل، فقد توقفت عجلة الانتاج طوال الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٨ و١٩٤٥، ولم تولد السينما الاسرائيلية فعلياً إلا في اعقاب ولادة الدولة والكيان الصهيوني، وقد تم ذلك تحديداً في فترة الخمسينات، بفضل مجيء السينمائيين الانكليز والأميركيين إلى البلاد*، ولما كانت المحاولات الهوليوودية منصبة آنئذ على تصوير عدد من المشاريع الانتاجية هناك، فقد اتيحت للاسرائيليين فرصة الاطلاع عن كثب، على احدث التقنيات المدخلة إلى الفن السابع.

السينما الاسرائيلية كياناً

على الرغم من سمة الخطوات الأولى التي تتميز بها مرحلة الخمسينات، لم تتبلور الصيغة الكيانية للسينما الاسرائيلية، سواء عبر انشاء مؤسسة خاصة للانتاج، أم مركز رسمي يرعى شؤون الصناعة الفنية، إلا في الستينات، وبخاصة في مرحلة ما بعد حرب ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧. يكفينا مبدئياً تأسيس الحكومة لمركز السينما الوطني اعتباراً من سنة ١٩٦٩، واستقرار كمية الانتاج على ما يقارب عشرة افلام روائية في السنة الواحدة، فضلاً عن التركيز على الأشرطة الوثائقية والاخبارية، وعلى قطلع التلفزيون، حتى ان شركات الانتاج الخاصة اصبحت توزع اهتمامها، في الآونة الأخيرة، بالتساوي بين الأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية.

ككيان، تملك السينما الاسرائيلية مركزاً للأرشيف، أسس عام ١٩٦١، وهو عضو في منظمة فياف (FIAF) (اتحاد ارشيف الفيلم العالمي) ويحتوي على ٣٠٠٠ عنوان لأشرطة روائية، وثائقية، رسوم متحركة، افلام تجريبية، قصيرة، واخبارية تحمل جنسيات مختلفة. كما ويضم المركز في مبناه، قسم «الفيلم اليهودي»، مهمته المحافظة على «التواصل الثقافي للشعب اليهودي في المرحلة المعاصرة»، ويسعى المسؤولون عن هذا القسم إلى الحصول على أكبر عدد ممكن من الأشرطة التسجيلية، للاحداث والشخصيات البارزة يهودياً، كالوثائق المتوافرة عن «احراق» ادولف هتلر لليهود في المانيا، بالاضافة إلى احداث النزاع العربي ــ الاسرائيلي، والوثائق المتعلقة بشخصيات رجال الدولة والفن اليهوديين.

بالنسبة إلى شركات الانتاج السينمائي الاسرائيلي، فعددها لا بأس به، الا أنها غير متفرغة كلياً للأعمال السينمائية، بل بدرجة مماثلة للاعمال التلفزيونية*، ومن المعلوم انه توجد اليوم «جمعية المنتجين السينمائيين والتلفزيونيين» في اسرائيل، وهي تتألف من عضوية ٥٠ منتجاً يعملون في جميع فروع الصناعتين المذكورتين. يرأس هذه الجمعية المنتج المخرج زفي سبيلمان الذي يقول: «تأمل الجمعية من الحكومة فرض ضريبة صغيرة على

** من الاعمال التي حققها الانكليز في تلك الفترة: «التلة ٢٤ لا تجيب» للمخرج تورولد ديكنسون، عام ١٩٥٤. ومن الأفلام التي حققها الأميركيون: «المشعوذ» (١٩٥٣).

*** شركات الانتاج الاسرائيلية تنتمي بمعظمها إلى القطاع الخاص. من هذه الشركات والمؤسسات: اسرافيلم»، «استوديوهات اسرائيل المتحدة»، «استوديوهات اورشليم»، «مركز أورشليم للاتصالات»، مؤسسة «مشاريع كاسل»، ويقال ان «استوديوهاتاورشليم» ضاعفت أعمالها ثلاث مرات عما كانت عليه في السنة الماضية، وهذه الزيادة جاءت من انتاجها لبرامج التغطية الاخبارية لبعض الأحداث البارزة، مثل الحرب في لبنان.

اسعار التذاكر، على أن يتم حسمها فيما بعد من أجل تعزيز الصناعة السينمائية المحلية. هذا التدبير سيمكننا من البدء في وضع برنامج قوي قادر على مساعدة الانتاج المحلي، بعد ان كان كفاحنا ثابتاً لرفع مستوياته. لأننا الآن، وقد صرنا في حيز معرفة العالم، نشعر بكفاءتنا لدخول السوق العالمية».

اذن، في تصريح سبيلمان تأكيد على الرغبة الملحة لطرق ابواب اسواق العالم، وهو التأكيد الذي سنجده الآن أيضاً في برنامج العمل الذي تبنته جمعية المنتجين، أعلن عنه مؤخراً بصيغته المختصرة ببعض النقاط التالية:

ـ شكلت الجمعية لحل المشاكل السائدة، وتحسين صناعة الفيلم في اسرائيل بغية جعلها أكثر جاذبية للمنتجين الاجانب.

ـ تعمل الجمعية لرفع مستوى الانتاج المحلي، والحصول على أفضل الظروف التمويلية والعملية المفيدة للعاملين في المجال السينمائي.

أخيراً، وفي سيرة الحديث عن الانتاج، يصعب تحديد الرقم الحقيقي لكميته السنوية، الا أنه يتراوح بين عشرة وخمسة عشر فيلماً. كما أنه ليس من السهولة التكهن بحجم الموازنة الكافية أو المتوسطة لانتاج فيلم سينمائي، إلا أنها قد تصل إلى نحو ٣٥٠ ألف دولار أميركي، وقد تبقى مرتبطة بواقع ازمة التضخم الاقتصادية التي كان لها بعض الدور على هامش مسألة افتقاد السينما الاسرائيلية لظاهر الممثل النجم، اذ أن قلة رأس المال المرصود لهذا المجال، جعلت السينمائيين يلجأون في أوقات عدة لاختيار مواضيع ايديولوجية ثقافية، علماً أن قسماً من الأفلام الكوميدية التجارية تعتمد على التمثيل الجماعي، وإلا فانها لم تكن لتتمتع بطابع شهرتها الشعبية، مثلما حصل مع المخرج الصهيوني بواز دافيدسون وسلسلة افلامه المسماة Lemonpopsicle التي استوحاها من فترة مراهقته وصداقاته مع شباب جيله. ويذكر انه عرض حتى اليوم، من هذه السلسلة، ثلاثة اجزاء، ومن المتوقع ان يكون دافيدسون قد دخل الآن في عملية تصوير الجزء الرابع، مع التنويه بأنه جرى في مهرجان «كان» ١٩٨٢ تقديم فيلم «العذري الأميركي الأخير» الذي حققه دافيدسون في الولايات المتحدة، العام الفائت، باسلوب طبق الأصل لما كانت عليه الاجزاء الثلاثة في السلسلة المشار إليها، وذلك لحساب شركة «كانون» الأميركية التي يديرها الاسرائيليان مناحيم غولان ويورام غلوبوس.

السينما الصهيونية في المهجر

مع مناحيم غولان وابن عمه يورام غلوبوس نصل إلى نهاية المطاف مع السينما الصهيونية، وللتفريق بينها وبين السينما الاسرائيلية، يمكن القول انها باتت اليوم تعتمد على الانطلاق من خارج الأرض المحتلة، حيث تروج لنفسها وتسخر ممن تعتبرهم اعداءها، بشتى الأفلام الكوميدية، أو البوليسية ـ السياسية والوثائقية، انما ضمن خطة آيلة إلى تعزيز القدرات المادية لسينما الداخل. ولكن تبقى، في الوقت نفسه، السينما الاسرائيلية محتفظة بميزتها العامة كتيار يستوعب كافة الايديولوجيات والاتجاهات المعارضة، أي انها ليست بالضرورة دائماً سينما صهيونية من حيث الأفكار التي تتضمنها افلامها.

فيما يخص مناحيم غولان، فهو اذا جاز لنا التعبير، الرجل القوي، ليست في تاريخ انطلاقة السينما الاسرائيلية خلال الستينات. ففي فترة الخمسينات، شهدت حركة السينما الاسرائيلية طغيان موجة الأشرطة الكوميدية المسماة «البوريكا» (نسبة إلى نوع من الحلوى خاص بمآكل جماعات اليهود الشرقيين)، وعندما أتى مناحيم غولان في الستينات، ضرب هذه الموجة التقليدية بانتاجه واخراجه لسلسلة افلام جادة، ومنذ ذلك الحين وهو يحاول اقامة اتصال عالمي بالسينما الاسرائيلية، عبر عمله في اميركا وتمويله لمشاريع مواطنيه المخرجين، إلى شرائه لشبكات دور العرض في الداخل والخارج.

بدأ غولان حياته الفنية في المسرح باقتباسه نصوص اعمال معروفة مثل «عربة تدعى اللذة»، «الزاوية الخطرة» و«الكراسي»، إلى جانب تأسيسه مسرحاً للاطفال. وعندما كان في سن التاسعة عشرة ذهب إلى لندن لدراسة فن التمثيل الدرامي، لكنه عاد وارتأى دراسة الاخراج السينمائي. فسافر عام ١٩٦٠ إلى الولايات المتحدة والتحق لهذه الغاية بمعهد نيويورك. وخلال اقامته هناك، ادار قسم السينما والاذاعة والتلفزيون التابع للسفارة الاسرائيلية. وفور عودته إلى الأرض المحتلة، اخرج فيلمه الأول «الدورادو»، من بطولة الممثل المغمور آنذاك شيمون توبول والممثلة جيلا ألماغور التي تلقب اليوم بأنها «سيدة الشاشة» الاسرائيلية.

البعض يقول ان «الدورادو» هو الفيلم الذي اقلع برحلة السينما في اسرائيل، الا أن غولان ارتبط اسمه

اكثر بالانتاج، خاصة من خلال تخطيطه المشترك مع يورام غلوبوس لزيادة كمية الأعمال حتى يكون هناك صناعة وانتاج بالمعنى الحقيقي للكلمة. فقد أسسا سوية شركة «أفلام نوح» المحلية في العام ١٩٦٣، التي حققت حتى الآن ما يقارب الأربعين فيلماً سينمائياً من مختلف النوعيات، منها الميلودراما، مثل «مارغو» الذي اخرجه غولان وشبهته الناقدة الأميركية جوديت كريست بأنه نموذج اسرائيلي لفيلم «مارتي» للأميركي دلبرت مان ومنها أيضاً ميوزيكال «كازابلان» (عن قصة مهاجر مغربي) الذي اخرجه غولان واستطاع به ان يقنع شركة «مترو غولدوين ماير» بشراء حقوقه، فكان أول فيلم اسرائيلي يوزع في الخارج على يد شركة أميركية كبرى. وقد ادى ذلك إلى تحسين أوضاع مناحيم غولان، اذ أنه دعي، بعد النجاح التجاري لـ «كازابلان»، للاقامة والعمل في أميركا حيث اخرج أول افلامه هناك لحساب شركة «الاخوة وارنر»، بعنوان «لبكي»، عن حياة احد رؤوس «المافيا»، لبكي بوكهالتر، وهو من بطولة طوني كورتس.

وهكذا تقدم عمل غولان على درجات في الولايات المتحدة، إلى ان دعا في السنوات القليلة الماضية قريبه يورام غلوبوس للاتفاق على توسيع نطاق نشاطهما، فتمكنا من شراء الشركة الأميركية المستقلة «كانون»، وحولاها في السنتين الأخيرتين إلى واحدة من أوسع الشركات نفوذاً خارج اطار الاستوديوهات الكبرى (مترو غولدوين ماير، بارامونت، يونايتد ارتيستس، الخ...) كما أنهما، وفي مجال تقوية «سلطة» انتاجهما وتمهيد الأسواق العالمية لاستقبال الأفلام الاسرائيلية، سواء أكانت ناطقة بالعبرية أم لا، اعلنا هذه السنة عن حيازتهما ملكية شبكة صالات سينما «كلاسيكية» في بريطانيا والتي يبلغ تعدادها ١٣٠ صالة عرض، اضافها الثنائي غولان ــ غلوبوس إلى مجموعة صالاتهما في تل أبيب، والتي تصل إلى ثماني دور للعرض.

اذن، لدى هذين المنتجين رأي مشترك، يحدد نشر وترويج السينما الصهيونية من الخارج خدمة لاغراض اقتصادية (اوردناها في معرض التحليل) وسياسية تتجلى من قريب أو بعيد بافكار معادية تنم، في مناسبات عدة، عن عدم احترام للعرب وبيئتهم وتقاليدهم، لتصورهم مثلاً مظاهر رجال البدو، مغتصبي الأرزاق والأعراض، على حد ما لمسناه وسنراه مستقبلاً في افلام شركتي «كانون» و «افلام نوح» (هذه الأخيرة تبقى محتفظة بحدود انتشارها المحلي الضيق، رغم غزارة انتاجها).

ظاهرة مناحيم غولان ويورام غلوبوس تتسع هوليوودياً وأوروبياً عبر «كانون»، وفي مهرجان «كان» الخامس والثلاثين برز ذلك «النفوذ» على جدران مدخل فندق الكارلتون؛ حيث علقت ملصقات وصور من الأفلام التي انتجتها، أو تنوي انتاجها الشركة في غضون اشهر معدودة، وهي من بطولة ممثلين أميركيين وأوروبيين مشهورين في أوساطنا، والذين ان طبقت عليهم قوانين المقاطعة العربية، فالأرجح اننا سننقطع عنهم، وبالتالي عن معظم مستورداتنا من الانتاج الأميركي والأوروبي الغربي.

ونحن هنا سنكتفي بذكر هذه الأفلام مع اسماء ممثليها الرئيسيين:***

«جسد وروح» من تمثيل بطل الملاكمة السابق محمد علي كلاي.

«صحارى»، مع بروك شيلدز وسيجري تصويره بين مصر واسرائيل ابتداء من ١٨ تموز (يوليو) ١٩٨٢.

«السيدة الشريرة»، من بطولة فاي دانواي والممثل الانكليزي آلان باتيس.

«الفصل البطل»، مع بروس درن، روبرت ميتشوم، ستاسي كيش، مارتن شين وبول سورفنينو.

«سيف الشجاع»، مع شين كونري ومايلز أوكيف.

«أمنية الموت ٢»، «١٠ دقائق حتى منتصف الليل»، وكلاهما من بطولة تشارلز برونسون.

«دون كاميلو»، من تمثيل واخراج الايطالي تيرانس هيل.

«تجارة القرود»، من بطولة الايطالي باد سبنسر...

محمد سويد

---

* الأفلام المذكورة ليست جميعها صهيونية من حيث مواضيعها، انما من حيث التعامل مع منتجين سخرا انفسهما لخدمة الصهيونية.

* استعين في هذا التقرير بالمراجع التالية:
ــ نشرة «مركز الفيلم الاسرائيلي» الصادرة عن وزارة الصناعة والتجارة في نيسان (ابريل) ١٩٨٢.
ــ اعداد من مجلة «هوليوود ريبورتر» الأميركية، بين عامي ١٩٨١ ١٩٨٢.
ــ مجلة «سينما اكران» الفرنسية، عدد شهر حزيران (يونيو) ١٩٨١.

فلسطين في مؤتمرين شيوعيين في فيتنام ولاوس

في مؤتمر الحزب الشيوعي الفيتنامي

عقد الحزب الشيوعي الفيتنامي مؤتمره العام الخامس في الفترة الممتدة من السابع والعشرين حتى الواحد والثلاثين من آذار (مارس) ١٩٨٢، في قاعة الجمعية الوطنية الكائنة في الميدان الرئيسي من العاصمة هانوي؛ وهو الميدان المعروف بميدان: بادنه. وقد اكتسب المؤتمر الخامس أهمية خاصة، ليس لأنه يأتي بعد الحرب الصينية ــ الفيتنامية، وفي ظل توتر العلاقات بين البلدين اللذين ربطتهما روابط ايديولوجية وسياسية عميقة خلال ما يقرب من ثلاثين عاما فحسب، بل، وأيضاً، بسبب المسؤوليات الجديدة التي ألقيت على كاهل الحكومة الفيتنامية في كل من كمبوديا ولاوس، وكذلك بسبب التغييرات التي طالت القيادة الفيتنامية التي اكتسبت شهرتها العالمية في مرحلة التحرر الوطني السابقة.

والحزب الشيوعي الفيتنامي يمتد عمره الى اثنين وخمسين عاما مرت من تاريخ الشعب الفيتنامي المعاصر، عقد خلالها خمسة مؤتمرات عامة، بعد المؤتمر التأسيسي الذي عقد في كولون بهونغ كونغ في ٣ شباط (فبراير) عام ١٩٣٠، برئاسة نغوين اي كوك (الذي أصبح اسمه لاحقا هوشي منه)؛ حيث تم الاعلان عن الحزب الشيوعي الفيتنامي.

* * *

في المؤتمر الرابع للحزب لم تدع من المنطقة العربية **أية وفود** باستثناء وفد منظمة التحرير الفلسطينية. أما في المؤتمر الخامس، فيمكن القول ان **الوفد الفلسطيني** قد حظي باستقبال خاص **وترحيب شديد** عندما القى كلمته.

ومن الجدير بالذكر، أن الفيتناميين قرروا ان تكون فلسطين بين الوفود العشرة التي سمح لها بالتحدث في قاعة المؤتمر العام، بينما تحدثت الوفود الأخرى في لقاءات واجتماعات جماهيرية.

رأس وفد منظمة التحرير الفلسطيني سميح ابو كويك (قدري)، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح، وضم الوفد في عضويته كلاً من خطاب أبو الرب، علي فياض وسهيل الناطور.

ألقى قدري كلمة فلسطين في اليوم الثاني للمؤتمر، ١٩٨٢/٣/٢٨، فأبلغ المؤتمرين تحيات الشعب الفلسطيني وتحيات ثورته وقيادته وتمنياتهم بنجاح اعمال المؤتمر، وأشاد بالعلاقات الكفاحية الوطيدة التي تربط الثورتين والشعبين في فيتنام وفلسطين والتي توجها البيان المشترك الصادر في ختام زيارة ياسر عرفات لفيتنام في تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٨١. وتحدث عن الانتفاضة الشعبية للجماهير الفلسطينية في الوطن المحتل، وعن التصعيد الذي يشهده النضال السياسي في وجه تصاعد اجراءات العدو القمعية والتعسفية، وعن التحالف الامبريالي ــ الصهيوني ــ الرجعي الذي يستهدف تصفية القضية الفلسطينية. وتحدث كذلك عن

الاستعدادات العدوانية الصهيونية المدعومة كلياً من الامبريالية الاميركية في محاولة لتصفية القوات المسلحة للثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية... وأشاد الأخ قدري بـ «مثلث الصمود»، ويعني به منظمة التحرير الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية وسوريا، الذي يواجه ذلك ويشكل الحاجز الأخير «امام تلك المخططات المعادية».

كما شدد على التحالف مع البلدان الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي، وأدان السياسة العدوانية للامبريالية الاميركية التي تمارس ضد شعوب العالم وأمنه وسلامته، وأكد وقوف الثورة الفلسطينية الى جانب كل الشعوب المكافحة من اجل حريتها واستقلالها في اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية.

وأشاد كذلك بدعم فيتنام وتأييدها لنضال الشعب الفلسطيني، وجدد تأييد م.ت.ف. المطلق للشعب الفيتنامي في مرحلته النضالية الثورية الجديدة بقيادة الحزب الشيوعي، من اجل بناء الاشتراكية والدفاع عن الوطن. وختاما، تمنى للمؤتمرين النجاح...

وقد لقيت كلمة فلسطين ترحيبا حارا وتصفيقا شديدا في القاعة، وعمد كل من الأمين العام للحزب لي زوان؛ ورئيس الحكومة فام فان دونغ الى مغادرة مقعده فور انتهاء قدري من كلمته والتوجه اليه لمعانقته ومصافحته.

أما خارج أروقة المؤتمر وفي مقر اقامة الوفد الفلسطيني، فقد عقد لقاءان هامان، الأول مع الجنرال فان تين زونغ، عضو المكتب السياسي ووزير الدفاع، والثاني مع نغوين كوتاك، عضو اللجنة المركزية سابقا (عضو المكتب السياسي المرشح الجديد) ووزير الخارجية، حيث جرى حديث سياسي وعسكري حول الأوضاع في المنطقتين، كما تناول العلاقات السياسية والحزبية والعسكرية بين الجانبين الفلسطيني والفيتنامي، والعمل على تطوير التعاون والاستفادة من الخبرات.

وخلال حفل العشاء الذي اقامته قيادة الحزب في قصر الرئاسة للوفود المشاركة، بعد اختتام اعمال المؤتمر التقى رئيس الوفد الفلسطيني برئيس الدولة ترونغ تشنه ورئيس الحكومة فام فان دونغ، ونقل اليهما تحيات ياسر عرفات والتهنئة بنجاح المؤتمر وانتخابهما لعضوية المكتب السياسي، وقد طلب الزعيمان الفيتناميان من قدري نقل تحياتهما وشكرهما وتضامنهما لياسر عرفات، القائد العام للثورة الفلسطينية.

في مؤتمر الحزب الشيوعي اللاوسي

تلبية لدعوة من اللجنة المركزية لحزب الشعب الثوري (الحزب الشيوعي) في جمهورية لاوس الديمقراطية الشعبية شاركت منظمة التحرير الفلسطينية في المؤتمر الذي عقد في الفترة الممتدة من ٢٧ الى ٣٠ نيسان (ابريل) عام ١٩٨٢، بوفد ضم سمير ابو غزالة (الحاج طلال)، عضو المجلس الثوري لحركة فتح رئيسا وأبو ناصر، المفوض السياسي في قوات الثورة، ومصطفى السفاريني، ممثل المنظمة في فانتيان، عضوين. وقد انضم السفاريني الى الوفد هناك.

هذا البلد الصديق للشعب الفلسطيني، يشكل احد اقطار الهند الصينية، ويطلق عليه «بلد المليون فيل» وتبلغ مساحته اكثر من ٩١ الف ميل مربع مغلقة بلا شواطىء، تحدها شمالا فيتنام والصين وبورما، وشرقا فيتنام، وغربا تايلند وجنوبا كمبوديا. ويصل عدد سكانها الى ثلاثة ملايين نسمة ونصف المليون، معظمهم يعملون في الزراعة، وثقافتهم متأثرة بالبوذية...، واذا كانت الجبال والغابات تشكل اكثر من ثلثي مساحة البلاد، فان نهر الميكونغ الشهير يعتبر ثروة طبيعية تحسد عليها.

وقعت لاوس تحت السيطرة الفرنسية عام ١٨٩٣، في حين شهدت رفيقتاها فيتنام وكمبوديا قوات الغزو عامي ١٨٥٨ و١٨٦٣ على التوالي... وخاض الشعب اللاوسي نضالا وطنيا ناجحا بقيادة الحزب الشيوعي استمر عشرات السنوات حتى تمكن من انجاز الاستقلال الوطني الكامل، واعلان قيام جمهورية لاوس الديمقراطية الشعبية في عام ١٩٧٥... عام انتصار شعوب الهند الصينية على الامبريالية الاميركية.

تمتد العلاقات بين الثورة الفلسطينية والثورة اللاوسية الى عدة سنوات قبل تسلم ثوار الباتت لاو السلطة، وقد كانت العلاقات تنظم، قبل عام ١٩٧٥، من خلال مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في العاصمة الصينية؛ حيث كان ممثل الثورة في بكين مكلفا بالعلاقات مع بلدان

الهند الصينية وكوريا الديمقراطية. من هنا جاءت زيارة مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في بكين (الأخ أبو الرائد حينئذ) الى المناطق اللاوسية المحررة، وصدر بيان، اثر الزيارة، يؤكد العلاقات النضالية بين الطرفين، ويعلن التأييد والتضامن المتبادلين. بعد نجاح الثورة في السيطرة على السلطة (في لاوس في نهاية كانون الأول — ديسمبر ١٩٧٥) واقامة مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية في العاصمة الفيتنامية الشمالية، كلف ممثل المنظمة في هانوي (علي فياض آنذاك) بادارة العلاقات مع جمهورية لاوس الديمقراطية الشعبية التي قطعت علاقاتها الديبلوماسية مع الكيان الصهيوني وطردت القائم بالأعمال الاسرائيلي من العاصمة في شباط (فبراير) عام ١٩٧٦. وقام فياض بأول زيارة رسمية فلسطينية الى العاصمة اللاوسية في الأسبوع الأخير من حزيران (يونيو) عام ١٩٧٦؛ حيث ابلغ القيادة اللاوسية رسالة شفوية من ياسر عرفات، ورسالة اعتماد من فاروق القدومي، رئيس الدائرة السياسية، الى السيد فون سيباسوث وزير الخارجية.. والتقى بالاضافة اليه مع عدد من المسؤولين في الخارجية والاعلام والمنظمات الشعبية...

وفي العام التالي، ١٩٧٧، افتتحت منظمة التحرير الفلسطينية مكتبا في لاوس؛ حيث قدم مصطفى السفاريني اوراق اعتماده الى رئيس الجمهورية بتاريخ ٣٠ آذار (مارس) ١٩٧٧.

وتأخذ المواقف السياسية والديبلوماسية للجمهورية اللاوسية، منذ تأسيسها، جانب منظمة التحرير الفلسطينية في كافة المؤتمرات والاجتماعات الدولية او الاقليمية وبشكل خاص في دائرة عدم الانحياز. هذا، وقد نددت لاوس دائما بالمشاريع الامبريالية والصهيونية التي طرحت في المنطقة العربية، وبالسياسات الاميركية العدوانية في منطقة الشرق الأوسط.

وتتطور العلاقات بين الجانبين بشكل جيد، وبخاصة خلال الشهور القليلة الماضية؛ حيث زار لاوس في الفترة الممتدة بين ٢٤ و٢٨ كانون الأول (ديسمبر) الماضي موفد الثورة الفلسطينية والتقى مع عضو المكتب السياسي ونائب رئيس الوزراء: فومي فوشيت ووزير الاعلام: سيسانا سيسان ونائب وزير الخارجية: بوفا وعدد من المسؤولين في الخارجية والحزب: حيث تم الاتفاق على تبادل الزيارات والخبرات الثورية بين الجانبين.

وعلى هذا الأساس، قام وفد منظمة التحرير الفلسطينية، برئاسة سميح ابو كويك عضو اللجنة المركزية لحركة فتح، بزيارة ناجحة الى لاوس في الفترة الممتدة من الاول حتى الثالث من شهر نيسان (ابريل) عام ١٩٨٢، التقى خلالها بالرئيس سوفانوفونغ (الساعة الخامسة يوم الجمعة ٢ آذار — مارس)، ونائب رئيس الوزراء: فومي فوشيت. وبعدد من الوزراء والمسؤولين الآخرين في الحزب والحكومة، كما عقدت محادثات حزبية وسياسية بين الوفدين أسفرت عن التوصل الى بيان سياسي مشترك متقدم.

وأعلن البيان المشترك تضامن لاوس ودعمها لنضال الشعب الفلسطيني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية، لاقامة «الدولة الفلسطينية الديمقراطية» وإعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني، ونددت بكل اجراءات اسرائيل بخصوص القدس والحكم الذاتي والادارة المدنية... والمرتفعات السورية، وقد أقيم للوفد حفل استقبال في مقر اقامته حضره عدد من كبار المسؤولين الذين كان من بينهم وزير الداخلية رئيس اركان الجيش ووزير المواصلات ووزير الاعلام...، وأقيم حفل فني شعبي، كما اقام ممثل المنظمة للوفد ومضيفيه حفلا مماثلا.

* * *

— يرتبط تأسيس الحزب الشيوعي اللاوسي بالحركة الشيوعية في الهند الصينية، وعلى هذا الأساس، يمكن القول ان تاريخ الشيوعيين اللاوسيين يبدأ مع تأسيس الحزب الشيوعي للهند الصينية على يد هوشي منه عام ١٩٣٠.

— الحزب الشيوعي للهند الصينية، بعد تأسيسه، طرح برنامجا سياسيا حدد مهام الثورة الوطنية البرجوازية في بلدان الهند الصينية، مركزا على مهمة الاستقلال الوطني ثم الاصلاح الزراعي على طريق التحول نحو الاشتراكية.

— بعد المؤتمر العام الأول لحزب الهند الصينية عام ١٩٣٥، اسست لجنة لاوس الحزبية لتعنى بشؤون الحركة النضالية في القطر اللاوسي، وبدأت تقود نضال الطبقة العاملة والطلبة..

— منذ ١٩٤٠، بدأت اللجنة تعد للقيام

بـالانتفاضـة الثوريـة بهدف استـلام السلطة، واعدت لذلك حملة وطنية اسفرت عن السيطرة عـلى السـلطة في ٢٣ آب (اغسـطس) ١٩٤٥ واعلان الاستقلال في ١٢ تشرين الأول (اكتوبر).

ـ دخل النضال الوطني، بعـد ذلك، مرحلة جديدة عندما اعاد الفرنسيون احتلال البلاد فبدأ الحزب يحشد القـوى الوطنية الثـورية وينشىء القوات الشعبية المسلحة ويبني القواعد المقاومة...

ـ في شبـاط (فبرايـر) عـام ١٩٤٩، انشـأ الحزب جيش التحرير الشعبي ثم جبهة لاوس الحـرة وحكـومـة المقـاومـة اللاوسيـة في آب (اغسطس) من العام نفسه.

ـ قرر المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي للهند الصينية، في شباط (فبراير) عام ١٩٥١، ان ينقسم الى عدة احزاب مستقلة كل في بلده... وبعد أربع سنوات، اعلن عن قيام حزب الشعب اللاوسي في المؤتمر الأول للحزب اللاوسي الذي عقد في شهر آذار (مارس) وحضره ثلاثمائة مندوب. واقـام الحزب، في العام التالي، الجبهة الوطنية اللاوسية على اساس تحالف الفلاحين والعمال والجنـود وبدأ يخوض النضال السياسي، ووافق على توقيع اتفاقية فانتيان عام ١٩٥٧، بخصوص السيادة الوطنية، وتأسيس اول حكومة ائتلافية وكـذلك انتخاب الجمعية الوطنية عام ١٩٥٨.

ـ انطلاقا من عام ١٩٦٠، بدأ الحزب يبني قواته المسلحـة من اجل الانتقـال الى النضال المسلح مرة اخرى، وهو النضال الذي اوصل الى اتفاقية جنيف الجديدة عام ١٩٦٢، وقيام حكومة ائتلافية جديدة.

ـ عام ١٩٦٤، ضرب العدو بعرض الحائط كل الاتفاقيات، فاضطر الحزب للعودة مرة أخرى الى النضال المسلح الذي ادى الى تحرير اربعة اخماس الاراضي اللاوسية... والى توقيع اتفاقية فانتيان الجديدة واقامة حكومة مؤقتة... والعودة للنضال السياسي...

ـ عام ١٩٧٢ في شباط (فبراير)، عقد الحزب مؤتمره العام الثاني الذي أسفر عن تغيير اسم الحزب الى حزب الشعب الثوري اللاوسي، واعتمد الخط السياسي والعسكـري للثورة وحـدد مهام المرحلة التالية.

ـ في جو الانتصار العام للقوى الثورية في الهند الصينية وهزيمة الامبريالية وعملائهـا في فيتنام عام ١٩٧٥، قاد الحزب اللاوسي انتفاضة بيضاء اسفرت عن عقد المؤتمـر الوطني العام لممثلي الشعب في كانـون الأول (ديسمبر) عـام ١٩٧٥، والغـاء الملكيـة واقـامـة نـظام شعبي ديمقراطي وانشاء جمهورية لاوس الديمقراطية الشعبية.

علي فياض

فلسطين في طوابع البريد

د. نبيل علي شعث وحسناء رضا مكداشي (الاعداد)؛ اللّباد (الاخراج الفني). **فلسطين في طوابع البريد** (١٨٦٥ ــ ١٩٨١). بيروت والقاهرة: دار الفتى العربي والورشة التجريبية العربية لكتب الأطفال، ١٩٨١، ٨٨ صفحة.

أسلوب جديد في التأريخ السياسي، يقدم مادة خاماً للمؤرخ؛ وبانوراما كفاحية، ومتعة للقارىء، ومكتبة لهواة جمع طوابع البريد؛ ومتحفاً تراثياً، ذلك كله في كتاب من ٨٨ صفحة من القطع المتوسط، تضمن مجموعة نادرة من الطوابع التي صدرت في فلسطين، أو عن قضيتها، منذ دخل البريد الى فلسطين، وفي العام نفسه الذي ظهر في العالم (١٨٤٠)، وحتى يومنا هذا.

وينوه معدا الكتاب بالقيمة الحقيقية لطابع البريد فيقولان: فلأن «الطابع ينوه بالجمال، أو يرصد الأحداث، أو يشيد بها، أو يحفز الهمم، فهو أثر من التاريخ والتراث». ويستطردان قائلين: «وقيمة الطوابع التي استعملت في الفترة ١٨٦٥ ــ ١٩١٨، لم يستأثر بها الطابع وحده، بل الأختام والظروف كان لها حصة الأسد. فالطوابع العثمانية وطوابع القنصليات الأجنبية التي استخدمت في فلسطين كان ما يميزها الختم البريدي للمدينة الفلسطينية عليها، وقيمة الطابع والختم البريدي الواضح على ظرف كامل أو بطاقة بريدية، يصل الى عشرة أضعاف قيمة الطابع المختوم وحده».

ولعل من عوامل زيادة أهمية هذا الكتاب إلحاح الحركة الصهيونية على مسح كل أثر تاريخي عربي فلسطيني، من ناحية؛ وتبعثر هذه الآثار في أركان الأرض الأربعة، من ناحية أخرى.

وفي الكتاب ١٩ صفحة من المادة التاريخية المكتوبة المدعومة بالحواشي المصورة، فيما ألقت صفحتان الضوء على «قيمة الطوابع والأختام الفلسطينية». وقُسِّم الكتاب الى ثلاثة أقسام من الصور في ٣٧ صفحة.

فالقسم (أ) تضمن صوراً لطوابع بألوانها الطبيعية، من تلك التي استخدمت في فلسطين ــ في الفترة المحكي عنها ــ صدرت، على التوالي، عن: العثمانيين فالقنصليات الأجنبية بفلسطين فالاحتلال البريطاني فالطوابع التي استخدمت في الضفة الغربية، في الفترة الانتقالية ما بين نكبة ١٩٤٨ وضم هذه الضفة الى المملكة الأردنية، عام ١٩٥٠؛ وتلك التي استخدمت في قطاع غزة، منذ النكبة وحتى استيلاء القوات الاسرائيلية على القطاع، اثر حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧؛ وأخيراً تلك التي أصدرتها فصائل المقاومة الفلسطينية، وبشكل خاص «فتح» و«الجبهة الشعبية».

وضم القسم (ب) صوراً بالألوان الطبيعية لطوابع أصدرتها الدول العربية، في فترات مختلفة، تضامناً مع الشعب الفلسطيني. فيما حوى القسم (ج) صوراً للأختام التي استعملت في فلسطين، طوال السنوات المشار اليها في صدر الكتاب. وثمة ١١ صفحة تضمنت فهرساً تفصيلياً للطوابع والأختام المرصودة.

يشير الكتاب الى أن أغلب الطوابع التي استخدمت زمن الانتداب البريطاني، اقتصرت على

صور لبعض الرموز الدينية الإسلامية واليهودية. واعتقد أن هذا الأمر يتوافق مع سياسة الاستعمار البريطاني، آنذاك، والتي كانت ترمي الى اضفاء الطابع الديني والطائفي على الصراع حول فلسطين، كما أن هذه السياسة كانت تعزز السياسة الصهيونية التي اتكأت على الدين اليهودي.

وجاء الرد المنتظر من الشعب الفلسطيني، الذي احتج بشدة على محاولات تثبيت حق اليهود في فلسطين، من خلال طوابع البريد.

وعكست نكبة ١٩٤٨ نفسها على الطوابع المستخدمة في ما تبقى بيد العرب من أرض فلسطين. وفيما بين عامي ١٩٤٧ و١٩٥٦ عزفت الطوابع العربية عن تصوير مقاومة الشعب الفلسطيني، أو كشف مؤامرات التوطين والاسكان التي حاكتها الادارة الأميركية، طوال النصف الأول من الخمسينات.

وفي عام ١٩٦٠، أعلنت الأمم المتحدة «السنة الدولية للاجئين»، فأصدرت معظم دول العالم طوابع تذكارية، تبنت معظمها تصميم شجرة مقتلعة الجذور، منفردة أو مصحوبة بتصميم اخر، الا مصر وسوريا واليمن، التي تفردت باصدار طوابع عن اللاجئين الفلسطينيين.

«وفي عام ١٩٦٥، في الذكرى السابعة عشرة لمذبحة دير ياسين، أصدرت معظم الدول العربية طوابع تتبنى تصميماً ذا فكرة موحدة، ترمز الى المذبحة».

ويعود الاهتمام الرسمي العربي المفاجىء بالقضية الفلسطينية الى القرار الذي اتخذه مؤتمر القمة العربي الأول (كانون الثاني ــ يناير ١٩٦٤) بابراز الكيان الفلسطيني، وظهور منظمة التحرير الفلسطينية، منذ ربيع العام نفسه. وان لم يمنع هذا الأمر ــ فضلاً عن بدء العمل الفدائي الفلسطيني المنظّم ــ الدول العربية من التعاطي مع القضية الفلسطينية باعتبارها قضية لاجئين. الى أن كانت حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، ونهوض العمل الفدائي الفلسطيني من بين أنقاض الهزيمة العربية في تلك الحرب.

وأصدرت المنظمات الفدائية الفلسطينية بعض الطوابع ذات الطابع النضالي، الموازي للملصقات، واستخدمت المنظمات هذه الطوابع في الدعاوة وجمع التبرعات المالية، في آن معاً. فيما بدأت الطوابع العربية في تبني قضايا الأسرى الفلسطينيين. ومع تقدم الكفاح الفلسطيني واتساع رقعة التأييد العالمي للقضية الفلسطينية، أخذت معظم الدول العربية باصدار طوابع تؤكد عروبة القدس، وتدعو الى تحريرها.

وهكذا، «يمضي تاريخ فلسطين المعاصر، من خلال طوابعها وأختامها البريدية، بألوانها وأحجامها نفسها... قصاصة ورق صغيرة، مخطوطة أو مرسومة أو مصورة، تلصق على ظرف، تحكي ملحمة دامية بما جنى الاستعمار والاقتلاع والاستيطان. ملحمة مترعة بالبذل والتضحية والانتفاضة والثورة والاصرار على غد تتحرر فيه فلسطين».

ولا يقلل من أهمية هذه الوثيقة التاريخية ــ السياسية، والتحفة الفنية النادرة، ما اعتورها من هنات صغيرات، تمثلت في ايراد بعض التواريخ غير الدقيقة، مثل تاريخ جلاء القوات الاسرائيلية في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر وقطاع غزة. ففي حين انسحبت هذه القوات من سيناء في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٧، ومن قطاع غزة في ٧ آذار (مارس) ١٩٥٧، نجد الكتاب يثبت ١ آذار (مارس) ١٩٥٧ تاريخاً لانسحاب هذه القوات، كما يهمل الاشارة الى أن هناك تاريخين للانسحاب. وفي موضع آخر، يذكر الكتاب أن مصر استعادت ادارة غزة في ٣ آذار (مارس) من السنة ذاتها، والصحيح أن الادارة المصرية عادت الى قطاع غزة في ١٤ آذار (مارس). وفي موضع ثالث يذكر الكتاب أنه «في عام ١٩٧٨، انعقد في ليبيا (مؤتمر الصمود والتصدي)» في حين أن هذا المؤتمر انعقد في أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧، في طرابلس.

على أن مثل هذه الهنات تظل هامشية، ازاء هذا الجهد المضني في الجمع والاعداد والاخراج والطباعة؛ الأمر الذي يستحق معه معدا الكتاب ومخرجه الفني والمركز الغرافيكي العربي بالقاهرة (الذي أنجز الكتاب فنياً) كل تقدير وتحية.

عبد القادر ياسين

مخطوطة عن الصهيونية من عام ١٩١٢ لروحي الخالدي

محمد روحي الخالدي، **السيونزم أو المسألة الصهيونية** (مخطوطة) ١٩١٢، ١١٠ صفحات.

... اطلعتُ على هذه المخطوطة الناقصة عام ١٩٧٦، وحتى تلك السنة، لم يُشر أي باحث عربي لوجودها أو فقدانها. فقد اعتقد الكثيرون أنها ضاعت مع الكتب والمخطوطات التي في المكتبة الخالدية في القدس. فالدكتور اسحق موسى الحسيني، عند حديثه عن روحي الخالدي، لم يشر اليها على الاطلاق[١]، والدكتور ناصر الدين الأسد، الذي أصدر كتابا عن روحي الخالدي أشار اليها بقوله: «ورد في الأعلام أن تاريخ الصهيونية مخطوط في المكتبة الخالدية. وحدثني الأديب البحاثة الأستاذ أكرم زعيتر أن روحي الخالدي ألف كتاباً عن الصهيونية، وأنه بحث عنه وسأل بعض رجال الأسرة الخالدية ولكنه لم يعثر عليه»[٢]. والدكتور عبد الرحمن ياغي، عند حديثه عن مؤلفات الخالدي، لم يشر لهذه المخطوطة[٣]، أما عرفات أبوحمد الهواري، فيشير الى أن هناك مخطوطاً لروحي الخالدي، بعنوان: «تاريخ الصهيونية»، ويقول: «مات قبل أن ينجزه»[٤].

تقع هذه المخطوطة في ١١٠ صفحات من القطع المتوسط؛ وهي مكتوبة بالحبر الصيني، وقد تأكدنا من مطابقة الخط بمقارنتها مع خط روحي الخالدي في مخطوطته: «الانقلاب العثماني» المكتوب عام ١٩٠٨، والذي نشرت صفحات مصورة منه في نهاية كتاب ناصر الدين الأسد. اضافة الى ذلك، فان المخطوطة ناقصة، وهذا واضح من نهايتها من حيث عدم استيفاء الموضوع، وعدم وجود أية اشارة تدل على استكماله. وهذا يفيدنا في تحديد تاريخ كتابتها. فاذا عرفنا أن المخطوطة ناقصة، بمعنى أن روحي الخالدي قد كتبها في أواخر أيام حياته، وأنه توفي عام ١٩١٣، وأنّ بعض الاحصائيات الواردة فيها تعود الى عام ١٩٠٨، بمعنى أن روحي الخالدي قد كتبها بعد عام ١٩٠٨؛ اذا عرفنا كل ذلك وأضفنا اليه أن روحي الخالدي انتخب عام ١٩٠٨ عضواً في مجلس المبعوثان العثماني، وانتخب ثانية وثالثة حتى وصل الى منصب نائب الرئيس، وأنه رجع الى القدس لّما حُلّ المجلس سنة ١٩١٢، كل ذلك يجعلنا نضع تاريخاً تقديرياً لزمن كتابة المخطوطة، وهو عام ١٩١٢، تاركين الاحتمالات مفتوحة.

وأهمية هذه المخطوطة تكمن في كونها تشكّل احساساً فلسطينياً مبكراً بخطر الحركة الصهيونية. كذلك تكمن أهميتها في أن كاتبها، روحي الخالدي، كان على اطلاع واسع على الحركة الصهيونية، وذلك بسبب ثقافته الواسعة، ومعرفته باللغات الأجنبية، والأهم من ذلك «عثمانيته» بمعنى اطلاعه الخاص على الاتصالات الصهيونية بالدولة العثمانية ومعرفته التفصيلية بالأشخاص والوثائق، بحكم منصبه كنائب لرئيس مجلس المبعوثان، وتردده على الآستانة، بعد استقالته، وعمله كقنصل عام للدولة العثمانية في بوردو في فرنسا ودراسته الجامعية في باريس؛ كل

ذلك يجعل الثقة تزداد بالأرقام وبالوثائق التي يوردها في مخطوطته.

أما ملاحظاتنا على المخطوطة والآراء المطروحة فيها فيمكن ايجازها بما يلي:

أولاً: ينطلق روحي الخالدي، عندما يتحدث عن العلاقات بين الحركة الصهيونية والدولة العثمانية، من قاعدة ثابتة وهي عثمانيته، ملغياً أحياناً عوامل أساسية في فهم أسباب «الرفض والقبول العثمانيين» للحركة الصهيونية، فقد كانت الدولة العثمانية، في موقفها، تنطلق من عدة أسباب، مثل: انتظار الدولة العثمانية أن تقوم الحركة الصهيونية بدور الوسيط لدى أوروبا لحل مشاكلها الأوروبية، ومثل: انتظار الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية أن تساهم في تسديد ديون الدولة، أو لعب دور الوسيط لتأجيلها، هذا من ناحية القبول. أما من ناحية الرفض، فهو نابع من الخوف من المشاعر العربية القومية، اضافة للسبب الطبيعي؛ وهو الخوف من نمو الحركة الصهيونية (الأوروبية)،

ولهذا وضعت الدولة العثمانية شروطاً شكلية، لم تمنع من نمو الاستيطان الزراعي في فلسطين. «فقد قدرت مساحة الأراضي التابعة للكيرين كاييمت (الصندوق القومي للحركة الصهيونية العالمية)، قبيل الحرب العالمية الأولى، أي في ظل الدولة العثمانية، نحو ١٦,٣٩٦ دونماً»(٥).

ثانياً: لغة المخطوطة، هي لغة عصر النهضة الأولى المنفلتة من التقعير اللغوي السائد في العصر التركي؛ وهي، في الوقت ذاته، لغة عملية سريعة تقترب من لغة الصحافة بأخطائها أحياناً، فصياغة روحي الخالدي اللغوية أقرب الى اللغة اليومية منها الى لغة القاموس. وهذا جعل التركيز على المعنى، أكثر من التركيز على فصاحة اللغة. وهذه الظاهرة واضحة، حتى في كتابه: «علم الأدب عند الافرنج والعرب»، الصادر عام ١٩٠٤، والذي يعتبر أول كتاب نقدي عربي في مطلع النهضة، يعبر عن اتجاه الحداثة المتأثرة بالثقافة الأجنبية.

ثالثاً: يكثر روحي الخالدي من الرد على التوراة والتلمود، وعلى آداب اليهود حول الوعود الدينية بالعودة الى «أرض الميعاد»، بحجج من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، أو بنقض ما ورد في التوراة، نقضاً مثالياً. أي أنه بنقضه يقع في المنهج التوراتي نفسه. ومع هذا، فان زمن كتابة المخطوطة يبرر له ذلك. فسقوط المنهج التوراتي لم يبدأ الا بظهور المدرسة التي تركز على دراسة الآثار، كبديل، في زمن متأخر عن زمن روحي الخالدي.

رابعاً: يقع أحياناً في فهم سطحي للثورات القومية الأوروبية فيعزوها الى أسباب ساذجة مثل قوله: «وفي سنة ١٨٣٠، أي بعد استقلال اليونان وظهور المسألة المصرية وغليان الأفكار العامة في أوروبا على الدولة العثمانية، بتحريض الشاعر اللورد بايرون وغيره من الأدباء وكتاب الجرائد الخ...».

وهو أحياناً يعطي «الثورات» صفة سلبية؛ فبعد أن يتكلم عن اضطهاد اليهود في روسيا القيصرية يقول: «..فلا عجب بعد هذا الاضطهاد أن انخرط اليهود في حزب النهلست وعملوا على احداث الثورات والانقلابات».

نصوص مختارة

١ ــ مقدمة عامة:

يبدأ روحي الخالدي مخطوطته بتعريف «السيونزم» فيقول: «...مشتقة من كلمة 'سيون' أي صهيون، بزيادة 'ايزم' الدالة على الرأي السياسي أو الفكر الديني والفلسفي. وصهيون اسم الجبل الذي عليه اليوم قلعة القدس وقبر داود بن سليمان عليهما السلام، ويطلق، تعميماً، على مدينة القدس الشريف وما حولها. وفي اصطلاح الصهيونيين، هي كلمة وضعت للدلالة على نظرية حديثة انتشرت بين يهود أوروبا الشرقية، سيّما بين يهود روسيا ولهستان ورومانيا وغاليشيا. ويراد بها تأسيس دولة يهودية في فلسطين، حيث يهاجر اليها جميع اليهود المتألين من الاضطهاد المسمى باصطلاح الافرنج: 'انتي سيمتزم'. ويخرجون من بلادهم الأصلية التي ولدوا ونشأوا فيها، ليؤسسوا في فلسطين، على قواعد ملّتهم، وطناً خاصاً بهم تعترف الأمم المتمدنة بوجوده، وتؤمنهم على بقائه تأميناً شرعياً بمقتضى حقوق الدول العمومية. فغاية الصهيونية هي ايجاد وطن لليهود في فلسطين، بالهاجرة اليها وتأمين وجود هذا الوطن بالحقوق العمومية».

ويرى روحي الخالدي أن الصهيونية ظهرت بعاملين مؤثرين «... أحدهما اضطهاد اليهود المسمى عند كتبة الافرنج 'انتي سيمتزم'[٦]، وثانيهما، انتباه الشعور القومي فيهم. لأن اليهود في عصر الانقلاب الكبير الفرنساوي الذي قامت فيه الحرية مقام الاستبداد، كانوا يعملون على استحصال حريتهم الشخصية، ومساواتهم في الحقوق والتكاليف لبقية أفراد الأمة التابعين لحكومتها». وحول النشاط الصهيوني لتحقيق ذلك، يقول روحي الخالدي:

«... وقد أسسوا البنك اليهودي الاستعماري، برأس مال قدره مليونان من الجنيهات الانكليزية، ومركزه في لندن، وله فروع، في الآستانة والقدس ويافا وبيروت وحيفا وغيرها، تسمى بأسماء مختلفة. وأعانوا بأموالهم الجرائد التي تدافع عن الصهيونية وتذيع فوائد الاستعمار، كجريدة 'جون تورك' في الآستانة، التي تأخذ من بنك 'انكلو ليفانتين' ما تحتاج اليه من المصروفات، مئة وخمسين ألف فرنك في السنة. ولذا أصبحت ادارتها ومطبعتها في دار عظيمة في جادة التقسيم، من أشهر وأغلى شوارع الآستانة. تعطى فيها الضيافات لأشهر رجال السياسة. وأعانوا جرائد أخرى كثيرة وكافأوا من خدمهم من الكتاب وأصحاب الأقلام».

«.. أما المستعمرات التي أسسها اليهود المهاجرون من روسيا وأوروبا الشرقية في فلسطين، بأموال روتشيلد وأمثاله من أغنيائهم، فعدتها في هذه السنين الأخيرة ثمان وعشرون مستعمرة، مساحتها ٤٩١، ٢٧٩ اشتروها بثمن بخس، بمساعدة ولاة البلاد وأغنيائها وفيها من اليهود المستعمرين ٨٠٠٠ نفس».

وحول معارضة بعض اليهود للصهيونية كنظرية، يقول روحي الخالدي:

«... فبعض اليهود ينكر على الصهيونيين عملهم ويقبحه، ويقول بمضرته لعموم اليهود.. ويطلب من الحكومة عدم التساهل به، ومنع الجرائد الصهيونية المُضرة والجمعيات الصهيونية، كما أن بعض الحاخامين والربابيين يحرّم الصهيونية، تحريماً دينياً، لمغايرتها لنظرية ماندلسون، ولمخالفتها أحكام المجمع الديني 'اسقامه'.

«١ ــ قال يوسف بثور أفف، حاخامباشي* ولاية ايدين، ومورن هاي لويس، رئيس المجلس العمومي، وسلامون روديني رئيس المجلس الجسماني في ازمير، في التلغراف الذي أرسلوه لرئيس مجلس المبعوثان ولبعض المبعوثين، بتاريخ ٢٧ شباط [فبراير] سنة ١٣٢٦ مالية:

«نَردُّ بشدّة، النظرية الصهيونية ونقسم بديننا وناموسنا، أننا مستعدون لأن نسحق، بجميع قوانا، كل حركة ترى غير قابلة التوفيق بمنافع وطننا المقدس.

«٢ ــ وقال بخور موصاجي أفف، بلسان جمعية الأحناف الموسوية في ازمير أيضاً، في تلغرافه المرسل لمن ذكر:

«ملّتنا بلسان واحد ترد وتقبح بكمال النفرة، جنون الصهيونية، فنحن مواطنوكم الموسويون أكبر المعارضين للصهيونية. وهذا الفكر الباطل انما هو منحصر في بعض النشرات المضرّة. فبكمال الأهمية نسترحم باسم سلامة الملة اعطاء نهايات لهذه التلقينات المضرّة».

وفي فصل آخر من المخطوطة بعنوان: «التوراة وما ورد فيها من الوعود الصهيونية»، يرد روحي الخالدي على الفكر الصهيوني، من خلال مناقشته للتوراة والتلمود وآداب اليهود. من خلال «التلمود» المترجم الى العربية، من قبل الدكتور شمعون يوسف مويال، والصادر عن مطبعة العرب في مصر عام ١٩٠٩[٧].

٢ ــ لمحة تاريخية:

يورد روحي الخالدي مجموعة من الأحداث تتعلق ببدايات الهجرة الى فلسطين، منها:*

□ «... التمس حاخامباشي الآستانة وهو موشه قابسالي من حكومة السلطان بايزيد الثاني ورجال الباب العالي، فأذنوا لهم بالدخول والتوطن وأمروا الولاة بقبولهم واسكانهم في مختلف أنحاء المملكة. وجمع لهم موشه قابسالي، اعانة وزعها على فقراء الجالين وأسكن ١٥٠٠ عائلة في نفس القدس و١٧٠٠ عائلة في صفد و٥٠٠ عائلة في دمشق الشام، فكان عدد الذين أسكنوا في سوريا

* نترك كافة أسماء الأعلام والأحزاب العبرية والأجنبية كما وردت في المخطوطة، ونترك المجال للمقارنة والتصحيح.

وفلسطين لا يتجاوز الخمسة عشر ألف نفس. أي سدس المهاجرين للممالك العثمانية، وتفرق الباقون في القسطنطينية وسلانيك وأدرنة وأزمير.

□ «... وفي سنة ١٧٥٠ م، ظهر اصلاح في المانيا لحالة اليهود، بواسطة النظرية التي وضعها موسى مندلسون[٨]، أحد حاخامية برلين، وخلاصتها تفريق الاعتقاد الديني الذي لم يزل حياً من التقاليد التاريخية التي تلاشت شيئاً فشيئاً، وأوشكت أن تنقرض وتزول بالكلية، وبتعبير آخر، تفريق الدين عن القومية. وفي سنة ١٨٣٠، أي بعد استقلال اليونان وظهور المسألة المصرية وغليان الأفكار العامة في أوروبا على الدولة العثمانية، بتحريض الشاعر الانكليزي اللورد بايرون وغيره من الأدباء وكتاب الجرائد، اعتقد المؤرخ اليهودي سلفادور بامكان اعطاء فلسطين لليهود؛ وذلك بتشكيل مؤتمر معترف به من الدول الأوروبية العظمى وتقرير هذه القضية».

□ «بين سنتي ١٨٣٥ ــ ١٨٤٠، كان مورتس شتين شنيدر، من بين القائمين بتأليف جمعية من طلبة المدارس لدعوة الناس لانشاء حكومة يهودية في فلسطين».

□ «وفي سنة ١٨٤٧، نشر برتلمي في جريدة 'لوسيكل'، قصيدة حضّ فيها أسرة روتشيلد، على اعادة مملكة يهوذا الى سابق مجدها. وزار موسى مونتفيوري والبرت كراميو فلسطين. وفرّق الأول، الصدقات على فقراء اليهود، وأسس لهم ملجأ يأوون اليه، في مدينة القدس، خارج باب الخليل، على طريق بيت لحم».

□ «أما زيبي هرش غاليشر (١٧٩٥ ــ ١٨٧٤)، فيمكن القول: انه أول صهيوني بالفعل، وقد حام في كتابه 'درس صهيون'، حول استعمار فلسطين وزراعة أراضيها، وانشاء مدرسة زراعية فيها، وتنظيم قوة عسكرية من اليهود لحمايتها؛ وكان السبب في تأليف أول جمعية استعمارية في فرانكفورت عام ١٨٦١. وفي عام ١٨٦٤ م، ظهرت في جنيف رسالة بالفرنسية عنوانها: يجب على الأمم أن يعيدوا للشعب اليهودي قوميته».

□ «وفي عام ١٨٦٨ م، نشر فرنكل في استراسبوغ رسالة عنوانها: اعادة القومية اليهودية. فاجترأ على المجاهرة بوجوب اعادة دولة اليهود لفلسطين، بمشترى البلاد من السلطة العثمانية. ثم قال: واذا لم يمكننا [أن] نشتري فلسطين، فلنطلب وطناً معيناً في جهة أخرى من الكرة الأرضية، وهذا ما يرتئيه اليوم حزب 'الترتيوريساليين'، وهو أحد الأحزاب الموجودة في المؤتمر الصهيوني».

□ «عرض الرحالة الانكليزي لورنس أولفانت، السياسي الشهير، على الباب العالي، مشروعين: أحدهما طلب فيه امتياز خط حديدي يمر بوادي الفرات، ليسكن على جانبيه اليهود المهاجرون من روسيا. والثاني، تشكيل شركة رأسمالها عشرة ملايين روبل، لمشترى مليون، أو مليون ونصف مليون دونم من أرض جلعاد، وهي جهة السلط وحوران من فلسطين، لينتقل اليها يهود بولندا ورومانيا والأناضول. فلم تقبل الدولة العثمانية بأحد هذين المشروعين».

٣ ــ الفرمان السلطاني عام ١٢٨٧ هـ:

يورد روحي الخالدي النص الأصلي للفرمان السلطاني الشهير بشأن الاستيطان الصهيوني في فلسطين ويبدأه بالقول: «اعتقد مؤسسو جمعية الاتحاد الاسرائيلي العمومي، المتشكلة في باريس سنة ١٨٦٠، بامكان اعادة فلسطين لليهود، وعينوا لاستعمارها تشارلس نتر والبير كوهين، وأنشأوا بضواحي يافا مدرسة 'مكوى اسرائيل' الزراعية. وأما اسمها في الفرمان السلطاني المؤرخ بـ ٣ محرم ١٢٨٧، فهو المكتب الزراعي للجمعية العمومية الاسرائيلية»[٩].

نص الفرمان: «بناء على الاستدعاء المتقدم من شارل نتر، والمرسل بتحريرات من سفارتي السنية في باريس، المتضمن طلب المساعدة بفتح مكتب زراعي في ضواحي يافا، للجمعية الاسرائيلية (اليانس)، على بعض شروط تتعلق بهذا الخصوص، اتخذت دائرة النافعة لشوراء الدولة قراراً على المضبطة التي قدمتها الجمعية العمومية المذكورة وصدر تنظيم (...)* وبموجبها، تقرر فتح المكتب المذكور لتعليم فن الزراعة والفلاحة المرغوبة ترقيته في بلاد دولتي العلية، ضمن القواعد والأصول المخصوصة باسم المكتب

---

* فراغ في المخطوطة.

الزراعي للجمعية العمومية الاسرائيلية، ويكون تابعاً لقوانين الدولة العلية تحت نظارة المعارف وتحت حمايتي السنية، ويعد من جملة المكاتب العثمانية، ويحدد عدد تلامذته من ثلاثين الى ستين تلميذاً، تكون مدة اقامتهم في المكتب المذكور للتحصيل ثلاث سنوات. على أن هذا المكتب، وان يكن قد أنشىء على اسم أطفال الملة الموسوية، الا أنه يقبل فيه تلامذة من سائر الملل والمذاهب، بشرط أن يكونوا جميعاً من التبعية العثمانية، وأن يكون سنهم من ١٣ الى ١٦ سنة. واذا طلب أحد من الخارج تلقي الدروس فيه، يقبل وتعطى له الدروس مجاناً. أما مقدار الأجرة التي يجب على التلميذ دفعها حين الدخول، فهي من ٢٠٠ الى ٥٠٠ فرنك. ولما كانت الأراضي المطلوبة من الجمعية العمومية الاسرائيلية، لتكون مكتباً في لواء القدس الشريف، هي ألفان وستمائة دونم، فقد جرى مسحها وتحددت لها اجرة سنوية مبلغ ٧٥٠٠ غرش، وتبقى الأرض المذكورة تحت اجارة هذه الجمعية مادام هذا المكتب مراعياً للشروط المقررة ويدفع بدل ايجارة سنة فسنة. وانما يعفى من دفع بدل الايجار مدة عشر سنوات، اعتباراً من تاريخ فرماني هذا العالي الشأن، وذلك بصفته لطفاً مخصوصاً من جانب سلطنتي السنية، لهذه الجمعية هي مجبورة أن تفتح المكتب المذكور في سنتين من تاريخه. أما اذا لم يفتح المكتب، في ظرف المدة المذكورة، يعتبر حكم هذه الرخصة ملغياً. واذا فتح المكتب ثم تعطل أو أقفلته الجمعية فيجري تخمين وتعيين قيمة الأبنية والآبار التي قد أحدثت في الأرض المذكورة بمعرفة أرباب الخبرة وتدفع قيمتها وتضبط الأرض المذكورة بكافة مغروساتها. ثم ان بدل العشر السنوي، الذي يقتضي استيفاؤه عن حاصلات أراضي المكتب المذكور، مهما بلغ مقداره، يعطى من الأموال المحلية، سنةً فسنة بصفة اعانة. أما اذا جرى اخراج شيء من الحاصلات فيؤخذ رسم الكمرك عنه فقط، وكذلك يستورد قبل المباشرة ببناء هذا المكتب تقديم رسمه لمركز الولاية للتصديق عليه، وعلى ما يقتضي الحال لإنشائه المتفرعات بالتدريج على شرط أن لا يتجاوز اللزوم الحقيقي. وقد جرى التنسيب والتصويب على هذه الصورة بمجلس وكلائي الفخام، ولدى عرض الكيفية والاستئذان من ذاتي الشاهانية الشريفة، أصدرت ارادتي السنية الملوكانية بلزوم اجراء ذلك على الكيفية المحررة، وأعطيت أمري هذا الجليل القدر من ديواني الهمايوني المتضمن الرخصة بفتح المكتب المذكور، ليد شارل نتر، المومى اليه على أن يكون حكم هذه الارادة باقياً بدوام مراعاة الشروط المذكورة فيه تحريراً». انتهى الفرمان.

«وبموجب هذا الفرمان أجّرتهم الحكومة العثمانية ٢٦٠٠ دونم من الأراضي التي في منتهى بيارات يافا، بأجرة سنوية زهيدة، ودفعت عنهم بدل العشر من الأموال المحلية. وأما التلميذ الداخلي فيدفع ٢٠٠ ــ ٣٠٠ فرنك سنوياً». فتاريخ الانتي سميتزم مطابق لتاريخ الصهيونية، أي لظهور الدعوة الأولى اليها، والشروع باستعمار فلسطين؛ حيث هاجر، في نيسان (أبريل) ١٨٨١، الى فلسطين أفراد من يهود روسيا، وأحدثوا فيها أول مستعمرة يهودية دعوها 'ريشون له زيون' وتعرف عند العامة بعيون قارة».

٤ ــ الهجرة اليهودية الى فلسطين:

«عندما تولى أغناتيف، نظارة الداخلية في بطرسبورغ، بعد أن كان سفير روسيا في الآستانة وضع عام ١٨٨١ قانوناً، لإخراج اليهود من جميع المملكة الروسية واسكانهم في منطقة خاصة بهم جهة الغرب. وروى أنه، لشدة محبته للعنصر السلافي، وحرصه على بقائه خالصاً لايشوبه عنصر أجنبي، رغب في تطهير البلاد الروسية من عنصري اليهود والألمان. وكان عدد اليهود في بولونيا ١,٢٠٠,٠٠٠ نفس، وعددهم في باقي الممالك الروسية ٣,٥٠٠,٠٠٠ نفس، وهو أعظم مجتمع لليهود في العالم. وبعد نشر قانون أغناتيف، أخذت الحكومة في تطبيقه. وهاج الشعب بسبب هذا القانون وحنق على اليهود فآذاهم وشتمهم وحقرهم، ثم هجم الناس على اليهود ونهبوا أموالهم وجرحوا وقتلوا ثمانية وجرحوا ٢١١، وأغلظوا في الشتم والتحقير، وخالط تعصبهم عقائد الفوضويين والاشتراكيين فمما ضبط من أقوالهم: نفطر باليهود ونتغدى بأصحاب الأملاك ونتعشى بالكهنة». يضيف روحي الخالدي قائلاً: «فلا عجب بعد هذا الاضطهاد أن انخرط اليهود في حزب النهلست، وعملوا على احداث الثورات والانقلابات».

ويضيف روحي الخالدي قائلاً:

«...وهنا قام اثنان من أكابر اليهود وأغنيائهم، وهما: البارون هرش والبارون دي روتشيلد وأخذا على عاتقهما مساعدة يهود روسيا واعانة المهاجرين بأموالهما، فأسست في ١٨٩١ جمعية استعمارية يهودية لإسكان يهود روسيا في مواقع مختلفة، سيما في الأرجنتين، ووافقت الحكومة الروسية على هذا المشروع، بتاريخ ١٩ (آذار) مارس ١٨٩٢، وتعهدت جمعية المهاجرة باعطاء كل واحد من المهاجرين الفقراء ٥٠٠ روبل، لكنها لم تأخذ على عاتقها تسفير الشيوخ والمرضى، ولا العائلات التي لها أكثر من ستة أولاد. وبلغ عدد المهاجرين، في الربع الأخير من القرن الماضي، مليون نسمة من الطلاب والعمال».

«فوجهوا وجههم نحو فلسطين، وأسسوا الجمعيات الاستعمارية الفلسطينية، المعروفة باسم شوفيفي زيون* ومعناها الغيورون على صهيون. وأخذوا في جمع الأموال، وانشاء الشركات، وشراء الأراضي بظاهر القدس وغيرها من مدن فلسطين، وانشاء المستعمرات الصغيرة؛ وذلك بأن تشتري الشركة أرضاً واسعة، وتنشىء عليها خمسين داراً أو أكثر، تشتمل كل دار منها على غرفتين أو ثلاث غرف ومطبخ ومخزن وما يتبع ذلك، بحيث تكون الدار صالحة لسكنى أسرة يهودية وايواء أفرادها. وتوسم كل دار برقم ويعطى المهاجر رقماً يكون [له] بموجبه دار يدفع ثمنها، بالتدريج، مقسطاً على خمس عشرة أو عشرين سنة، ويصبح بعد ذلك صاحب ملك. وعلى هذا الوجه أحدثت جميع العمارات والبنايات اليهودية التي بظاهر القدس، وهي اليوم تزيد على أصل المدينة المحاطة بالسور بأربعة أو خمسة أمثالها».

«وقد نشر اسحق رولف رسالته المشهورة: أروهات بات أمي / أي مجموعة بنت أمتي، ونشر بن يهودا، في جريدة / الهاشار / الصادرة في القدس، مقالات متتابعة في الحض على استعمار الأراضي المقدسة، وتوطين اليهود تدريجياً فيها، زاعماً أن ذلك هو الواسطة الوحيدة لخلاص اليهودية واليهود، وقد أخذ من أجل ذلك للمحاكمة، واستأنف الحكم الصادر عليه في بيروت، وتبرأ بمعونة أصدقائه من المسلمين والمسيحيين.

«وعقدت جمعيات شوفيفي زيون والجمعيات الأخرى، بتاريخ ١٨٨٤/١١/٦ م، مؤتمراً حضره نواب خمسين جماعة وجمعية من اليهود، وتداولوا في تنظيم شؤون المستعمرين، وفي اعانتهم لما يحتاجون اليه. وفي ١٨٨٧/٦/١٥، عقد مؤتمر آخر في درسفنيك، وفي ١٨٨٩، عقد مؤتمر ثالث في فيلنا في بولندا حضره ٣٨ عضواً عن ٣٥ جمعية من هذه الجمعيات التي تسعى في استعمار فلسطين ونقل اليهود اليها».

«وأسست في ألوية القدس ونابلس وعكا أي في أرض يهودا وأرض الجليل نحو عشرين مستعمرة، وكادت المستعمرات الزراعية أن تحبط مساعيها لو لم يتكرم عليها البارون ادمون دي روتشيلد ويمدها باعاناته وأمواله الكثيرة، ويشوّق اليهود لزراعة الأراضي وغرس الكروم، ويدربهم على أعمال الفلاحة والزراعة بواسطة وكلائه وعماله، ولكنه أخفق في مشروعه هذا؛ اذ لم يكن في اليهود قابلية لذلك، فان قابليتهم في سكنى المدن والمعاملات التجارية والصرافة، لا في سكنى القرى وفلاحة أرضها. وقد بلغت حركة الاستعمار الفلسطيني أشدها عام ١٨٩٤ م، حينما نهض الأرمن للمطالبة باستقلالهم وألفوا الجمعيات السرية والثورية. وكان البارون دو هرش شديد النفور من استعمار فلسطين [لسببين]. أحدهما اقتصادي، وآخر سياسي. أما الاقتصادي فهو ضعف القوة الانباتية في أراضي فلسطين بالنسبة لأراضي أميركا الجنوبية، وقلة انتاجها الزراعي. [أما السياسي]، فهو مقاومة الدولة العثمانية لهذا المشروع».

ثم يفرد روحي الخالدي فصلاً عن حياة هرتسل[١٠] وعن المؤتمرات الصهيونية، من مؤتمر بازل الأول عام ١٨٩٧ م، وحتى المؤتمر السابع عام ١٩٠٥ م. ومما يورده روحي الخالدي هو عدد الجمعيات الصهيونية، القديمة والحديثة، حتى عقد المؤتمر الثاني في نيسان (أبريل) ١٨٩٨ م، وهي مقسمة على النحو التالي:

«روسيا ــ ٣٧٣، أوستريا (النمسا) ــ ٢١٨،

---

* حوفيفي تسيون: أحباء صهيون.

هنغاريا (المجر) ــ ٢٦٠، رومانيا ــ ١٢٧، انكلترا ــ ٢٦، المانيا ــ ٢٥، ايطاليا ــ ٢١، بلغاريا ــ ١٦، سويسرا ــ ٦، فرنسا ــ ٣، البلجيك ــ ٢، الدولة العثمانية ــ ٢، الدانمارك ــ ١، الصرب ــ ١، اليونان ــ ١، مصر ــ ٢، البرتغال ــ ٦، أميركا ــ ٦٠».

ويعلق روحي الخالدي على هذا الاحصاء بقوله: «يصور لنا هذا الاحصاء خريطة الأنتي سمتزم في أوروبا، ويرينا تفاوت درجاته. فالبلاد التي سادت فيها المساواة في الحقوق المدنية والسياسية لم تنتشر فيها الفكرة الصهيونية انتشاراً جدياً مهماً».

٥ ــ المؤتمر الصهيوني الأول في فلسطين:

«في ٢٣ ــ ١٩٠٣/٨/٢٨، انعقد مؤتمر صغير في زمارين (زخرون يعقوب)، وهي مستعمرة يهودية بالقرب من حيفا، برئاسة أوسيشكن. وكان القصد منه أن يكون مؤتمراً مصغراً عن مؤتمر بازل. وحضره خمسون عضواً، وكان أوسيشكن قد لقب بأمير اليهود' البرنس 'ونشر رسالة بعنوان: ' البرنامج ' لخص فيها أمل الصهيونيين:

«أولاً: احراز اليهود في فلسطين قصب السبق في العلم وفي الثروة.

«ثانياً: جمعهم وتنسيق قواهم العمومية.

«ثالثاً: زيادة الشعور القومي في أمة اليهود.

«رابعاً: بذل المساعي اللازمة، بالطرق الديبلوماسية، للوصول الى مقصدهم، وهو ايجاد قومية يهودية ووطن في فلسطين.

«ويجتمع المؤتمر مرة في السنة، وقسّم امارة فلسطين الى ستة ألوية هي:

«١ ــ القدس وحبرون (الخليل) وموته وعرتوف، وهي على بعد ساعة من دير بان.

«٢ ــ المستعمرات اليهودية التي حول الرملة وهي: عيون قارة، وادي حنين، بير يعقوب، روخبوت، عاقر، الخفيرة.

«٣ ــ يافا وملبس.

«٤ ــ الخضيرة، زخرون يعقوب، حيفا.

«٥ ــ الناصرة وطبريا والمستعمرات المجاورة.

«٦ ــ صفد ومستعمرات الجليل».

٦ ــ الصهيونية والصحافة:

«أنشأوا لهم [اليهود] عدة صحف، في روسيا والنمسا وألمانيا وايطاليا وانكلترا وبلغاريا ومصر. ولهم في القدس عدة صحف عبرانية، ولهم في الآستانة وسلانيك وأدرنة، جرائد بالاسبانية والفرنسية. وأشهر جرائدهم الفرنسية في الآستانة جريدة «أورور»، ومعناها الشفق، ولها مخصصات سنوية تدفع من بنك انكلوليفانتين في الآستانة. واشتروا الجرائد المشهورة. فابتدأوا بجريدة 'اقدام' ودسّوا لمديرها أحمد جودت بك اصدار جريدة بالفرنسية فأصدر 'اوريان 'بقلم البرفوا، فأخذ يحرر المقالات المناسبة للصهيونيين ويخفي مقاصده الصهيونية، ثم صار يراجع رئيس مجلس المبعوثان أحمد رضا بك وغيره من متنفذي الجمعية لعقد المؤتمر الصهيوني في الآستانة، ولما عارضوا نقم البرفوا على أحمد رضا بك وطعن به في رسالته المشهورة. ثم استخدم الصهيونيون جريدة 'جون ترك 'الفرنسية التي أصدرها جلال نوري بك، وانتهوا بشراء الجريدة، وتعيين راتب شهري لجلال نوري، وعينوا مديراً للجريدة 'رودبرغ '. وللجريدة اعتبار مالي عند بنك انكلوليفانتين لغاية ١٥٠ ألف فرنك سنوياً، ويستخدم في تحرير الجريدة من غير اليهود، لكي لا يسيء الناس الظن بها. واستعملوا هذه الواسطة مع بعض الجرائد السورية، كجريدة النصير الصادرة في بيروت، وجريدة النفير الصادرة في القدس، وجريدة الأخبار الصادرة في يافا، فاذا نشرت مقالة في جريدة النصر مثلاً في الدفاع عن الصهيونية، نقلتها جون ترك في الحال وأوهمت أن الدفاع ورد من جرائد سوريا المعتبرة»(١١).

٧ ــ الأحزاب الصهيونية:

١ ــ فرقة الحكومة: حزب هرتسل، وبرنامجها هو ما صرح به هرتسل في المؤتمرات. وأهمها: السعي في الحصول على وطن لليهود في فلسطين والبلاد المجاورة لها، وهي مع قرارات بازل.

٢ ــ فرقة الوسط: وتسمى الفرقة المزراحية (الشرقية). وهي فرقة اليهود المتدينين التي ظهرت في المؤتمر الخامس عام ١٩٠١، وصارت فرعاً من حزب الراديكال ورئيسها الرابي اسحق يعقوب ديناس، بلغ عدد أعضائه ١١ ألفاً، سنة ١٩٠٣. وعقدوا مؤتمراً مزراحياً عمومياً في برسبورغ عام ١٩٠٤، وذلك بعد وفاة هرتسل بشهر. وعقدوا

مؤتمراً في لندن عام ١٩٠٤، وفي نيويورك. وأنشأوا جريدة «جورنال السبت»، وحافظوا على مبادىء هرتسل وزادوا فقرة واحدة هي: «المحافظة على التقاليد اليهودية التي هي من أصول الدين»، وظلّوا يصوتون مع حزب الحكومة، ويمكن القول: انهم فرقة «صهيونية متدينة محافظة على أحكام التوراة والتقاليد الدينية».

٣ ــ **فرقة «بوال زيون»**: (بوعالي تسيون: عمال صهيون) وهي الحزب الديمقراطي أو حزب اليسار وبينهم أفراد من مشاهير الاشتراكيين. ويكثر هذا الحزب في النمسا وسويسرا، ومنهم جماعة جاهروا بأفكارهم الاشتراكية وسموا أنفسهم: «فرقة العمال الاشتراكية الصهيونية في لندن وباريس». عقدوا اجتماعهم الأول، في ٢٩ نيسان (أبريل) ١٩٠٤، وكانت لهم جريدة «نيوشتمي».

والظاهر أن هذه الفرقة تخدم غرضها الاشتراكي، أكثر من خدمتها للآمال الصهيونية، وتعارض في استعمار فلسطين لما في ذلك من الصعوبات والعقبات. ومن الذين يعارضون الصهيونيين أبوا مساعدة يهود رومانيا عام ١٨٩٧، ثم تفاهموا مع الصهيونيين وتقربوا اليهم وأصبحوا قوميين.

٤ ــ **فرقة «زيون زيونيست»**: ظهرت بعد المؤتمر السادس، على أثر مناقشة استعمار شرقي أفريقيا، ورئيس هذه الفرقة أو سيشكن، وعارض هذه الفكرة ونشر رسالة: «برنامجنا». وألفت هذه الفرقة جمعية للاستعمار سمتها: «غيلا» وبلغ عدد هؤلاء بعد المؤتمر السابع، ٣٦٠ عضواً.

٥ ــ **فرقة «التريتوياليين (الاقليميون)**: وهي الفرقة التي تدعو لايجاد وطن لليهود، في فلسطين أو في غيرها كأميركا الجنوبية أو شرقي أفريقيا. ولعبوا دوراً في المؤتمر السادس لقبول ما عرضته الحكومة الانكليزية عليهم من استعمار شرقي أفريقيا، ورئيس هذا الحزب هو اسرائيل زنكويل.

٨ ــ جمعية الاليانس الاسرائيلية:

«اليانس ايزرائيليت اينوفرسيل» أي الاتحاد الاسرائيلي العمومي: أسست عام ١٨٦٠ في باريس، وأهدافها: أولاً، العمل في كل مكان على حرية وارتقاء أخلاق اليهود. ثانياً، اعانة الذين يتألون بسبب كونهم يهوداً. ثالثاً، توزيع النشريات الموصلة لهذه الغاية.

وأول مدرسة أسستها جمعية الأليانس، كانت في مدينة تطوان، في الجزائر عام ١٨٦٢، ثم مدرسة «مكوى اسرائيل» الزراعية بالقرب من يافا، لتعليم اليهود فن الزراعة. وقد بلغ عدد مدارس الأليانس عام ١٨٨٥، ٤٩ مدرسة، عدد تلامذتها ٨٨٨٠ تلميذاً. وفي عام ١٨٩٠، بلغ ٥٤ مدرسة، فيها ١١٥٠٠ تلميذ، وفي عام ١٨٩٥، بلغ عددها ٧٠ مدرسة، فيها ١٦٠٠٠ تلميذ، وفي عام ١٩٠٨، بلغ عدد المدارس ١٤٢ مدرسة، فيها ٤١ ألف تلميذ».

عدد مدارس الأليانس باعتبار البلدان نصفها للصبيان ونصفها للبنات

اسم البلد	العدد
مراكش	٢٠
ايران	١١
آسيا العثمانية	١٦
طرابلس الغرب	٢
بلغارستان	١٢
الجزائر	٦
سوريا	١٩
مصر	٨
تونس	٧
أوروبا العثمانية	٣٥
العراق	٦
المجموع	**١٤٢ مدرسة**

«أما عدد الأساتذة المتخرجين من دار المعلمين فبلغ، عام ١٩٠٨، ١٢٥٠ استاذاً استخدمت الأليانس منهم ٢٨٢. وبلغت مصروفات المدارس عام ١٩٠٨، مليونين من الفرنكات. ولجمعية الأليانس دار للمعلمين في باريس يقال لها: دار المعلمين الاسرائيلية الشرقية، اعترفت بها الحكومة الفرنساوية وعدد طلبتها ٨٧ طالباً في عام ١٩٠٨، ومصروفاتها ١٠٦١٧٤ فرنكاً، وقد أعانتها زوجة البارون هرش وغولد سمث».

الى هنا يتوقف المخطوط.

أعد النصوص وقدمها

عز الدين المناصرة

(١) الدكتور اسحق موسى الحسيني، **هل الأدباء بشر**، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٠، ص ٣٣ و ٣٤.

(٢) الدكتور ناصرالدين الأسد، **محمد روحي الخالدي ــ رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين**، القاهرة: منشورات معهد البحوث، جامعة الدول العربية، ١٩٧٠، ص ٥١.

(٣) الدكتور عبد الرحمن ياغي، **حياة الأدب الفلسطيني من أول النهضة.. حتى النكبة**، بيروت: منشورات المكتب التجاري، ١٩٦٨، ص ٣٣٠ و ٣٣١.

(٤) عرفان أبو حمد الهواري، **أعلام من أرض السلام**، حيفا: شركة الأبحاث العلمية والعملية، جامعة حيفا، ١٩٧٩، ص ١٧٢.

(٥) احسان عطية، **الأراضي والكيرن كاييمت**، القدس: منشورات الملتقى الفكري العربي، ١٩٨١، ص ٨.

(٦) للمقارنة تمكن قراءة كتاب بديعة أمين، **المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية**، بيروت: دار الطليعة ١٩٧٤؛ **كذلك** أنظر: باور ــ ماركس، **حول المسالة اليهودية**، بيروت: دار الحقيقة، ترجمة الياس مرقص (بلا تاريخ).

(٧) أنظر في هذا المجال كتاب الدكتور عبد الوهاب المسيري، **اليهودية والصهيونية واسرائيل**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٥. ص ١٩ ــ ٣٦؛ أنظر أيضاً: الدكتور أسعد رزوق، **اسرائيل الكبرى، دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني**. بيروت: منشورات مركز الأبحاث م.ت.ف.، ١٩٧٣، ص ١٧ ــ ١٢٣؛ أسعد رزوق، **التلمود والصهيونية**، بيروت: مركز الأبحاث، م.ت.ف. ١٩٧٠.

(٨) أنظر: صبري جريس، **تاريخ الصهيونية (١٩٦٢ ــ ١٩١٧)**. بيروت: مركز الأبحاث، م.ت.ف.، ١٩٧٧، الجزء الأول، ص ٢٢.

(٩) انظر: بوندا ريفسكي، **سياستان ازاء العالم العربي**، موسكو: دار التقدم، ١٩٧٥، ص ٨٩ ــ ١١٠.

(١٠) أنظر: **يوميات هرتزل**، أنيس صايغ (تحرير)، وهيلدا شعبان (ترجمة)، مركز الأبحاث، م.ت.ف.، ١٩٦٧.

(١١) لمزيد من التفاصيل حول علاقة الصهيونية والصحافة، أنظر: جان دايه، «مجلة العالم الاسرائيلي البيروتية»، **شؤون فلسطينية**، العددان ٧٤ و٧٥، كانون الثاني (يناير)، شباط (فبراير)، ١٩٧٨.

مشاركة الأنظمة العربية في حرب لبنان بالشجب والادانة وبعض الأدعية

بادىء ذي بدء، لا بد من تسجيل الملاحظات الأولية على حرب حزيران (يونيو) ١٩٨٢، التي بدأت في ١٩٨٢/٦/٤ بقصف منطقة الجامعة العربية في بيروت، ثم تحولت في ١٩٨٢/٦/٦ إلى حرب حقيقية، اتسعت رقعتها تدريجياً طوال الفترة الممتدة من ٦ ــ ١٩٨٢/٦/١٣ لتصل إلى مشارف العاصمة اللبنانية بيروت، ثم تحولت بعد ذلك إلى حرب مواقع واستنزاف تحت ضغط التهديد باحتلال بيروت. ومن نافلة القول ذكر التقييم الاسرائيلي لها «بأنها أطول وأصعب حرب خاضتها اسرائيل في تاريخها».

والملاحظات التي يمكن تسجيلها هي:

١ ــ أن من بادر إلى هذه الحرب هي اسرائيل التي تذرعت بمحاولة قتل السفير الاسرائيلي في لندن، وخاضتها تحت شعار «توفير سلامة الجليل». وذلك بابعاد المدفعية الفلسطينية مسافة ٤٠ ــ ٤٥ كيلومتراً عن الحدود.

٢ ــ يمكن القول ان هذه الحرب هي الحرب الاسرائيلية ــ الفلسطينية الثالثة، بعد حربي ١٩٧٨، و١٩٨١، حيث خاضتها قوات المقاومة الفلسطينية، تدعمها قوات الحركة الوطنية اللبنانية وقوات حركة أمل.

٣ ــ بالرغم من الفارق النوعي والكمي بين القوات الاسرائيلية والقوات الفلسطينية ــ اللبنانية المشتركة، تمكنت الأخيرة من مواجهة الغزو، وما زالت، إلى درجة علق فيها اسحق رابين، رئيس الأركان الاسرائيلي في حرب ١٩٦٧، بالقول «ان هذه الحرب اسقطت مقولة الحرب الخاطفة»، بل ان اسرائيل بدأت منذ وقف اطلاق النار الثاني في ١٩٨٢/٦/١٢ تتخوف من احتمال تحولها إلى حرب استنزاف، الأمر الذي تتجاشاه اسرائيل. لذا دخلت بيروت الشرقية، وحاصرت بيروت الغربية، في اطار العمل على تحقيق أهدافها بأقصى السرعة، مستفيدة من الابتزاز السياسي تحت شعار «التلويح باحتلال بيروت الغربية».

٤ ــ في اليوم السادس للحرب، دخلت سوريا تلك الحرب في منطقتي البقاع والجبل، فيما عرف بحرب الـ ٣٠ ساعة، لتعلن بعد ذلك قبولها بوقف اطلاق النار الذي طالبت به اسرائيل، وتوقف فعلاً ذلك القتال في ذاك المحور في الساعة الثانية عشرة من يوم ١٩٨٢/٦/١١. وعاد ليتجدد في منطقة الجبل في فترة لاحقة، أي يوم ١٩٨٢/٦/٢٢، وذلك في اطار دفاع سوريا عن طريق بيروت ــ دمشق في منطقة بحمدون. ثم عاد وقف اطلاق النار ثانية في ١٩٨٢/٦/٢٥.

بعد الذي اسلفناه، وإذا تجاوزنا الدور السوري المحدد، يمكن طرح التساؤل الذي ظل طوال الحرب الشغل الشاغل وهو، أين العرب من هذه الحرب؟

طبعاً في الامكان تقسيم العرب إلى جماهير وأنظمة. ونظراً لعدم بروز دور جماهيري عياني طوال هذه الحرب، يمكن تجاوز ذلك، حيث لم يحدث ما يذكر، باستثناء التظاهرة التي قامت بها جماهير مصر، عندما هاجمت سفارة اسرائيل في القاهرة. عدا ذلك لم

يحدث أي تحرك ظاهر، مع اليقين الكامل بأن المواطنين العرب كان يأكلهم الحزن والمرارة لما يجري، ويمنعهم الخوف الذي غرسته في قلوبهم الأنظمة، طوال سنوات، عن القيام بأي عمل يمكن اعتماده شهادة على موقف محدد من هذه الحرب.

الأنظمة العربية من الشجب إلى الأدعية

منذ بداية الاجتياح الاسرائيلي للبنان، سارعت جميع الأنظمة العربية، دون استثناء، إلى شجب العدوان، وادانته، كما طالبت جميعها الولايات المتحدة للتدخل لوقف العدوان الاسرائيلي.

فقد ذكرت الخارجية المصرية «ان وزير الدولة المصري للشؤون الخارجية بطرس غالي أبلغ المسؤولين الأميركيين والاسرائيليين بضرورة وقف النار في لبنان» (السفير، بيروت ١٩٨٢/٦/٦).

أما السعودية، فقد وصف بيان صادر عن الحكومة السعودية «الاعتداءات الاسرائيلية على لبنان بأنها غير انسانية» (السفير، ١٩٨٢/٦/٧).

وفي ليبيا، أصدر المكتب الشعبي للاتصال الخارجي بياناً، جاء فيه «ان الجماهيرية الليبية على استعداد تام للدفاع عن لبنان والثورة الفلسطينية لمقاومة الاعتداء الصهيوني» (السفير، ١٩٨٢/٦/٨). لكن العقيد القذافي أكد في وقت لاحق «أن أسباباً جغرافية، حالت دون القيام بعمل عسكري ليبي مباشر على الجبهة الشمالية في لبنان... ولولا هذه الاسباب لكانت ليبيا اشتركت بإمكاناتها في المعركة ولم تنهها إلا بانتهاء العدوان» (السفير، ١٩٨٢/٦/١٦).

وفي ١٩٨٢/٦/٩، وجه ياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، رسالة إلى القادة العرب، جاء فيها «ان هذه المؤامرة المذبحة التي تنفذها الحكومة الاسرائيلية وقواتها بموافقة من الحكومة الولايات المتحدة الأميركية، تتطلب موقفاً عربياً مسؤولاً. اني أضع القادة العرب أمام مسؤولياتهم التاريخية والقومية» (السفير، ١٩٨٢/٦/٩).

فماذا كان رد الأنظمة العربية على رسالة عرفات؟

في مصر، قالت الخارجية المصرية «أن الرئيس المصري حسني مبارك تسلم رسالة شفوية من الرئيس الأميركي رونالد ريغان أكد فيها أن الولايات المتحدة ستبذل كل جهدها لانهاء الغزو الاسرائيلي للأراضي اللبنانية» (السفير، ١٩٨٢/٦/١٠): أما في السعودية، فقد أبلغ الأمير فهد الرئيس اللبناني الياس سركيس «أننا واثقون من أن صمودكم وشجاعتكم سيؤديان إلى صد هذا الغزو... وأن السعودية لن توفر أي جهد لاحتواء الأزمة، ووضع نهاية للمأساة التي أودت بحياة الألوف من الأرواح البريئة نتيجة الغزو الصهيوني الوحشي» (السفير ١٩٨٢/٦/١٣)، وأبلغ الأمير فهد ياسر عرفات «تمسك السعودية بمواقفها المبدئية الداعمة لمنظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني» (المصدر نفسه).

وبعد أن أصبح الأمير فهد ملكاً للسعودية بعد وفاة الملك خالد «تضرع... إلى الله بأن يخلص الشعبين الفلسطيني واللبناني من محنتهما الناجمة عن الغزو الاسرائيلي للبنان» السفير ١٩٨٢/٦/١٩).

ولا تضيف مواقف الدول العربية التي لم نذكرها شيئاً إلى مواقف الدول التي استعرضنا، من باب التدليل، بعض تصريحات مسؤوليها. والتمايزات بين هذا الموقف أو ذاك، لا يتعدى شكل التصرف بين من اتصل مباشرة بالرئيس ريغان، وبين من أبلغه رسالة بواسطة سفيره، وبين من دعا إلى عقد قمة عربية، أو من دعا إلى اجتماع لوزراء الخارجية العرب، أو من دعا إلى الوقوف إلى جانب الشعبين اللبناني والفلسطيني. وهذه المواقف على تنوع الشكل الذي تبدت فيه، لا تغير في حقيقة الموقف الذي يمكن أن تقفه أي دولة تبعد جغرافياً عن رقعة الصراع آلاف الأميال.

هذه المواقف العربية تطرح سؤالاً تاريخياً مفاده، هل أصبح الصراع العربي ــ الاسرائيلي، صراعاً فلسطينياً ــ اسرائيلياً؟ وهل أصبح لزاماً على الفلسطينيين أن يواجهوا قدرهم بعيداً عنالعرب؟

ان وقائع الحرب، بما في ذلك تدخل سوريا المحدود، يوحي بأن مؤشرات من هذا القبيل قد بدأت تظهر في هذا الاتجاه، سواء لوحظ ذلك على الصعيد الرسمي العربي، أو على الصعيد الجماهيري الذي اتسم بالسلبية المطلقة. فهل نذهب بعيداً مرة واحدة لنقول إن على الفلسطينيين أن يعدوا انفسهم في الجولات القادمة باعتبار أنهم وحدهم في المواجهة؟

هناك واقعة تمنعنا من الذهاب بعيداً في هذا الاتجاه. فالمواطن اللبناني، إذا استثنينا القلة التي استقبلت الجيش الاسرائيلي، وقف سلام إلى جانب الفلسطينيين، بل أن بعض الساسة التقليديين في

لبنان وقفوا بامكاناتهم إلى جانب المقاومة الفلسطينية، حين طرح موضوع وجوب انهاء الوجود الفلسطيني في لبنان، المسلح وغير المسلح.

نافذة الضوء هذه تجعلنا لا نسقط من حساباتنا احتمال أن تتحرك الجماهير في الأقطار العربية، اليوم أو غداً، لتعود الحضن الرحب الذي يحتوي المقاتل الفلسطيني ثانية، ويمده بكل ما تقتضيه ظروف المعركة الحضارية التي بدأها في مواجهة الغزو الصهيوني للمنطقة العربية.

وكما كانت حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ بداية هزيمة العرب، فالقتال الفلسطيني في حزيران (يونيو) ١٩٨٢ سيشكل بداية، وسيرسي أسساً لنمط قد يحرك العرب باتجاه حالة الهزيمة التي استشرت في الذات العربية.

أحمد شاهين

الغزو الاسرائيلي
في المنظار الدولي

يصعب الجزم، منذ الآن، بالشكل الذي ستستقر عنده مواقف الاطراف الدولية الفاعلة تجاه الغزو الاسرائيلي للبنان، ما لم تتضح النتائج العسكرية النهائية، والمطالب النهائية لطرفي الصراع الرئيسين اسرائيل من جهة والقوات المشتركة الفلسطينية ــ اللبنانية وأمل وسوريا من جهة أخرى. فعلى أساس تلك المطالب النهائية ستحدد مطالب حلفاء الطرفين، وعلى اساسها سيتحدد موقف القوى التي قد تطرح حلولاً مساومة. ويشمل هذا الحلفاء على المستوى العالمي، كما يشمل العرب والاطراف اللبنانية المحلية.

وبدهي ان «المطالب النهائية» لطرفي الصراع لا تتعلق بالنوايا والشعارات المرفوعة فقط، بل باوراق الضغط التي يمتلكها كل فريق والتي يفترض ان المعركة الدائرة حالياً، وآفاق معارك المستقبل ستكرسها في يد كل منهما.

والأمر الواضح حتى الآن ان الموقف الدولي تجاه غزو لبنان لم يعد يتعلق بادانة أو امتداح هذه العملية، ذلك ان اسرائيل نفسها تتحدث عن «اضطرارها إلى القيام بها دفاعاً عن النفس»، كما لم يعد يتعلق بانسحاب اسرائيل أو عدم انسحابها، لان الغزاة أيضاً اعلنوا «نيتهم» الانسحاب متى توفر لهم من يقوم باعباء الاحتلال بالنيابة عنهم. الموقف الدولي، إذن، يمكن تمييزه على اساس الموقف من «شروط انسحاب» القوات الغازية الاسرائيلية، والموقف من حملة الابتزاز والتهويل الجارية الآن ضد القوى الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية وتحميلها مسؤولية كارثة قد تحل ببيروت. وعلى اساس الموقف من هاتين القضيتين يمكن ان نصنف، ولو بشكل أولي، المواقف الدولية المختلفة.

الانقسام في مجلس الأمن

خلال ثلاثة ايام فقط اتخذ مجلس الأمن قرارين هما القرار (٥٠٨) و(٥٠٩) وتعطل اتخاذه لقرار ثالث بفعل الفيتو الأميركي.

ويمكن من خلال متابعة الملاحظات التي ابدتها المندوبة الأميركية جين كيركباتريك تعليقاً على القرارين اللذين أقرا والقرار الذي تم ايقافه تلمس الموقف الأميركي منذ ايام الغزو الأولى.

صدر القرار الأول المرقم (٥٠٨) بتاريخ ٥ حزيران (يونيو) أي قبل ان تتأكد اخبار الاجتياح الاسرائيلي، و«حث» فيه «كل اطراف النزاع على الموقف الفوري والمتبادل لكل النشاطات العسكرية عبر الحدود اللبنانية الاسرائيلية» ويطلب «من كل الاعضاء الذين هم في موقع يسمح لهم بذلك ان يمارسوا نفوذهم على المعنيين».

وكان يمكن تفسير هذا القرار، من وجهة النظر «الاسرائيلية» على أساس انه غير موجه لها فقط بالتحديد، بل إليها وإلى القوات المشتركة في آن واحد. وكان يمكن تفسير البند الثاني بانه يتعلق بالاطراف المؤثرة على كلا الطرفين.

أما القرار الذي تبناه مجلس الأمن بالاجماع بعد يومين والذي حمل الرقم ٥٠٩ فهو أكثر مساعدة لنا في استجلاء مواقف الدول المختلفة، خصوصاً وان الأمر

لم يعد يتعلق بالنشاطات (عبر الحدود اللبنانية ــ الاسرائيلية) بل اصبح الاجتياح لاراضي لبنان حقيقة واقعة.

القرار ٥٠٩ أكد «مجدداً الحاجة إلى الاحترام الصارم لوحدة اراضي وسيادة لبنان واستقلاله السياسي داخل حدوده المعترف بها دولياً» وطالب «اسرائيل بسحب كل قواتها العسكرية فوراً وبدون شروط إلى الحدود اللبنانية المعترف بها دولياً». كما دعا إلى ايقاف كل النشاطات العسكرية عبر الحدود اللبنانية ــ الفلسطينية وفي داخل لبنان.

هنا، وبعد ان اتضح ان العملية تتعدى النزاع «عبر الحدود»، إلى غزو متكامل خطط له منذ فترة غير قصيرة وترافق مع اهداف سياسية وعسكرية خطيرة، اصرت كيركباتريك على الا يتضمن القرار بنداً «يدعو اصدقاء اسرائيل والقادرين على التأثير عليها للضغط عليها للانسحاب». وفسرت رفضها، بان مثل هذا البند «يعتبر تدخلاً خارجياً في العلاقات الثنائية بين الدول المستقلة».

بعد يومين، ٩ حزيران (يونيو) استخدمت الولايات المتحدة حق النقض ضد مشروع القرار الاسباني الذي لم يختلف كثيراً عن القرارين السابقين سوى في تضمنه فقرة «يدين فيها عدم احترام اسرائيل للقرارين ٥٠٨ و ٥٠٩». وعدا هذا تضمن مشروع القرار مطالبة جميع الأطراف بالالتزام بوقف الأعمال العسكرية، وانهاء الاعمال الحربية خلال ست ساعات.

وكان واضحاً ان تغير الموقف الأميركي يعود إلى رهان أميركا على امكانية ان تحقق اسرائيل تفوقاً ساحقاً يمكنها من عزل القوات المشتركة واجبارها على القتال منفردة في ظروف عسكرية لغير صالحها. ومع ان من الصعب الجزم بذلك الآن، فيبدو ان الولايات المتحدة كانت تطمح إلى تحقيق اسرائيل لبعض النجاحات لكي تستثمرها فيما بعد، أي كانت تطمح إلى تكرار ما حصل في حرب تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣.

فالمندوبة الأميركية بررت استخدامها لحق الفيتو على مشروع القرار بانه «لم يكن متوازناً بما يكفي لتحقيق الهدف المطلوب وهو انهاء مسلسل العنف». ولا حاجة للتأمل في المقصود بالعبارة، ذلك ان المندوبة الأميركية أوحت، بما لا يقبل الشك، بمعرفتها بالشروط الاسرائيلية التي ستطرح مقابل انسحاب قوات اسرائيل، وبموافقتها على هذه الشروط، الأمر الذي كشفته التحركات الأميركية الموازية لتحرك كيركباتريك، ولكن خارج مجلس الأمن، واعلان هيغ بأنه كان على اتصال بالمندوبة الأميركية قبل التصويت على القرار.

هيغ يلخص الموقف الأميركي

خلال أقل من اسبوعين انتقل الموقف الأميركي من الدعوة إلى وقف النار والانسحاب الفوري للغزاة من اراضي لبنان، إلى تبني الموقف الاسرائيلي بكامله مع اختلافات طفيفة بشأن التفاصيل، وهي اختلافات سرها بعض المراقبين، على ضآلتها، توزيعاً مقصوداً للادوار يهدف إلى تصوير الموقف الأميركي بصورة الضاغط على اسرائيل وبخاصة فيما يتعلق بحملة التهويل والابتزاز التي خاضها الطرفان فيما يتعلق ببيروت الغربية.

وكان الموقف الأميركي يتغير تبعاً لقناعة واشنطن بان اسرائيل حققت تقدماً جديداً يمكن الطرفين من استخدامه لصالحهما. ومع وصول قوات الغزو إلى بيروت الشرقية واحاطتها برمز السيادة اللبنانية، القصر الجمهوري، كان واضحاً ان الاهداف السياسية التي اتبعتها اسرائيل شديدة الضخامة وتصل إلى حد اعادة النظر بصيغة وجود لبنان نفسه. وتطلب الأمر لذلك غزواً بهذا القدر من الضخامة بهدف مراكمة أكبر قدر ممكن من أوراق الابتزاز بيد الغازي.

جاء رد الفعل الأميركي الأول يوم الغارة الاسرائيلية الأولى على بيروت (٦/٥) حيث اكتفى هيغ بالحديث عن وقف اطلاق النار. «اننا نقوم بجهود دبلوماسية مكثفة في محاولة للحفاظ على وقف اطلاق النار». وبعد يومين فقط برز الموقف المتناقض، إن لم نقل الملتوي، للولايات المتحدة. ففي مؤتمر صحفي عقده الكسندر هيغ ابرز ان فيليب حبيب «سيشدد على تأييد الرئيس ريغان لقرار مجلس الأمن، الداعي إلى انسحاب القوات الاسرائيلية من لبنان فوراً ومن دون شروط»، مشير في الوقت نفسه إلى معرفة الحكومة الأميركية «بالهجمات على شمال اسرائيل»، وإلى ان ريغان ما يزال يدرس موضوع الغزو الاسرائيلي ليحدد ما إذا كان «دفاعاً مشروعاً عن النفس» ام لا! وفي اليوم نفسه سرب هيغ للمرة الأولى احاديث تتعلق بهيكل الدولة اللبنانية، وإن لم تتخذ هذه طابعاً رسمياً إلا فيما بعد. «نرغب في تقوية الحكومة المركزية اللبنانية، وان تصبح الحدود من

دون خطر... وسنحتاج إلى تعديل للاتفاقات الداخلية في لبنان وتقوية الحكومة المركزية» (٦/٧). وفي اليوم التالي، اشار هيغ للمرة الأولى رسمياً إلى وجود قوات الردع العربية كواحد من المطالب الأميركية، وذلك في مؤتمر صحفي عقده في لندن «اننا نعمل لتقوية الحكومة اللبنانية ونأمل أن يكون هناك تقليل للوجود السوري وتعزيز للمؤسسات اللبنانية» (٦/٨).

الحديث عن «انسحاب جميع القوات» ورد للمرة الأولى في خطاب ريغان أمام جلسة مشتركة لمجلسي العموم واللوردات في لندن في ٦/٨ «والآن يجب ان تضع جميع الاطراف حداً للمعارك وان تسحب قواتها إلى داخل حدودها.. لكن ذلك لا يكفي، ويجب ان نعمل معاً من أجل القضاء على خطر الأرهاب الذي يجعل خطر الحرب محدقاً دائماً بالشرق الأوسط».

ومنذ ذلك الوقت بات مشروعاً التساؤل عن معنى التزام الولايات المتحدة بالقرار (٥٠٩) الذي يدعو إلى انسحاب فوري وغير مشروط، فيما أخذت الشروط تبرز الآن حولربط الانسحاب «بالقضاء على الأرهاب» و«سحب القوات كلها». وفي هذا الوقت بالذات، وبعد ان تأكد ان اسرائيل تجاوزت في غزوها مسافة الـ ٤٠ كيلومتراً التي أدعت ان «عملية السلام للجليل» تشملها، جاء الفيتو الأميركي المشار إليه، كما جاء حديث هيغ عن عجز قوات الطوارىء الحالية، واقتراحه قوة «حفظ سلام متعددة الجنسيات على غرار قوة سيناء» (٦/٩). بحيث لم يعد هناك مجال للحديث عن انسحاب اسرائيلي غير مشروط، إذ بات الأمر يتطلب اقراراً رسمياً لبنانياً واقراراً دولياً بايجاد هذه القوة.

والملاحظ في تصاعد الموقف الأميركي، ان أي اعلان رسمي جديد كان يسبقه دوماً تسريب انباء صحفية يتم تأكيدها رسمياً في اليوم التالي. وهكذا كان الأمر مع التراجع عن مطالبة القوات الغازية بالانسحاب الفوري. ففي ٦/١٠ نفت الاذاعة الاسرائيلية طلب ريغان من اسرائيل مغادرة لبنان وأكدت انه لم يطلب غير «وضع حد للاعمال الحربية فقط»، الأمر الذي جرى نفيه في اليوم نفسه، ليعاد تأكيده في اليوم التالي على لسان الناطق باسم الخارجية الأميركية آلن رومبرغ الذي أكد في (٦/١١) (ان موضوع عدم استعمال لبنان قاعدة انطلاق لهجمات على اسرائيل مرتبط بالانسحاب الاسرائيلي)؛ واوضح الناطق، لأول مرة، تفسير الادارة الأميركية لوقف اطلاق النار الذي نص عليه قرار مجلس الأمن (٥٠٩) على وجود ارتباط وثيق بين وقف القتال وبين الانسحاب من لبنان، وان الادارة الأميركية تدعو إلى تطبيقهما في آن واحد. وبدا ان الخطوة اللاحقة ستكون (توفير ضمانات لعدم تجدد القتال) وهي الخطوة التي ستغدو حسب التفسير الأميركي معادلة لاستسلام المقاومة الفلسطينية.

هنا كانت سوريا قد وافقت على اقتراح وقف اطلاق النار، وربطت موافقتها بانسحاب القوات الغازية من اراضي لبنان. لكن السيناريو الاسرائيلي كان يتجه إلى محاولة الاستفراد بالقوات المشتركة برغم بقاء مواقع ستراتيجية ومهمة تحت سيطرة قوات الردع العربية يمكن لها ان تلعب دوراً حاسماً في ترجيح سير المعركة.

في ذلك الوقت اعلن شارون وزير الدفاع الاسرائيلي ان وقف اطلاق النار اجراء بين اسرائيل وسوريا فقط، وبالتالي فلا علاقة له بالقتال الدائر ضد الشعبين الفلسطيني واللبناني. وفي ظل ميزان القوى الجديد هذا اتضحت بصورة مفصلة معالم الموقف الأميركي المتطابق مع موقف اسرائيل. ففي ٦/١٢ اعلنت انيتا ستوكمان الناطقة بلسان الخارجية الأميركية ما يلي:

«لا يمكن السماح بالعودة إلى الأوضاع السابقة في لبنان». واضافت مصادر رسمية أميركية توضح هذاالموقف «ان الأوضاع التي ينبغي معالجتها في الوقت الحاضر، هي عجز الحكومة اللبنانية عن ممارسة سلطتها بسبب الوجود السوري وتمركز المقاتلين الفلسطينيين»، واشارت إلى ان الولايات المتحدة لن تضغط على اسرائيل لسحب قواتها من لبنان قبل التوصل إلى اتفاق دولي يحد من الوجود العسكري السوري والفلسطينيين في هذا البلد. وعوض النظر إلى الوجود السوري في لبنان كنتيجة للحرب الاهلية، وإلى وقوف المقاومة الفلسطينية بعيداً عن الصراعات الداخلية اللبنانية، ربط هيغ بين (عدم استقرار) لبنان ووجود المقاومة وقوات الردع فيها.

فقد اعلن الكسندر هيغ في مقابلة مع شبكة (ان.بي.سي.) التلفزيونية في ٦/١٣، ان الولايات المتحدة «لا تطالب الاسرائيليين بانسحاب فوري» وان «على جميع العناصر الموجودة في لبنان مغادرته لضمان عودة الاستقرار إليه». وفسر موقفه بان «أحداً لا يمكن ان يرحب بعودة الحالة التي سبقت العملية الاسرائيلية هذه الحالة التي أدت إلى عدم الاستقرار الذي شهده لبنان منذ العام ١٩٧٥، وبذلك فان الولايات المتحدة تعمل على ضمان خروج جميع

العناصر الاجنبية من لبنان. لان من المستحيل وجود سلطات لعناصر اجنبية داخل دولة ذات سيادة». وبشأن انسحاب اسرائيل، اعلن هيغ لأول مرة ان الادارة الاميركية «لا تطالب الاسرائيليين بانسحاب فوري. وان الانسحاب الاسرائيلي الذي طالب به قرار مجلس الأمن الذي صوتت الولايات المتحدة مؤيدة له لم يكن النقطة الجوهرية لهذا القرار».

وبعد يومين، وبرغم وصول قوات الغزو إلى بعبدا، الأمر الذي ادخل تحولاً سياسياً نوعياً في سير عملية الغزو، اعاد الناطق الرسمي باسم البيت الأبيض لاري سبيكس تأكيد الموقف ذاته: تأييد قيام حكومة مركزية قوية، الانسحاب النهائي لكل القوات الاجنبية، قوات دولية لحفظ السلام.

هذه المرة ومع لعب ماكنة الحرب الاعلامية والنفسية دوراً بالغ الاستثناء، ترافقت هذهالمطالب مع حملات ابتزاز نفسي للقوى الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية تدور حول تعرض بيروت للتدمير والقيام بعمليات كوماندوز اسرائيلية ضد قادة المقاومة، الخ. ويتضح حتى الآن ان لعبة شد الاعصاب هذه، لم تؤد إلى التأثير على معنويات القوات المشتركة، باجماع المراقبين، فيما اتضح ان أحد نتائجها كانت تظاهر الادارة الأميركية باهتمامها بمصير بيروت، وبالضغط على اسرائيل لمنعها من محاولة اقتحام بيروت الغربية.

هذا الموقف أدى بدوره إلى ان الادارة الأميركية حاولت ان توحي لحلفائها العرب المحرجين باستقلال موقفها عن الموقف الاسرائيلي وامكانية ان تلعب دور الوسيط لا الشريك الكامل لاسرائيل في عمليتها الهمجية، كما سمح لها ان تحاول اغراق القضية الجوهرية وهي تنفيذ قراري مجلس الأمن ٥٠٨ و ٥٠٩، بتركيز جهودها على نقل الضغوط الاسرائيلية إلى الحكم اللبناني والاطراف المعنية الأخرى، والهاء الاطراف المختلفة بهذه الضغوط، وانتزاع التنازلات منها مقابل الوعد لا بانسحاب اسرائيل الشامل بل باقناع اسرائيل بعدم اقتحام بيروت الغربية. وهو موقف وإن لم ينطل على الحركة الوطنية اللبنانية وأمل والمقاومة الفلسطينية، إلا ان الميليشيات اليمينية استثمرته إلى الحد الأقصى، لتنفيذ مخططها.

هل كان الموقف السوفياتي غير مفهوم؟

لا حاجة لتكرار وصف السياق العربي الذي جاء الغزو في ظله. لقد استثمرت اسرائيل الوضع الدولي والعربي على احسن وجه. وما دمنا معنيين هنا بالجانب الدولي فحسب، فلا بأس من الاشارة إلى ان العلاقات العربية ــ السوفياتية هي في أدنى مستوياتها منذ ربع قرن، وان حملات التشكيك والاستفزاز والحديث عن «الخطر السوفياتي»، وضرورة التنسيق مع الولايات المتحدة لمواجهته لم تكن بعيدة عن بيانات ومواقف جميع الدول العربية، باستثناء دول الصمود والتصدي.

ولا بد من الاعتراف، من الناحية الأخرى، بان الموقف الأميركي ظل فاعلاً في التأثير على مجريات الغزو، لصالح اسرائيل بالطبع، لاسباب واضحة أيضاً: تعاون استراتيجي معلن مع اسرائيل (وإن هدد بيغن بتجميده)، لجان عسكرية مشتركة مع أكثر من طرف عربي فاعل، قوات تدخل سريع على الحافة الجنوبية للجزيرة العربية، الاسطول السادس على الساحل الشرقي وعلاقات متينة مع معظم الانظمة العربية ومع اسرائيل في آن واحد، تتيح لها التدخل في أية لحظة.

مقابل هذا ما الركائز التي استند إليها الموقف السوفياتي؟ المدخل السوفياتي الوحيد للتأثير على الوضع في لبنان، كان ولا يزال معاهدة الصداقة السورية ــ السوفياتية التي ينص احد بنودها على التنسيق والتشاور بين البلدين، في حال تعرض أمن أو سيادة احدهما للخطر، كما ينص بند آخر على اتخاذ كل من طرفي المعاهدة الاجراءات اللازمة للدفاع عن أمن وسيادة البلد الآخر.

وجاء توضيح سوفياتي لتفسير بنود هذه المعاهدة في العام الماضي، حين افتعلت اسرائيل ما سمي بازمة صواريخ البقاع، حيث اعلن مصدر سوفياتي في حينها ان الدفاع عن أمن سوريا يتعدى الحدود الجغرافية ويلزم الاتحاد السوفياتي بالدفاع عن سوريا، حيثما وجدت قواتها في شكل قانوني. إذن، كان هناك مدخل سوفياتي للتأثير على الغزو الاسرائيلي، لكنه مدخل مشروط بطلب الطرف الثاني في المعاهدة للعون، وباعلانه أنه أمن بلاده يتعرض للخطر.

ومن جهة ثانية، لم يتوقع أحد أن تلجأ الشرعية اللبنانية، ممثلة برئيس الجمهورية، إلى الاعلان عن ان سيادة لبنان واستقلاله معرضان للخطر، الأمر الذي يمنح الدول الكبرى، وبخاصة الحريصة فعلاً على دعم البلدان العربية كالاتحاد السوفياتي، فرصة لتقديم العون وفقاً لمبادىء القانون الدولي.

وعلى هذين الاساسين، تصاعد الموقف السوفياتي، وهو موقف لا يمكن متابعته إلا عبر ما تنشره الصحافة السوفياتية ووسائل الاعلام، فيما يبقى الكثير مما سيقال بعد ان تهدأ المدافع والكثير مما لن يقال اطلاقاً، كما يعرف من يتابع اسلوب العمل الحذر للدبلوماسية السوفياتية.

وكان أول تعليق في الصحافة السوفياتية ما نشرته (برافدا) في اليوم الأول للعدوان (٦/٥)، حيث شخصت بوضوح وبصورة مبكرة اهداف العدوان الاسرائيلي «والان توجه اسرائيل كل جهودها لسحق منظمة التحرير الفلسطينية ومراكزها وقواعدها. وفي هذا يكمن الجوهر الرئيسي للغارات الجوية الأخيرة... والاعتداء البري الواسع الذي يجري التحضير له ازاء هذا البلد... إن من شأن اقصاء منظمة التحرير الفلسطينية كعامل من عوامل السياسة في الشرق الأوسط واضعاف سوريا بشكل ملموس ان يسمحا لاسرائيل ليس فقط بضم الاراضي التي احتلتها في العام ١٩٦٧، بل كذلك تهجير مئات الالوف من الفلسطينيين من الضفة الغربية إلى الاردن وربما أيضاً بتثبيت نظام في لبنان يكون مستعداً للتعاون مع تل أبيب». وتعرضت البرافدا في ملاحظة نادرة إلى «العناصر السلبية في الموقف العربي».

لكن أول موقف رسمي سوفياتي، عدا مواقف الدعم الصريحة لقرارات مجلس الأمن، ظهر في بيان للحكومة السوفياتية ووصف العدوان بانه (تحد لمنظمة الأمم المتحدة) وطالبها (باتخاذ اجراءات فورية لوضع حد للعدوان الاسرائيلي) وابرز ما في البيان، المطالبة بوقف التدخل المسلح لا (بالاعمال الحربية)، كما درجت الدبلوماسية الغربية للاشارة إلى نضال الشعب الفلسطيني المسلح بالتساوي مع العدوان الاسرائيلي، كما تضمن البيان دعوة للانسحاب الكامل لقوات الغزو من الأراضي اللبنانية، واعتبر ان العدوان تم بمساندة واشنطن وبموافقتها).

وكما يلاحظ فان وسائل ردع العدوان القيت على (الامم المتحدة) لا على دولة بمفردها، وهو أمر منطقي، بالارتباط مع ادانة الولايات المتحدة، كشريكة في التخطيط والتنفيذ للعدوان، وهو ما ظلت ترددة وسائل الاعلام السوفياتية في الايام التالية وتضيف له تفاصيل اخرى تؤكده. وبالارتباط مع ما اشرنا إليه اعلاه. وقبل ان تدخل سوريا طرفاً مباشراً في المعارك كانت البيانات الرسمية السوفياتية تحمل مجلس الأمن الدولي والأمم المتحدة مسؤولية صد العدوان واجبار اسرائيل على الانسحاب.

في ٦/٩ برز أول موقف على لسان مسؤول سوفياتي بارز هو اندريه غروميكو، في لقائه مع أبو اللطف في نيويورك. فقد ابرز بيان «تاس» الصادر عن اللقاء الموقف السوفياتي الذي تحدث لا عن دعم بلدان مثل سوريا ولبنان فحسب، بل عن (تأكيد غروميكو لأبو اللطف ثبات الدعم الذي يقدمه الاتحاد السوفياتي إلى النضال العادل الذي يخوضه الشعب العربي الفلسطيني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ضد سياسة اسرائيل العدوانية، وفي سبيل الحرية والاستقلال واحقاق حقوقه الوطنية المشروعة).

في ٦/١٠ لم تشر وسائل الاعلام السوفياتية قط إلى رسالة اعلنت وسائل الاعلام الاخرى ورودها من الرئيس ليونيد بريجنيف إلى أبو عمار، لكن الصحف السوفياتية صعدت من لهجتها ضد اسرائيل مما يلمح إلى طابع الرسالة التي ارسلها بريجنيف إلى عرفات. فالصحف السوفياتية تحدثت عن اهداف العملية، باعتبارها تصفية حركة المقاومة الفلسطينية و«سحق ارادة شعبها»، وفرض «ما يسمى بالحكم الذاتي»، والضغط «على الانتخابات المقبلة في لبنان وضمان وصول رئيس مؤيد لاسرائيل وللولايات المتحدة»، واضعاف سوريا وجعلها شريكاً «طيعاً».

في اليوم التالي كشف هيغ النقاب عن ان الرئيس بريجنيف بعث برسالة إلى رونالد ريغان. ومع ان الرسالة اعربت عن قلق القيادة السوفياتية ازاء الغزو، إلا ان احتمال التدخل السوفياتي المباشر لم ترد في الرسالة مباشرة. ومع هذا فلا بد من ملاحظة ان اعلان اسرائيل اقتراحها بوقف اطلاق النار ورد في ذلك اليوم بالضبط؛ وبغض النظر عن مسببات وقف اطلاق النار بين سوريا واسرائيل، فلا بد من الاشارة إلى تحفظ الاتحاد السوفياتي على شروطه، إذ اذاعت (تاس) في ٦/١١ بياناً جاء فيه «ان قرار وقف النار الذي اعلنته تل أبيب تصاحبه شروط يساوي قبولها ترك المدنيين دون دفاع أمام القصف الاسرائيلي»، ومع الاعلان عن وقف اطلاق النار الثاني صعدت «تاس» لهجتها معتبرة اياه «لا يعدو كونه مناورة سياسية تستهدف تخفيف ما اثاره العدوان الاسرائيلي من سخط في العالم اجمع واعطاء فترة راحة لقواته المنهكة نتيجة المعارك قبل اعادة تجميعها»، واضافت: «ان واشنطن

وتل أبيب تتباطآن وتسوفان إذ انهما تسعيان إلى فرض شروط مهينة على الدول العربية». (تاس، ٦/١٣).

ومع صدور التحذير السوفياتي (٦/١٤) الذي وصف بانه أول تحذير من نوعه منذ العدوان الثلاثي على مصر في العام ١٩٥٦، اخذ الحديث يتصاعد عن اجراءات عسكرية جديدة من جانب السوفيات، كارسال قطع بحرية اضافية أو جسر جوي مباشر... الخ.

ومما حفز على مثل هذه التوقعات ان بيان الحكومة السوفياتية ربط رسمياً بين العدوان وبين (ما يسمى بالتعاون الاستراتيجي بين تل أبيب وواشنطن)، وبين (مخطط تقسيم لبنان ووضع ما يسمى بالقوات متعددة الجنسية في الأراضي اللبنانية)، كما حفز عليها دعوة البيان إلى (ضرورة تنفيذ) القرارات التي اتخذها مجلس الأمن. ان البيان السوفياتي لم يشر هذه المرة إلى الجهة التي يفترض فيها تولي مسؤولية تنفيذ القرارات، وهو أمر مفهوم، لان مجلس الأمن الذي دعاه في البيانات السابقة إلى تنفيذ تلك القرارات تعرض ابتداء من ٦/٩ إلى عملية منظمة لشل فاعليته بعد الفيتو الأميركي. لكن العبارة الأكثر وضوحاً في البيان كله نصت «ان الاتحاد السوفياتي يقف فعلاً وليس بالاقوال إلى جانب العرب، ويعمل كل ما في وسعه على ان يخرج المعتدي من لبنان».

ومما له مغزى ان التحذير السوفياتي لم يشر إلى مسؤوليته، على اساس دعوة رسمية لبنانية، لاتخاذ موقف من الغزو، أو على اساس معاهدة الصداقة والتعاون التي تربطه بسوريا، بل اشار إلى (ان الشرق الأوسط منطقة تقع بالقرب من الحدود الجنوبية للاتحاد السوفياتي وان الاحداث فيه لا بد وان تمس مصالح الاتحاد السوفياتي، واننا نحذر اسرائيل في هذا الصدد».

لماذا لم يشر البيان إلا إلى علاقة الوضع في لبنان بأمن الاتحاد السوفياتي؟ هذا سؤال ينتظر المستقبل للاجابة عليه، ويكفي ان نشير إلى بيان لوكالة «تاس» في اليوم ذاته، انتقدت فيه (الدول العربية التي لم تقدم الدعم الكافي للفلسطينيين». واشارت إلى «ان اسرائيل استغلت واقع ان عدداً من الدول العربية لا يكترث بما يجري في لبنان».

طوال الايام اللاحقة، ومن دون أية تأكيدات من الجانب السوفياتي بالطبع، كانت اجهزة الكخابرات المركزية الأميركية تبرز اخباراً عن تصعيد الوجود السوفياتي في البحر المتوسط، وظلت التصريحات الرسمية السوفياتية تؤكد على علاقة واشنطن الوثيقة بمخطط الغزو.

ويبقى ما لم يعلن عنه من اتصالات دبلوماسية وبخاصة لقاء غروميكو ــ هيغ الثاني الذي كرس جزء كبير منه للوضع في لبنان، والذي يمكن ان نستشف موقف غروميكو فيه، من كلمة غروميكو أمام الجمعية العامة للامم المتحدة (٦/١٥)، حيث كرر المطلب السوفياتي بالانسحاب الكامل والفوري (واعادة اراضي العرب التي يملكونها بمقتضى القانون) ومنح الشعب الفلسطيني حق انشاء وطن خاص به.

موقف أوروبا الغربية

يتضح إذن ان الطرف الدولي الوحيد القادر على التأثير سياسياً، لا عسكرياً، على القرار الاسرائيلي، فضلاً عن قدرته على التأثير على موقف الانظمة العربية المؤثرة على لبنان، عدا سوريا، هي الولايات المتحدة.

ومع هذا، فان قدرة أوروبا الغربية على التأثير ليست قليلة، وإن كانت مواقفها بعيدة عن ان تكون موحدة، وانتأثير الموقف الاوروبي الغربي، حتى اذا توحد، يمكن ان يظهر في المدى المتوسط، فقط بسبب طابع العلاقات التي تربط أوروبا الغربية باسرائيل. فهي علاقات لا تقوم على اعتماد اسرائيلي مفرط على أوروبا الغربية في ميدان استراتيجي كالتسليح مثلاً. كما انها علاقات تحتوي على ما يخفف من امكانية فرض أي ضغط جدي على اسرائيل، من خلال ارتباط الطرفين بعلاقات تحالفية مع الولايات المتحدة، ومن خلال ادراك اطراف كثيرة في حلف شمال الأطلسي ان اسرائيل تنفذ في واقع الأمر مهمة تصب لصالح اهداف الحلف نفسه.

رغم هذا تميز الموقف الفرنسي في حدته تجاه العدوان، وبخاصة بالمقارنة مع الانعطافة الودية التي اجراها ميتران في العلاقة مع اسرائيل، الأمر الذي دفع شامير وزير خارجية العدو وروزين سفير اسرائيل في فرنسا إلى وصف النشاطات التضامنية الحكومية والشعبية الفرنسية بانها نتاج «حرب صليبية» تشنها منظمة التحرير الفلسطينية ضد اسرائيل.

ابرز ما تضمنه الموقف الفرنسي التصويت على قراري مجلس الأمن ٥٠٨ و٥٠٩، وهو موقف اشتركت فيه فرنسا مع باقي الدول الأوروبية، كما اتخذت هذه الأطراف الأوروبية موقفاً غير معرقل، على

الأقل، لدعوة مجلس الأمن إلى الانعقاد مجدداً، لاستصدار قرار جديد يؤكد على ضرورة الانسحاب الشامل، لولا الفيتو الأميركي.

لكن الموقف الفرنسي شهد في الايام الاخيرة تصعيداً جديداً مع استقبال بيير موروا رئيس الحكومة الفرنسية فاروق القدومي، وهو ما سبب ردة الفعل العنيفة من جانب حكومة اسرائيل. ذلك ان هذه الخطوة هي الأولى من نوعها، إذ لم يسبق ان التقى رئيس حكومة فرنسي مسؤولاً من منظمة التحرير الفلسطينية من قبل.

وهذا ما دعا شامير إلى الاعراب عن قلقه من سعي منظمة التحرير الفلسطينية إلى تحقيق «انتصار سياسي، من الواضح العسكري المستجد (٦/٢٠).

واذا كان الموقف الفرنسي تميز، برغم العلاقة التقليدية بين الحزب الاشتراكي الحاكم واسرائيل، بزج اعضاء التحالف الحاكم من الحزبين الاشتراكي والشيوعي في نشاطات التضامن مع الشعبين اللبناني والفلسطيني، فان موقفين آخرين، داخل المجموعة الأوروبية، يلفتان الانتباه، هما موقف اليونان التي دعت المجموعة الاقتصادية الأوروبية (٦/٢١)، انشاء اجتماع وزراء خارجيتها، إلى عدم الاكتفاء بادانة الغزو الاسرائيلي، بل طالبت بفرض عقوبات اقتصادية على اسرائيل (لم يستجب لها)، فضلاً عن حظر تصدير الأسلحة والمعدات الحربية إلى الغزاة. وهناك أيضاً الموقف النمساوي، المتعاطف تقليدياً مع كفاح الشعب الفلسطيني، الذي بلغ حد وصف المستشار كرايسكي لحكومة بيغن بانها «شبه فاشية». (٦/١٥).

مع هذا لا بد من بضع ملاحظات بصدد الموقف الأوروبي الغربي عموماً. ذلك ان أكثر عبارات الادانة جزماً، لم تترافق مع اجراءات عملية للضغط على اسرائيل، علماً ان طبيعة العلاقات الأوروبية ــ الاسرائيلية تتيح لها التأثير اقتصادياً وسياسياً على اسرائيل، لا بصورة حاسمة، ولكن بدرجة يمكن ان تترك على الأقل بعض الاثار السلبية في داخل اسرائيل.

ولقد استخدمت شتى المبررات لتجنب اتخاذ مواقف عملية، منها مثلاً ان اسرائيل يمكن ان تستغني عن العلاقات مع اوروبا موقتاً لتوسيع اعتمادها على الولايات المتحدة، ومنها ان «العقوبات الادارية» ليست امراً محبذاً على حد تعبير كرايسكي (٦/١٤) الذيرفض الدعوة لطرد حزب العمل الصهيوني من الدولية الاشتراكية.

وكانت حصيلة هذا كله ان المجموعة الاقتصادية الأوروبية وقفت مشلولة تجاه تطوير مواقفها، بعد ان قرر وزراء خارجيتها العشرة في اجتماعهم الأول (٦/٩) (الاجتماع من جديد لتحديد موقفهم إذا لم يقبل الاسرائيليون قرارات الأمم المتحدة).

والواقع ان هذا القرار ولد مشلولاً من الأساس، إذ اوضح وزير خارجية ايطاليا، ساعة صدوره «ان هذا لا يعني بالضرورة ان الدول العشر ستبحث توقيع عقوبات على اسرائيل».

أما الموقف الفرنسي، فهو مع الاشارة إلى تميزه إلا انه لم يخرج عن اطار التصورات الأميركية إلا من حيث كونه أكثر اهتماماً بالجوانب «الانسانية»، أي اعمال الابادة الجماعية وتدمير المباني والقصف العشوائي. ففي اليوم الأول للغزو (٦/٦)، تلا ميتران باسم رؤساء الدول السبع المجتمعين في فرساي بياناً لم يشر فيه إلى «حق لبنان في الاستقلال والحرية والوحدة والسيادة» بما هو حق انتهكته اسرائيل، بل باعتباره حقاً (انتهكه مراراً كثيرون وهذه المرة انتهكته اسرائيل)، ولأول مرة منذ الحرب الأهلية اللبنانية يكرر رئيس فرنسي حجة اسرائيل وذلك في مؤتمر صحفي اعلن فيه «منذ مدة طويلة لم يعد ممكناً التحدث عن السيادة اللبنانية كواقع... فلبنان كان يحتله منذ فترة جيشان قبل ان يحتله جيش ثالث» (٦/٩).

ومذ ذاك اقتصر حديث فرنسا عن المساهمة في حل الأزمة على ابداء الاستعداد لارسال قوات في حال انشاء قوة «حفظ سلام متعددة الجنسية»، أو في حال طلب الدولة اللبنانية من فرنسا ارسال قوات إلى لبنان. وفي ما عدا هذا بقي الموقف الفرنسي قائماً على «اخراج كل المسلحين الاجانب» من لبنان.

ومن المفيد الاشارة في هذا السياق إلى الموقف الالماني الغربي القائم على التصور ذاته، فوزير خارجية المانيا الغربية غينشر الذي ادان الغزو اعتبر «انسحاب القوات الاسرائيلية من لبنان غير كاف، بل ينبغي ايجاد حل يعيد سيادة لبنان ويؤمن سلطة مؤسسات الدولة وسلامة اراضيها بضمان دولي»، أما الانسحاب الاسرائيلي فقط، فهو، في رأيه، «لا يؤدي إلا إلى العودة إلى الأمر الواقع السابق». (٦/١٣).

ولعل الموقف الأوروبي الوحيد الذي دعا إلى طرح قضية «حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني» وإلى

«اجراء حوار بين منظمة التحرير الفلسطينية والولايات المتحدة» هو موقف بريطانيا على لسان وزير خارجيتها فرانسيس بيم (١٢ و٦/١٦).

* * *

ويبقى ان نشير إلى مواقف التضامن من جانب دول أوروبا الاشتراكية والصين ومعظم بلدان عدم الانحياز، الأمر الذي تجلى في المقاطعة الجماعية لمثلي أكثر من مائة دولة لخطاب بيغن في الدورة الخاصة للجمعية العامة للامم المتحدة.

بيد ان معركة بهذا القدر من الشراسة، ومحاولة الغزاة اليائسة لتوجيه ضربة ساحقة لا للمقاومة الفلسطينية فحسب، بل للحركة الوطنية اللبنانية كلها، وابادة الشعب الفلسطيني، ان مثل هذه المعركة، وان تأثرت مجرياتها بحجم الضغوط العالمية التي يتعرض وسيتعرض لها الغزاة، إلا ان التحالف الاستراتيجي الأميكي ــ الاسرائيلي المعلن هو العنصر الدولي الأكثر تأثيراً عليها، والذي لن يوازنه إلا تحالف استراتيجي على المستوى ذاته مع الصديق الذي امتحنت مواقفه في أكثر من معركة خاضها العرب، والذي تعرض إلى الانتقادات أكثر من غيره: الاتحاد السوفياتي.

عصام الخفاجي

يصدر قريباً عن مركز الأبحاث

الفلسطينيون
ماضٍ مجيد ومستقبل باهر

تأليف
د. عزت طنوس

Palestine Affairs

No. 128, July, 1982

Published monthly in Arabic by the P. L. O. Research Center P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon (Tel. 808976/7/8. Cables: MARABHATH).

Editor: **Bilal El - Hassan**

Annual Subscription

Air Mail: Arab countries — Individuals: L. L. 135 ($40), Institutions: L.L. 250 ($60); Europe — $60; U.S.A. and Elsewhere — $75.

Surface Mail: Lebanon and Syria — Individuals: L.L. 100 ($25), Institutions: L. L. 150 ($35). Elsewhere — $40.

الثمن: ٨ ل.ل. في لبنان
١٠ ل.س. في سوريا
١ دينار في الكويت والعراق
١٢ درهماً في دولة الإمارات العربية
١ دينار في ليبيا
١٠ دراهم في المغرب
١٠ ل.ل. في الأقطار العربية الأخرى